



ميشال زيناكو

الرواية

عشق فينيس

Bibliotheca Alexandrina
0147019

الطبعة الثانية
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية

عشاق فينيسيا

میشال زریفا کو

روایۃ
عشق وینیس

ترجمہ
طانیوس عبّود

الجزء الثاني

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

« دار الجيل »

بيروت - لبنان

ص. ب ٨٧٣٧

تلفون : ٢٦٦١٥٨

تلكس : دارجيل ٢٣٤٣٠

Telex : DARJIL 23430

١٩٨٠

٣٨

التقاء وحشين

خرج ساندرىجو من قصر امباريا وهو يكاد يطير سروراً فبرح فينيسيا لفوره وسار في طريق مغاور بيافا فوصل في الساعة التاسعة الى قرية تريفيزا ودخل أحد بيوتها ولقي فيه اثني عشر رجلاً مجتمعين .

وكانوا مضطجعين على الأرض حول مستوقد ولكنهم لم يكونوا نائمين دون شك فانهم حين دخول ساندرىجو وقفوا جميعهم إكراماً له فانه بعد عشاء اربعة اشهر لم يستطع ان يجمع غير هذا العدد القليل من رجال عصابته القدماء في الجبال ولكنه حشد في فينيسيا عصابة خطيرة كان مركزها العام بخارة مرسى الذهب كما رأيناه .

فتفقد ساندرىجو رجاله وقد ظهرت عليه علائم الرضى فقال :

— لقد اجتمعتم كلكم هنا فيكم يبلغ عددهم هناك ؟

فأجابه أحدهم وكان تأثبه في غيابه قائلاً :

— انهم ستة فقط اربعة عند باب المغارة واثنان عند باب غرفة السجن .

قال : إذن لا بد لنا من الفوز ولكن يجب ان نفاجئهم مسرعين .

قال : نعم فان سكالابرينو قد مرّ من هنا منذ يومين ويخشى ان يعود .

قال : لا تخافوا سكالابرينو بعد الآن فقد سددت معه حسابي القديم ولا
تدسوا ما وعدتكم به فان الكنز في المغارة فيجب ان تبحثوا عنه فيها حتى
تجدوه ومتى ظفرتم به يكون النصف لكم .

فاتقدت عيونهم ببارق من السرور ومشى أمامهم وهو يقول :
- إذن هلموا بنا .

فخرج الجميع من المنزل وسار كل منهم في جهة حسب الأوامر التي تلقاها
وسار ساندريجو في طريق المغارة السوداء حتى إذا وصل الى قيد ألف خطوة
منها اختبأ وراء الادغال واقام ينتظر .

وبعد ساعة سمع صغيراً فقال : لقد قضي الأمر وأسرع الى المغارة فدخل
اليها فوجد اربعة رجال مقيدين . فقال له قائبه :
- لقد كانوا ستة فاضطررنا الى قتل اثنين .

فأظهم ساندريجو إشارة قدل على عدم الاكتراث ثم نظر الى الأسرى
وقال : فكوا قيودهم .

فكوا قيودهم وعند ذلك دنا ساندريجو منهم فقال لهم :
- لقد كنتم من رجال عصايتي فثرتم علي وخضعتم لرجل لم يكن في
شيء منا بل لا يمكن ان يكون .

وأنا قادم من فينيسيا حيث لقيت فيها بعض كبار اهل المناصب وعرفت
منهم حقيقة هذا الرجل الغريب الذي جاء الينا ليلقي بذور الشقاق بين
عصاياتنا .

أعلمون من هو هذا الرجل الذي وليتموه الزعامة الكبرى عليكم ؟
إنه احد عمال مجلس العشرة وخطته بسيطة واضحة وهو انه يحمل
عصايات الجبل على الثقة به ثم يأتي بهم الى فينيسيا وهناك يقبض عليهم
جميعاً مرة واحدة .

فصاح به احد الأسرى قائلاً : لقد كذبت .

فأخذ ساندريجو غدارته فوضعها على صدغ الأسير وقال له :

— أأنت واثق من اني كذبت ؟

قال : نعم انك من الكاذبين .

فأطلق ساندريجو الرصاص عليه وسقط ذلك المسكين يتخبط بدمه وقد مات شهيداً وفاء لرولاندا .

أما ساندريجو فلم يكثر لما فعل وعاد الى مخاطبة الاسرى فقال :

— أتريدون ان تكونوا معنا ، أتريدون ان تذهبوا الى رفاقكم المتشردين في الجبال فتعبرونهم بما قلته لكم وتظهروا اليهم ذلك الخطر العظيم الذي يهددهم وإذا كنتم حقيقة من اللصوص فلا بد لكم ان تقتلوا وان تنفذوا اخوانكم أما أنا فاني أنسى الماضي واجعل لكم حظاً من هذا الكنز الموجود هنا .

فقال احدهم : اني اقبل .

وقال الثاني : اني رضيت .

وسكت الثالث ، فقال له ساندريجو : ما بالك لا تجيب أهلك تريد ان

تقتني أثر هذا القتيل ؟

قال : نعم فاني أؤثر كل موت على الخيانة ، فما انت إلا من الكاذبين فاضرب يا ساند ...

وقبل ان يتم لفظ اسمه سقط قتيلاً فأدار رفيقه رأسه كي لا يريا هذا المنظر فقال لهما :

— لقد أصبحنا الآن منا ونسيت كل ما مضى منكما ، ثم ذهب الى ثاقبه وممس في أذنه قائلاً :

— يجب ان تبالغ في مراقبتها وإذا خفت منها الخيانة فاحذر ان تكون رحيماً .

وبعد ذلك نظر الى الجميع وقال : إبدأوا الآن التفتيش عن الكنز .

فصاح الجميع صياح الفرح وتواروا عن الانظار في تلك المغارة المظلمة
الكثيرة الشعاب .

أمسا ساندريجو فانه ذهب الى المغارة وبيده مشعل فوصل الى باب محكم
الإقفال ووقف عنده يصغي فلم يسمع حساً، فقال في نفسه: أياكون قد مات؟
ثم ففتح ذلك الباب بالمفاتيح التي أخذها من الأسرى ودخل الى ذلك
السجن فرأى في أحد زواياه رجلاً متربعا وقد تمزقت ملابسه ورقق ونخل
حتى ذهب لحمه ولم يبق فيه من دلائل الحياة غير بريق عينيه .

وكان هذا الرجل يبهو .

فلما رأى الكوردينال ذلك الرجل داخلا عليه يحمل مشعلا بيده وفي
منطقته ذلك الخنجر المصبوغ بالدماء تراجع زاحفا منذعرا حتى التصق
بالجدار وهو يقول :

— انك قادم لقتلي كما أرى فان رولاند كانديانو الذي انتزع الرفق من
قلبه لم يكفه هذا الانتقام الذي انتقمه مني فأراد ان يتهمه بقتلي .
فقال له ساندريجو ، اطمئن .

ولكن يبهو لم يسمع هذه الكلمة وقال بلمهجة المنذع .
ألم اكفر بعد عن ذنبي نعم ان ذنبي كان عظيما والآن وازنت بين شقائني
وبين ما حملت رولاند من الشقاء فعلمت مقدار اساءتي اليه .

ولكن لكل شيء حدا حتى العقاب فقل لرولاند الذي هو رجل مثل
العقاب الأكبر بيد الله لا بيده فان الله المنتقم الجبار يغفر أيضا لمن يثوب
ويندم فدامة صادقة وأنا تأتب نادم فاني اقضي جميع اوقاتي بالصلاة والاستغفار
ولكن لا يسمعي احد .

وقد جعل الكوردينال عند ذلك يقرع جبهته بالارض ويلتمس ويستغفر .
فنظر اليه ساندريجو نظرة ازدراء وقال في نفسه .

ويج للرجال كم يغيرهم الشقاء فقد كان هذا الرجل يخافه الناس وكان لا

ضمير له ولا ذمة ولا رحمة ولا قلب فاصبح عند الشقاء جزوعاً ضعيفاً يشبه
الطفل الذي يخاف في ظلمات الليل فيستغيث بأمه .

ووالله اني لم اتعهد لفوسكاري باحضاره اليه لتركته يموت في هذا السجن
فانه لا يستحق الحياة .

ثم قال له :

— انهض يا حضرة الكردينال فانك من امراء الكنيسة ويجب ان تركع
امامك لا تركع امامنا فانت الان حر طليق .

فلبث ببو جاثياً وقال :

— انا حر طليق !

قال ، ألم اقل لك ذلك فانهم فانت حر ان تخرج من هنا وان تعود الى
فيينيسيا والى مقامك في الهيئة الاجتماعية وقصر الدوج الذي ينتظرك .

أنا حر .. اذن لقد عفا عني رولاند .. اذن لم يخطيء ظني فيه فهو
الرجل الطيب الكريم الاخلاق الذي اسأل الله ان يباركه عني .

وقد سالت الدموع الغزيرة من عينيه وحاول ان يقف لكنه سقط فقال :

— رباه الا يكون مراده تعذيبي بالرجاء الكاذب بعد اليأس كما عذبته انا

حين زرته في السجن .

فانهضه ساريجو وهزه هزاً عنيفاً وقال :

— لا شك انك قد فقدت صوابك والا فما معنى هذا الهلع بعد ان قلت لك

انك حر وليس رولاند الذي يطلق سراحك فتدعوه له هذا بل انا الذي
انقذتك فتعال معي .

وعند ذلك حدى جداً الى خارج المغارة بينما كان الالهوص يشغلون

بنقب جدرانها باحثين عن الكنز .

فلما تنشق الكردينال الهواء النقي هواء الجبال ورأى النجوم تتقد في

السماء وقف هنيهة وهو مندهش مأخوذ .

فأجلسه ساندريجو على حجر وسقاه كأساً من الخمر فشربها جرعة واحدة
وهدأت افكاره بعد ان كان مصاباً بما يشبه الذهول فنظر الى ميا حواليه
وبدأ ان يعلم ما مضى فقال لسانديجو .

من انت اذكر لي اسمك يا منقذي كي اردده في صلواتي ما حبيت .

فأجابه ساندريجو قائلاً :

— اني ادعى ساندريجو .

— نعم من قواد الجندرمة في فينيسيا .

— ألعلمهم ارسلك لانقاذي ؟

— كلا بل ارسلت نفسي واذا كنت انقذك فلأن انقاذك يروق لي .

— اني اباركك كيف كان قصدك .

وقد أخذت عند ذلك يد ساندريجو بين يديه فضنط عليها اشارة الى
امتنانه ثم جعل يركض في ظلمات الليل كأنه لا يزال غير واثق من انه بات
حرراً طليقاً .

ولقد طال طوافه بضيع ساعات بحيث انه لم يعد الى المغارة الا حين
طلوع الشمس .

وقد فكر ملياً اثناء طوافه واطمأن باله حتى عادت اليه سكينته ودهاؤه
وتعبه .

فلما رآه ساندريجو قال له ، اني اؤثر ان اراك كما انت الآن على ما كنت
عليه .

قال ، هل تتبمني ؟

— واية فائدة لي من ان اتبعك فقد كنت واثقاً انك ستعود .

— اذن أنا حقيقة حر .

— أما رأيت ذلك بالبرهان ؟

— هو ذاك فالى اين تريد الذهاب بي ؟

— الى فينيسيا حيث ينتظرونك .

— من الذي ينتظرنى ؟

— الدوج فوسكاري كما قلت لك .

حسناً فلنذهب في الحال .

— بل يجب ان تأكل كي تتقوى ثم تغير ملابسك الا قرى انها بانث
رقعاً بالية ؟

وقد دله عند ذلك ساندريجو على قاعة في المغارة كان فيها مائدة عليها
طعام وشراب وهناك ثوب قام من ملابس الفرسان .

فبدأ الكردينال يلبس الثوب ثم اكل وشرب وخرج الاثنان من المغارة
فركبا جوادين وهما بالرحيل .

وقبل ان يرحلا نادى ساندريجو احد اللصوص فقال له :

— ألم تعثروا على شيء ؟

قال ، كلا

قال ، عودوا الى البحث عن الكنز فاني واثق من وجوده في هذه المغارة
فهز اللص رأسه اشارة الى يأسه من لقائه .

قال ، لا بد ان تجدوه لو نسقتم الجبال .

ثم اطلق الجواده العنان واقتدى به الكردينال فاجتازا قرية ترفيزا
وسارا في طريق ترفيزا كي يذهبا منها الى مستر ومن هناك الى بحيرات
فينيسيا .

وقد بدأ الكردينال الحديث معه فقال له :

— اني أعيد عليك ما قلته وهو اني بمن لك الى الأبد .

قال ، اني اقبل امتنانك الابدي على اعتقادي بانه لا يوجد شيء ابدي
في هذا الوجود حق ولا امتنان كردينال .

فلم يجبه الكردينال على تهكمه وقال له :

لقد قلت لي حين انقذتني في الليل اقوالا لا اذكرها لاضطرابي في ذلك
الحين ولكني لا ازال اذكر اني سمعت منك اسم رولاند .

— نعم فقد سألتني اذا كان هو الذي صفح عنك .

فاتقدت عيناه ببارق من الغضب وقال :

— ألع هذا الرجل من أصحابك ؟

قال ، ان صداقته لي تشبه صداقة العاصفة للثوتي وصداقة النمر للموعل
نعم اني أكره هذا الرجل بلء جوارجي ولولا يقيني انك تكرهه أشد ما
أكرهه لما انقذتك ولتركتك تموت في سجنك اقول هذا وأنا أرجو ان
تعذرني لحريتي .

— قل ما تشاء فاني ما سررت بحياتي بمثل ما اسمعه الآن منك .

— اذا كان ذلك فلننتكلم بحلاء فاعلم اذن انك غير مدين لي بشيء وذلك
اني لم انقذك لفائدتك بل لفائدتي اذ أرجو ان تكون لي اشد سلاح على
مقاتلة رولاند .

ثم ابتسم وقال ، اني ضربته ضربات شديدة ولكني أرجو باعتمادك عليك
ان اضربه الضربة القاضية .

— اعتمد علي ولكن يجب ان اعرف هذا الحليف الذي تعاهدت واياه
على الهجوم وقد عرفت من انا في حين اني لم اعرف من انت .

لقد قلت لك اني قائد في الجندرمة تحت إمرة التياري القائد العام
ولكنني لم انل هذا المنصب الا من عهد قريب فقد كنت قبله من اللصوص .
فنظر اليه الكردينال نظرة انكار فأجابه على نظرتة قائلا :

— إذن ذلك يدهشك دون شك ولكنك حين تصل الى فينيسيا تعلم عني
أموراً كثيرة من رجل تثق به كل الثقة .

— من هو ؟

— هو الدوج فوسكاري .

— حسنًا فسأصبر الى ان أراه فأقول لك ما أريده منك والآن قل لي ما تريده مني .

فأطرق ساندريجو هنيئة مفكراً وقال :

اني اطلب اليه قضاء امرين احدهما ان تعينني بكل قوتك على رولاند كانديانو .

— لقد اتفقنا على هذا الطلب فما هو الثاني .

— ان طلبي الثاني سيبدو لك غريباً يا حضرة الكوردينال فقصد كنت لصاً قبل ان أكون قائد ولكن اللصوص يحبون كما يظهر كسائر الناس وقد احببت فتاة .

— أتريد ان أساعدك علي رضى أهلها بزواجك ؟

— كلا فاني لا أعتمد علي أحد في مثل هذا الشأن .

— اذن ماذا تريد ؟

— لقد كنت بالأمس لصاً واصبحت اليوم قائداً فأريد ان يكون لي مقام بين العائلات الايطالية ولاسيا لامراتي .

— لماذا لا يكون لامراتك مقام ؟

— الأمر سوف تعلمه فان الأسرات النبيلة ستستقبلها ببرود وأنا أريد ان يدخل القائد ساندريجو وامراته الى أرفع بيت وهما شائخا الرأس .

— ماذا يجب ان اعمل لتحقيق هذه الأمنية ؟

— يجب ان يحضر حفل زواجي اشرف العائلات وان تكون الحفلة باهرة وان يعقد قراننا اعظم رجال الكنيسة في فينيسيا اي الكوردينال بمو بنفسه .

— إذن انت انقذتني لهذه الغاية ؟

— كلا بل اني انقذتك من المغارة السوداء لاعتقادي انك تحمل من الحقد على رولاند فوق ما احمل ولا انكر عليك اني حين سمعتك تتوسل وتثني

على كرم رولاند ندمت وعزمت على التخلي عنك غير اني رأيت ولا سيما بعد هذا الابتسام الذي تبتسمه الآن ان حقدك عظيم عليه وهو رجل شديد يستحق عناء المؤامرة عليه .

— وأنا ارى رأيك فلتسرع اذن فاني ما زلت في هذه الجهات لا آمن على نفسي .

وقد جد الاثنان عند ذلك السير وبعد ساعة دخلا الى سراي الدوج فقال ساندريجو الفوسكاري .

أرأيت يا مولاي كيف وفيت بوعدى ؟

فشكره الدوج بإشارة وجعل ينظر بمبو وهو معجب بتغيره فان سجن بضعة ايام فعل به ما لم يفعله بولاند سجن ستة اعوام . فأدرك بمبو سر نظرائه وقال له :

نعم لقد تغيرت كثيراً فان كل دقيقة مرت بي في ذلك السجن الهائل كانت بمثابة عام ثم قال له بصوت منخفض .

يجب ان نتحدث

قال ، في هذا المساء

— اين نجتمع ؟

— حسب العادة في جسر التهنيدات

— حسناً فساوافيك ولكن اعلمت ان رولاند في قيد الحياة .

— نعم لقد علمت

— انه حاقد علينا حقداً شديداً وانتقام هذا الرجل هائل كما علمت بالبرهان .

وكان فوسكاري شجاعاً بقدر ما كان بمبو جباناً ومسع ذلك فانه ارتعد فقال له بمبو :

يجب ان نحذر لأنفسنا كل الحذر وان نتخذ الوسائل السريفة فننقض

انقضاض الصاعقة أو يقبض علينا رولاند الواحد تلو الآخر فان هذا الرجل
اشد وأقوى مما كنا نتوقع .

— سنجتمع في هذا المساء

— ثم التفت الى ساندريجو وقال له :

اشكرك يا حضرة القائد لانقاذك الكردينال فانت من اشد اعواننا
ورجائي ان تستمر على خدمة الجمهورية مثل هذه الخدمات الجليلة وان
استمر على ترقيةك بما ينطبق على كفاءتك .

فانحنى ساندريجو شاكراً وهو يكاد يطير سروراً ثم استأذن من الدوج
وخرج مع الكردينال الى قصره .

وهناك قال له الكردينال ، لقد مشيت الآن ايها الصديق في طريق
الثروة والسعادة فان فوسكاي لا يرجع عما يمد به وأما أنا سأساعدك
ببلء قوتي .

— وأنا معتمد عليك دون شك .

— اذن عد الى غداً فاني مضطر هذه الليلة الى مشاورة رجل لا بد لي
من استشارته وغداً نتحدث ملياً فيما يفيد .

— ماذا سألتني ؟

— وأنا سابدأ عملي منذ اليوم ولكن لا تستطيع ان تجيبني الآن عما
سألتك اياه ونحن في طريق البعيريات .

— ان تحضر حفلة زواجي جميع نبلاء فينيسيا ويعقد لي في الكنيسة
الكاتدرائية ويتولى عقد القران الكردينال بمبو اسقف فينيسيا .

— انه شرف عظيم لا يمنح عادة الا لأكابر الناس ولكني لا أستطيع ان
ارفض شيئاً مما تطلبه وسيكون ما تريد فقل لي ماذا تدعى تلك الفتاة .

— انها تدعى ميانسكا وهي ابنة المحفظة امباريا .

وعند ذلك انحنى وانصرف فبقي يبهو وحده دون حراك كأنما الساعة قد انقضت عليه .

فلم يشب إلى رشد الا بعد حين فجعل يقول :
بيانكا ، انه يريد ان يتزوج ببيانكا وان اتولى انا عقد القران فيما له من ابله ؟

ثم ضحك ضحكا هائلا وقام فغير ملابسه وخرج من منزله فركب قاربا وسار به الى قصر امباريا فصعد السلم وهو يضم قبضته منذرا متوعدا وهو يقول في نفسه .

اني اقتل الاثنين ولا اسمح بمثل هذا الزواج .
وفي ذلك الحين رسا قارب عند باب قصر امباريا وخرج منه رجل .
أما هذا الرجل فقد كان ساندريجو .

٣٩

الموت

ندع الان ساندريجو وببوي يعقدان المحالفة ورولاندي ينهمك في قضاء تلك المهمة المجهولة وسكالابرينو يدفع الموت في قبو الخنارة وجوانا ساهرة على الشيخ كانديانو والد رولانلد وهي تحاول ان تتمزى عن احزانها وتعود الى ثلاثة من أخص اعضاء هذه الرواية وهم ليونور والتمباري ودندولو .
فان ليونور بعد ان انقذت رولاند على ما تقدم لنا وصفه وعادت الى قصرها فاطلقت سراح امباريا سقطت في غرفتها واهية القوى قبل ان تصل الى السرير .

وذلك انها كانت منذ بضع ساعات عرضة لتأثرات عصبية شديدة مثل

خصامها امباريا ومعرفتها فجاءه ان رولاند حي وانه اقام ستة أعوام في السجن وذهابها الى جزيرة اوليفو والتقاءها برولاند وتلك المباحثة الهائلة التي جرت بينها وبين زوجها كل هذه الحوادث التي جرت لها في بضع ساعات اثرت عليها تأثيراً سحق قواها وهد ركن عزيمتها الطبيعية والعقلية .

وقد سقطت على الأرض لا تعي وفاجأتها الحمى فأسرعت نساؤها اليها وحملتها الى سريرها وابلغن أمرها الى زوجها .

ولم يكن التياراتي قد نام بعد فانه بعد حادثة بيت الجزيرة عاد توأ الى قصره وعليه ظواهر السكينة .

ولكن براكين الرعب كانت ثائرة في قلبه فان رولاند نجد منه وقد نجا منه وقد وثق بما قالته له ليونور وهو أنها أخبرت به بأنهم عازمون على القبض عليه فنجوا قبل فوات الاوان .

وإنما كان خائفاً منه لأنه لم يكن يعلم اين هو ولا يعرف شيئاً من مقاصده وهو لا يطمئن له بال ما زال رولاند في قيد الحياة حتى إذا كان خائفاً عندما كان سائراً الى منزله ان يفاجئه رولاند في الطريق .

فلما دخل الى غرفته تنفس الصعداء ومسح عرق جبينه وجعل ينظر في حالته بعد اطمئنانه فقال في نفسه :

— نعم ان رولاند قوي شديد ولكنني قسائد الجيش العام فن يجسر على مهاجمتي والجنود لا تفارقني لحظة .

ولكنه لم يلبث ان اطمأن من هذا القبيل حتى فاجأه رعب آخر أشد من رعبه الأول .

وهو انه كان يؤامر .

وذلك انه كان شديد المطامع وقد شعر بعد تلك الثورة التي قضت بإسقاط والد رولاند انه لم يعقل ما عمله في ذلك العهد إلا لخدمة فوسكاري لأنه لم يكن له في ذلك العهد غير فريق ضعيف من الضباط وبعض النبلاء

في حين ان فوسكاري كان قابضاً على مجلس العشرة وعلى مجلس التفقيش وهما كل القوى الشرعية في فينيسيا .

فلما رأى التياري ان كازديانو الشيخ قد ثملت عيناه وان رولاند قد حكم عليه بالسجن في الأبار طمع بالحكم وعزم على انتزاعه من يد فوسكاري . ولما كان غرضه الوحيد في هذه المؤامرة كغرضه في المؤامرة الأولى وهو نيل ليونور فان الحب كان أشد وقماً في نفسه من المطامع .

وقد عيّن فوسكاري حاكماً على فينيسيا وكذلك التياري فانه لم يعدم نصيبه من هذا النعم إذ عيّن قائداً للجيش في حين ان هذه القيادة كانت من حقوق الزوج حسب القانون .

فبعد ان تزوج ليونور وبعد ان وثق انها لا يمكن ان تكون امرأته تغلبت المطامع في قلبه على الحب .

ولكن هذا الطمع لم يكن إلا لخدمة الحب فانه كان يرجو ان يبلغ منتهى العظمة أي ان يكون حاكم فينيسيا على يروق في عيني ليونور .

وما زال يعمل بالسر حتى دخل معظم قواد الجيش والنبلاء في سلك مؤامراته وفيما هو يحاول ان يضرب الضربة الكبرى علم بفرار رولاند من السجن ثم علم بقدومه الى فينيسيا فرأى انه لا بد له قبل كل شيء ان يتخلص من هذا المزاحم الشديد فان اسم كازديانو كان محبوباً من الشعب .

ولذلك اتفق مع دندولو بشأن رولاند على ما علمناه ولكن التياري كان يؤامر على فوسكاري طمعاً بالتاج وهو على يقين من ان سره كان مكتوماً أشد الكتمان ولم يكن يعرفه غير بعض رجاله الذين يخاطرون برؤوسهم إذا باسوا بهذا السر لاشتراكهم بالمؤامرة وقد عرفت ليونور ذلك . . ذلك لا يهم بل المهم انها عرفت هذا السر الهائل .

وهنا وقف وجعل يقول في نفسه :

كيف تخونني هذه المرأة وتفضح سري وإنما أخاطر بحياتي من أجلها إذ لم أكن اطمع بهذا المجد لولاها .

وهنا تنازعه عاملان مختلفان عامل الحب وعامل الطمع فرعب رعباً عظيماً لأنه إذا قتل ليونور عاش بقية حياته دون رجاء ودون قصد .
وإذا لم يقتلها كان عرضة للانتقامها في كل لحظة فان حياته كانت موقوفة على كلمة تبدر منها .

وعلى ذلك فلما ان يعيش من غير ليونور ولما يموت بها .
وفيا هو على ذلك بجاءته إحدى الخادومات وقالت له :
- ان ليونور مصابة بحمى شديدة بلغت بها الى حد الهذيان .
فزالت كل تلك الأفكار من رأسه ولم يعد يخطر له غير أمر واحد وهو ان ينقذ تلك المرأة الهائم بحبها ثم يرى بعد ذلك ما يكون .

وعند ذلك أسرع الى غرفة امرأته وكانت هذه هي المرة الأولى التي دخل بها الى هذه الغرفة فرأى ليونور في سريرها وقد احمر وجهها من الحمى وهي نائمة في فراشها دون حراك .

فأمر ان يأقوا بالطبيب فجلس بجانب السرير فأخذ يد ليونور بين يديه وارتمش ارتعاشاً عظيماً إذ كانت هذه أول مرة لمس يدها بهذا الشكل فلا ندري أكان ارتعاشه لسروره بضم هذه اليد الناعمة أم لإشفافه وقد شعر انها تلتهب من الحمى .

وكان السكوت سائداً في تلك الغرفة الى ان اخترق هذا السكوت صوت ليونور فان هذيان الحمى قد بدأ فكانت تتكلم بإسهاب فتحدث قارة أباهما وقارة رولاند فتسأله العفو وتقسم له انها لا تزال وافية بعهده .

ثم انقطعت فجأة عن محادثة رولاند وجعلت تحدث التياراتي بهذيانها فبدأت بذكر اسماء رجال المؤامرة وأيقن التياري انها ستفضح كل سره فاضطرب والتفت الى خادمتها فأمرهن بالخروج من الغرفة وجعل يكلمهن بصوت مرتفع كي لا يسمعن ما تقوله سيدتهن فخرجن حتى إذا بقي وحده

أمامها نظر إليها نظرة وحشية وخرج الى الغرفة المجاورة كي يستوثق انه لا يوجد احد فيها فلما وثق من ذلك عاد الى امرأته وجلس بجانبها يصغي . فسمع كل ما قالته عن المؤامرة وأيقن انها واقفة على كل تفاصيلها . ثم سكنت فجأة كما سكنت أول مرة .

وعند ذلك طرق الباب فارتعد التماري وجرد خنجره فقال من الطارق ؟ فأجابه صوت من الخارج قائلاً : الطبيب . فاطمأن وأغمد خنجره وهو يقول في نفسه :

— لقد جننت دون شك فاني سأفضح نفسي لشدة خوفي من الفضيحة . وقد ملك نفسه وفتح الباب فدخل طبيب العائلة فقال له التماري : — لقد وقعت السيدة ليونور فخافت خوفاً شديداً وأصيبت بحمى شديدة .

قال : سوف نرى يا مولاي .

وعند ذلك دعا الطبيب الشيخ من ليونور ففحصها فحسباً مدققاً .

ثم التفت الى التماري فدعر دعرأ عظيماً إذ رأى القائد العام مجرداً خنجره كأنه يهم ان يطعمه به فانه كان عاجزاً على قتله لو قالت ليونور كلمة تشف عن المؤامرة .

فلما رأى الطبيب ذلك قال له :

— إني لا افهم شيئاً يا مولاي مما تقول .

فضحك التماري ضحكاً عصبياً وقال له :

— لا تؤاخذني أيها الطبيب فان الحقيقة هي اني أنا المريض ولكن تعال .

فقال معي .

وقد أغمد خنجره وسار الطبيب الى غرفة مجاورة وهناك اطمأن وعاد

الى السكنية ، فقال له الطبيب :

— الحق يا سيدي انك اخفتني .

قال : ارجوك ان تعذرني فان الحزن قد يصيب صاحبه بالجنون والآن
فأخبرني بما رأيت ؟

فاطمأن الطبيب ايضاً فأخبره تفصيلاً بما علمه عن حالة ليونور بعد
الفحص ثم قال له :

— انها يا سيدي في أشد خطر وانه يجب مراقبتها في الليل والنهار .
قال : حسناً ، فسأتولى بنفسني هذه المراقبة .

قال : انه خلوص عظيم نادر يا سيدي بين الأزواج .

ثم وصف لها الدواء وحاول الانصراف وهو يقول : سأعود غداً .

قال : بل تقيم عندي وسأعيّن لك مكاناً في القصر .

فسر الطبيب بهذا الإنعام ولكنه نظر نظرة القلق الى خنجر التياري
وقال في نفسه :

— اذا أراد هذا الرجل ان يطعنني بخنجره فهل هو حقيقة مصاب
بالجنون ؟

وعند ذلك ذهب الى المكان الذي عينه له التياري وهو بين الرجاء
والخوف .

وعاد التياري فنادى وكيله وقال له : أرأيت هذا الطبيب ؟

قال : نعم يا مولاي .

قال : إذن فاعلم انه إذا خرج من القصر دون إذني فأنت من الهالكين .

فالتحق الوكيل وانصرف وهو معجب بإخلاص سيده لإمرأته إذ كان
يعتقد انه لا يريد سجن الطبيب في قصره إلا كي يجده للفور حين الاقتضاء .

وقد عاد التياري الى غرفة امرأته وأمر جميع الخدم ان لا يدخلوا اليها
فانه يريد ان يتولى وحده خدمتها .

فكان يقفل باب الغرفة من الداخل وينام على كرسي قرب سريرها نوماً
مضطرباً متقطعاً .

وبقيت ليونور على حالها ستة أيام وفي اليوم السادس عادت الى صوابها فشعرت بتعب عظيم لا يوصف ولا سيما في نفسها فان يأسها كان شديداً حتى انها كانت تشتهي الموت ولا تجد الراحة الكبرى إلا به ، فانها حين كانت تذكر ان جميع شقائها تولد من ساعة ريب يتولاها اليأس وتحكم على نفسها انها غير جديرة بالاشفاق ، فقد كان ذنبها العظيم « في اعتقادها » انها لا تحب رولاند كما أحبها فانه لبث وفيماً بعهده ، أما هي فانها خانت وتزوجت بسواه وسمعت أقوال الناس فيه ، وانه ليلة خطبتها حين ذهبت الى المجلس العشرة وسمعت ما قالته امباريا فيه كان يجب عليها ان تجيب تلك الفاجرة فتقول :
- لقد كذبت فان رولاند لا يتداني الى حب أمثالك فهو لي يحملته كما أنا له يحملتي .

وحين جاءت أم رولاند وطلبت اليها ان تذهب معها لتتبع الشعب على انقاذ رولاند كان يجب عليها ان تجيب :

- هلمي بنا ولنمت معاً فاني وإياه واحد لا يجب ان نفترق .
وحين قال أبوها ان رولاند عفى عنه فهجروها وبرح فينيسا كان يجب ان تقول له :

- لقد كذبت فان رولاند إذ أطلق سراحه لا يلجأ إلا الى .
وحين ذهبوا بها الى كنيسة سانت مارك لعقد زواجها كان يجب ان تمتنع عن الزواج وتقول :
- إنني لا أتزوج التيماري لأنني زوجة رولاند وإذا لم يكن ان اكون له تزوجت الموت .

هذا ما كانت تقوله هذه المنكودة ولا بد لنا ان نقول هنا ان هذه الأقوال ليست من مخترعاتنا بل هي اقوال ليونور نفسها عثرنا عليها في كتاب كتيبه فكان شبه اعتراف .

وهذا الذي كان يعذب نفسها هذا العذاب لا سيما بعد ان اجتمعت

برولاند وانقذته ووقف أمامها جامداً كأنه لا يعرفها وانصرف دون ان يكلمها كلمة وهي إنما لبست ملابسها القديمة أي ملابس الفتيات كي تلمح انها لا تزال على عهدهما وإنما ذهبت الى تلك الأرزة كي يعلم انها لا تزال تهواه وإنما اختارت انتصاف الليل موعداً كي يعلم انها لا تزال تحن على لقياءه .

وهو مع كل ذلك لم يفقه بكلمة فكانت تقول في نفسها :

... انه مصيب بكل ما فعل فقد خنته أمام مجلس العشرة بتصديق الوشاية عنه وخنته أمام أمه بامتناعي عن المسير معها وخنته أمام الهيكمل بقبولي ذلك الزواج .

إذن لقد قضى الأمر واصبح الفراق ابدياً ولم يبق لي رجاء بلقياء فماذا بقي ؟

لم يبق غير توديع الحب أي توديع الحياة وأما حب الموت الآن فهو الدواء الوحيد لهذه الآلام .

هذا ما كانت تفتكر به ليونور في تلك الساعة ساعة اليأس الهائلة . وفيما هي تغمض عينيها كي تستقبل الموت ولا ترى غير الظلمة الأبدية سمعت صوتاً بالقرب منها .

فقالت : من هذا الذي يتكلم هكذا ؟

وقد أصغت وهي أول مرة عاد فكرها الى الانتظام فعجبت كيف انها في سريرها ثم ذكرت فجأة انها سقطت مغمياً عليها في ارض غرفتها ولم تعد تذكر شيئاً بعد ذلك .

ولكنها جعلت تصغي الى تلك الاصوات وكانت ضعيفة خائفة غير انها لم تكن أصوات نساء كما توهمت في البدء بل كانت اصوات رجال .

وقد تبينت تلك الاصوات لفورها فعلت انها صوت زوجها وصوت أبيها فبدلت جهداً عنيفاً كي لا يبدو عليها شيء من علائم الاضطراب وكي لا قنهمض من فراشها فتطردها واصغت الى ما يقولان فسمعت التباري يقول :

- لقد مضت خمسة أيام كانت شبه خمسة أعوام لما لاقيت في خلالها من الرعب .

فأجابته دندولو قائلاً :

- لماذا هل تكلمت شيئاً ؟

- بل انها قالت كل شيء وستعود الى الكلام ايضاً متى عاد الهذيان فانها تفصل لهم المؤامرة تفصيلاً وتذكر المؤثرين .
- ألعلمها ذكرت اسمي ؟
- ذكرت كل الأسماء ما خلا اسمك .

فساد السكوت هنيئة بعد ذلك وسمعت ليونور أباهما يتنهد كأنه قد اطمأن فعملت انها بهذيان الحمى قالت كل ما تعرفه عن المؤامرة وان التياري أقام عندها كل هذه المدة كي يراقبها وانه دعا أباهما للاتفاق معه على أمر هائل دون شك .

وعاد الاثنان الى الحديث فقال التياري :

- ربما لم تكن عالمة انك منتظم في سلك المؤامرة او ربما حرصت عليك حق في هذيانها .

- إذن لقد ذكرت كل الأسماء ما خلا اسمي .

- نعم ..

- رباه ولكن ماذا يكون إذا سمعوها ؟

- انهم إذا قبضوا علينا قبضوا عليك لا محالة .

وهنا عاد الإثنان الى السكوت فكانت ليونور ترى بعين التصور رعبهما وتبذل كل ما تستطيعه من الجهد كي تحافظ على السكينة .

وبعد هنيئة عاد التياري الى الحديث فقال :

- ان الهذيان يغاجئها في المساء وفي الليل أما الآن فانها نائمة نوماً هادئاً وما أصعب تلك الميالي التي كنت أقف فيها على الأبواب والخنجر بيدي

وأنا متألم لقتل كل من يسمع كلمة من حديشها حتى شعرت بأني سأفقد صوابي ولذلك دعوتك إليّ فإذك أبوها .
- حسناً فسأقوى الحراسة مكانك كي تستريح .

فهز التباري رأسه وقال :

- لست أشكو من التعب .

- إذن مما تشكو؟

- أشكو من أنه لا يجب ان يسمعوها .

- نعم لا يجب ان يسمعها أحد فان كلمة تخرج من فمها تقتلنا وأي قتل .. هناك على جسر التهنيدات حيث يربطوننا الى ذلك الكرسي الحجري أو انهم يقتلوننا جوعاً أو عطشاً أو انهم يحبسونا في الآبار ويعذبونا كما عذبنا .

- اسكت ولا تذكر اسمه. هنا فانها قد تسمعه فتقول اني سأقذف بكم الى حيث قذفتم بخطبي .

ولكنها كانت نائمة لحسن الحظ نوماً هادئاً غير ان هذا النوم قد يكون علة موتنا .

وعند ذلك نظر الى دندولو نظرة وحشية وقال له :

- نعم يجب ان لا يسمعوها وليس لذلك غير طريقة واحدة .

فجمد الدم في عروق أبيها وقال له :

- أية طريقة ؟

- نعم يجب ان لا تتكلم بعد الآن .. واصنع إليّ فانك تعلم يقيناً اني

أحب بنتك ولا أزال أحبها .

- اسكت .

- اني أحبها وهذا الذي يولد اليأس في قلبي لأنها تكرهني وتحتقرني وتلعنني وأنا أحبها فلم استطع الصبر على هذا المصير ولم يبق غير واحد من أمرهما إما ان أموت او تموت .

— قلت لك اسكت .

— كلا اني لا اسكت واني ما دعوتك إلا لتشاركني في نكدي فانك انت الذي زوجتني اياها وأي زواج هذا ألا تعلم اننا منذ تزوجنا الى اليوم ونحن عايشان عيش الغرباء حتى لقد حاولت مائة مرة ان اقتلها .

والآن ، فاني أريد ان أنجو من هذا العذاب إذ لم أعد أطيق الصبر عليه لحظة .

اني أحبها وقد بلغت بحبها حد الجنون وقد تحملت العذاب فيها خمسة اعوام والآن فاني سمعتها في هذيانها تنادي خطيبها فتتوسل اليه ان يصفح عنها وتناجيه بأرق الفاظ الغرام فكانت كل كلمة من كلماتها شبه خنجر يغمد في صدري .

وبعد كل هذا فقد باقت شر نذير لي بالموت فان جراح كلماتها لم تكفها فأرادت اعدامي .

نعم اني لم أعد أطيق الصبر فهل تريد ان تعيش بعد الآن بهذا العذاب وأنت معرض في كل لحظة لانتقام امرأة .. قل أريد ان يكون مصيرك الاعدام ؟

فتمتم دندولو قائلاً :

— أواه يا ابنتي .

وقد خامر الرعب قلب هذا الأب الشقي ولكنه مع ذلك حاول ان ينقذ بنته فقال بصوت ضعيف :

— انها قد لا تذكر بعد الآن هذه الأشياء ومضى شفيت فاننا قد نستطيع ان نستوثق منها وان تعاهدنا على الكتمان فاصبر فاني واثق من كتمانها .
وعند ذلك بدرت حركة من ليونور فأجفل الأثنان وجعلا ينظران اليها .

ففتحت عينيها ولم تكن نظراتها نظرات مريضة محومة بل نظرات كانت تتوقد ذكاء فارتعش الاثنان وایقنا انها سمعت كل الحديث .

أما هي فقد أيقنت أيضاً ان ساعة الخلاص قد دنت أي ساعة الموت وان الكلام سيكون لها امضى سلاح للانتحار ما زال أبوها وزوجها قد اتفقا على قتلها .

فنهضت من سريرها وجمعت كل قواها فقالت :

انك مخطيء يا أبي فاني لا اکت سرکم وسأبوح به في أول ساعة استطیع بها الخروج من هذه الغرفة .

وذلك أنسكما اخللتما بالشروط التي تعاهدتا عليهما في بيت الجزيرة فلا بد لي من الاباحة بسرکم .

وكان التياري قريباً من السرير فنظر اليها نظرة منكورة وقد زال الحب من قلبه بلحظة وبات يكرهها بقدر ما كان يحبها فهاجت براكين الحقد في صدره فحاول أن يشفي غليله بكلمة شتم ولكن تلك الكلمة وقفت في حلقه فرفع يده وهو يحاول أن يضرب ضربة واحدة تكون القاضية .

فنظرت ليونور الى بريق خنجره وهي تبتسم ارتياحاً للموت .

أما التياري فان يده سقطت فجأة وارتجع خطوة الى الوراء ذلك ان دندولو صدمه صدمة قوية وأسرع فحال بينه وبين بلته وهو يقول :

— اني لا أريد ان تموت ابنتي .

فهاج غضب التياري وقال :

أأنت الذي تصدمني هذه الصدمة ؟

— نعم

— اذن أنت تريد أن تموت ايضاً

— اني اؤثر ألف موت على ان أدعك تمسها بسوء .

فنظر التياري الى دندولو نظرة اندهال وحقد ممأ فان هذا الرجل الذي

كان يعهد به الضعف ووهن العزيمة والجهن رأى قد استحال في تلك اللحظة الى أسد مفترس يدافع عن عرينه فقال له .

— ويحك ايها الجاهل أتريد ان تدفع بنا جميعنا الى الاعدام .
فتنهده دندولو تنهداً وقال :

— أني أقبل الموت والشنق والمار والسجن وكل ما اخترعته القرائح الجهنمية من أنواع العذاب ولا أَرْضى بهذه الدناءة .

لقد كنت جباناً وكنت سافلاً اذ بعتك بنقي وبعتك نفسي أما الآن فاني استرد بنقي واسترجع نفسي وأرد لك الثمن وهو ذلك المنصب وما ألقى فيه من المجد والسلطة .

فدنا التياري خطوة منه قبل ان يتم حديثه .
فأدرك دندولو قصده وقال له :

— اني أشير عليك ان لا تدنو من بنقي الا اذا اردت ان يسبق خنجرى الى صدرك سيف الجلاد الى عنقك .
قال ، اذن انمت جميعنا فاني اؤثر هذا الموت .

وقد انقض على دندولو وهو يزيد بخنجره فتلقاه دندولو بهتل سلاحه .

وكان القتال بينهما هائلاً دون ان يفوه أحدهما بكلمة الى ان أصيب التياري بخنجر عمه فاخترق الخنجر كتفه فسقط على الأرض قرب السرير وحاول وهو على هذه الحال ان يمد يده الى ليونور فدفعه دندولو عنها بعنف والقاه بعيداً عن السرير .

ولم يكن الجرح الذي أصيب به قاتلاً ولكنه كان بالغاً فلم يذهب صوابه وجعل ينظر الى ما سيحدث بعينين ظهر فيهما الرعب والألم .

أما دندولو فانه حين رأى التياري طريحاً بعيداً عنه دنا من ابنته فأخذ يدها ووضعها على جبهته المحرقة فلم يقل كلمة ولكنه جعل يشق بالبكاء .

فتأثرت ليونور وبكت لبكائه وهي تقول :
 - أبي
 فاتقدت عينا دندولو بأشعة الفرح وقال :
 - اللهم عفوك فقد عفت عني .

* * *

وعند ذلك مسح ذلك الأب عينيهِ وقال لها بصوت يرتجف .
 انك لا تقيمين ساعة هنا فبأذهب بك الى بيتنا القديم في جزيرة اوليفو
 ونعيش فيه عيشنا القديم .
 فهزت ليونور رأسها وقاطعته قائلة :
 - ألعلمك نسيت يا أبي ان هذا البيت لم يعد لنا .
 فذكر دندولوا انه باع البيت وكان قد نسي البيع ونسي رولاند فقال لها :
 لقد أصبت ولكننا نستأجر منزلا :
 قالت ولكنك نسيت أيضاً يا أبي ان من تكون من أسرة دندولو لا
 تهرح منزل زوجها وقد رضيت به زوجاً فلا تخف علي يا أبي فاني منذ هنيئة
 كنت أريد الموت أما الآن فأني أريد الحياة لأجلك اذا لم يكن لأجل
 سواك .

وان التباري يعلم يقيناً اني لا أبوح بكلمة تفضح سره وهو يعلم يقيناً أيضاً
 اذا دخل مرة ثانية الى هذه الغرفة تكون العاقبة هائلة عليه ثم هو يعلم
 أيضاً اني اذا أصبت بسوء كان نصيبه الشق لأنك تفضح سره انتقاماً لي .

ثم التفتت الى التباري وقالت له :

- الا ترضى بهذا الشرط ؟

فقال بصوت أجش .

نعم أرضى

قالت وأنا أضيف الى شرطي شرطاً آخر وهو انه يحق لأبي ان يدخل الى هنا متى شاء .

فقال دندولو :

لا فائدة من هذا الشرط يا ليونور فانك ما زلت تأبين الخروج من هذا المنزل فأنا أقيم فيه في الغرفة المجاورة لغرفتي فلا يستطيع احد الدخول اليك الا على جثتي .

فأشار التياراتي اشارة تدل على الموافقة ثم نهض عن الأرض وقد أوهن الجرح قواه فخرج من الغرفة دون ان ينظر الى الفتاة وأبيها .

٤٠

معسكر الشيطان الأكبر

ولنعد الآن الى رولاند كانديانو فقد تقدم لنا القول انه بعد ان قابل ليونور تلك المقابلة الغريبة ذهب الى سكالابرينو ومهد اليه اىصال أوامره الى زعماء العصابات ثم برح فينيسيا .

وقد كان في نية رولاند أن يقابل جان مدسيس في أقرب حين ويتمتع اتصاله بفوسكارى دوج فينيسيا .

وهو انما اتخذ ذلك حجة لنفسه ولكنه في الحقيقة كان يريد الابتعاد عن هذه العاصمة فهل خشي ان يقبضوا عليه وان يدفنوه حياً في تلك البئر التي كان مسجوناً فيها أم خشي ان ينصبوا له شركاً فيقتلوه ويعدموه .

كلا فان رولاند لم يعد يخشى ظلمة القبور ولكنه كان يريد الفرار من فينيسيا لانه لم يعد يطيق النظر اليها ولأنه خشي ان يجمع اتفاقاً بليونور

جل لأنه خشي من نفسه وخشي من غرامه فكان يسير سير الهائم وهو يناجي نفسه فيقول :

كيف ذلك .. الا أزال أحبها الى هذا الحد .. احتملت بغرامها ما لم يحتمله قلب انسان فان شفتي قد رقتا لترديد اسمها في كل لحظة وكل نبضة من نبضات قلبي كانت تنهد غرام ومع ذلك فقد خانتني خيانة لا تقدم عليها بنات العام مع البحارة .. رباه كيف يحتمل عملها التصديق فانها اغتصمت فرصة سجنني كي تتزوج سواي وهي تعلم اني ابكي لفراقها الدم لا الدمع .. أليس من المعجب ان أبقى على هواها بعد ذلك فمن أية طينة سبل قلبي .

وهي الآن قد تصدقت بانقاذي من كمين واحسنت الي بشيء من الحرية وهو ما تعامل به كل مضطهد سواي .
وعند ذلك لكز بطن جواده بعنف شديد كأنه كان يرجو ان يندفع به ويلقيه في هاوية .

ولكن الطريق كانت سهلة فبعد ان جرى الجواد شوطاً بعيداً وهو في أشد حالات الهياج سكن من تلقاء نفسه فعاد رولاند الى التفكير .

ولم يكن الا القليل حتى تغلبت عواطف الانتقام في نفسه على عواطف الغرام فجعل يفكر بفوسكاري وهو علة شقائه بل هو ذلك الوحش الذي انفذ ذلك العقاب الهائل بابيه فيحدث نفسه فيقول :

— كفاهك يا قلبي غراماً ضائعاً ولانظر الآن الى فوسكاري الطامع بان يتسلط على ايطاليا بأسرها ولكني له بالمرصاد فلن ادعه يبلغ مراداً من هذه الأمنية وسأبذل كل جهدي كي أحول دون اتفائه مع جان مدسيس فاذا لم استطع ذلك بالسياسة فعلته بالقوة .

وقد كان اتخذ في هذا السبيل كل ما يحتاج اليه من التعليمات وفوق ذلك فان شهرة هذا الرجل كانت قد طبعت ايطاليا وباتت اعماله مشهورة لدى

الخاص والعام فانه كان يحب الحرب لمجرد الحرب شأن جميع الذين اشتبهوا من رجال الفتوح وكان يأذن لجنده بسلب البلاد التي يفتحها فكانوا يحبونه من أجل ذلك حب عبادة .

وكان المؤرخون يلقبونه الحربي المهبوب ولكن أعداؤه كانوا يدعونه الشيطان الأكبر فغلب هذا اللقب .

أما رولاند فقد وصل الى معسكر هذا الفاتح عند هجوم الليل وقد نصب خيمة كبيرة تحت سنداينة عظيمة .

وكان الجنود فرحين يضحكون ويلهون ويسكرون لأنهم كانوا قادمين على معركة يغنمون منها الأسلاب وقد أذن لهم جان مدسيس بهذا المرح كما كان يأذن لهم في بدء كل معركة .

فلما وصل رولاند الى المعسكر طلب اليهم ان يسيروا به الى القائد الأكبر فساروا به الى تلك الخيمة العظيمة الكائنة في وسط المعسكر بحيث كانت منه بمثابة القلب .

وكان جان مدسيس جالسا فيها يحيط به قواده الاخصاء وقد وقف اثنا عشر حارسا على ابوابها ، وبسطت في وسطها مائدة كبيرة جلس حولها جان مدسيس وقواده فجعلوا يأكلون ويشربون ، بينما كانت جوقة موسيقية تعزف لهم أشجى الألحان فلا تصل الاسماع لشدة هرح الجنود وقائدهم الأكبر يشرب ويضحك ضحكا عاليا لكل كلمة يسمعونها .

فلما رأى رولاند أمامه وهو معفر من القبار تشاءم بطلمته فقطب حاجبيه وقال له :

— من أنت ؟

فأجاب رولاند قائلا :

— اني قادم من فينيسيا لأكلمك سرا في بعض الشؤون وأنا أدعى رولاند

كانديانو بن الدوج كانديانو الذي أخذ غيلة وغدراً في حفلة كان يعمدها
وثملت عيناه .

فارتعش الجميع لما سمعوه فان حكاية كانديانو الهائلة كانت قد اشتهرت
شهرة عظيمة وكان لها تأثير رعب شديد كما كان ولده الذي ألقى في الآبار
ليلة خطبته تأثير رحمة وإشفاق في جميع القلوب .

أما جان مدسيس فقد أجابه قائلاً :

- لقد كنت اعتقد انك في السجن .

- ولكنهم قد يخرجون ولو كانت تدعى آبار فينيسيا .

- إذن انت تريد ان تكلمني ؟

- إذا كان ذلك يروق لديك .

- إذن استقبلك على الرحب وأدعوك الى مائدةتي فقد عرفت أباك
وعرفت فيه المروءة وكرم الاخلاق ، ولكنه لم يكن كفؤاً لإدارة الشعوب
بالحسنى على انه خدم الجمهورية أجلّ الخدمات ويسرني ان أرى ولده بيننا .
وقد أشار اليه عند ذلك ان يجلس بجانبه وناولته كأساً من الخمر فشرب
كل منهما نخب الآخر .

حقى إذا تمت هذه المعاملات الأولى انقطع رولاند عن الأكل والشرب
وعاد الحاضرين الى سابق لهوهم في تلك الخيمة العظيمة .

وكان جان مدسيس يراقب خلصة ، في خلال ذلك ، رولاند فيمجب
بجباله وقوة عضلاته ويقول في نفسه :

- إذا كان يريد الاعتماد عليّ في استرجاع منصب أبيه فقد أخطأ فان
فوسكارى رجل شديد ولا فائدة لي من عدائه أما إذا كان يريد ان يتولى
قيادة فرقة من جيشي عددت نفسي من السعداء .

ثم جعل يسأله أسئلة مختلفة عن حالته في سجنه وعن طريقة إنقاذهم
فكان رولاند يجيبه بملء الإيجاز أجوبة تدل على رجاحة عقل وتوقد ذكاء .

حتى اذا اصدر جان مدسيس اوامره الى الضباط بالانصراف الى خيامهم
كانت اعجابه شديداً بـ رولاند وكان بنيتته ان يقترح عليه الانتظام في
سلك جيشه .

فلما انصرف الجميع التفت الى رولاند وقال له :
لقد اصبحتنا الآن وحدنا فقل ماذا تريد ان تقول لي واسمح لي في البدء
ان اخبرك بأن لديّ كثير من المعارك يقتضي لي زمن طويل لانجازها اي
اني لا استطيع ان افيدك بشيء فيما يتعلق بفينيسيا .

فهز رولاند رأسه وهو يبتسم ابتسام احتقار وقال :
اطمئن يا سيدي فاني لا اعتمد في اموري الخاصة إلا على نفسي وعندما
دخلت الى السجن لم ادخله إلا بمحض ارادتي فلم يرغبني احد على
الدخول اليه .

— اقسم بالله اني معجب بك كل الاعجاب ولا اكنم عنك بأني أثنى لو
قاتلت بامرتي .

— اني لا اخضع إلا لنفسي ومع ذلك اشكرك لحسن ظنك بي .
فذهل جان وقال له :

اذن ماذا تريد .

فأطرق رولاند هنيئة ثم التفت اليه وقال :

جان مدسيس انك من رجال الحرب لا من رجال السياسة وان الشعوب
يخافونك لأن لديك جيشاً يطيعك خير طاعة ولأن اعمالك الماضية دلت على
ما يمكن ان تكون اعمالك المستقبلية ولذلك وجب ان تبقى عند حد شهرتك
وقلبت ذلك الرجل الحربي الملقب بالشيطان الأكبر فاذا ملئت الى السياسة
ودخلت في حيلها ومفاسدها وخداعها أضعت تلك الشهرة .

— ومن اخبرك بأني اجنح الى الخداع والمفاسد .

هذا الذي يريدون ان يقترحوه عليك .

— من هم ؟

فوسكارى دوج فينيسيا وذلك انه يوجد بينى وبين هذا الرجل عدا
لا ينتهي إلا بالموت ولذلك اتيتك كي اسألك التزام الحياء بيننا .

فقال له جان ببرود :

اوضح ما تقول :

فتنبه رولاند لبروده وخشي ان يكون قد جاء بعد فوات الاوان
فهرقت عيناه ببارق وعيد وقال له :

انى موضح لك بلم الصراحة حالتنا ولك الخيار بعد ذلك بالميل الى
الجانب الذي تختاره .

— اني مصغ اليك .

— ان فوسكارى عذب ابى عذاباً لا يخطر في بال الأبالسة دون ان ترتعد
والقاني في ابار فينيسيا ستة اعوام فيجب ان اعاقب هذا الرجل الفظيع
واعوانه في الاثم .

وقد قال هذا القول بلمهجة تبين فيها الحقد الهائل حق ان جان صاح قائلاً :

إنى لا اريد ان اكون من اعدائك .

قال ان كل من يساعد اعدائى كان منهم وأنا سأحارب فوسكارى
واعوانه حرباً لا رحمة فيهم فأما اموت وأما يموتون ولا وسط بين
هاتين الحالتين .

اذن فاعلم انى بينما اعمل استمالة شعب فينيسيا إلى وانتزاع السلطة من
فوسكارى عليهم يهتم بمخالفة الأشداء لمطامع كبيرة يرجو بعد تحقيقها ان
يأمن انتقامى واول هؤلاء المخالفين الذين يطمع بمخالفتهم هو انت يا جان
مدسيس .

— كيف عرفت ذلك .

ان فوسكارى ارسل اليك سفيراً أتعرفه ؟

— من هو ؟

ارتين الشاعر .

— الشاعر ارتين : انى اعد نفسي سعيداً بلمقيماه فانى أحب الشعر والشعراء ولا سيما فى مجالس الخمر فانهم أرق منها .

— ولكنك ان تراه فقد قبضت عليه ووقفت على سر سفارته فوضعتة فى محل امين وجئت اليك بدلاً منه .

— انت عملت هذا ؟

— نعم يا جان مدسيس انى فعلته .

— ثم تأتى إلىّ وتقول لى بما فعلت الحق انه لا بد لى من الاعتراف بجرانك .

— ان الجرأة هى كل ما املك .

— وانت تقول اذك عارف بما عهد الى ارتين ان يقوله لى .

— انى اعيد عليك الكلام الذى تلقاه ارتين من فوسكارى ليحمله اليك غير انى اقله بشكل موجز لا يضيع شيئاً من جوهره .

وخلاصته ان فوسكارى يريد الاستيلاء على ايطاليا وجعلها مملكة واحدة وهو يقترح عليك ان يضم جيشه واسطوله الى جيشك فيتمكن بهاتين القوتين من طرد الاجانب وقتل امانهم .

حقى اذا تم له ما يريد من اخضاع ايطاليا بحملتها شاركك بالملك عليها فاستولى هو على القسم الشمالى وجعل فينيسيا او ميلانو عاصمة مملكته وانت تستولى على الجنوب فتجعل عاصمة مملكته رومة او نابولي . هذه هى خطته وهذا مغزى تحالفه معك فماذا تقول :

— واذا أجبته عما ارتأيه أتعهد بايصال جوابي الى فوسكارى كما اوصلت إلىّ اقتراحه .

- دون شك . مهما كان هذا الجواب إذ لم يكن اسهل لدى من ان اكتملك
الاقتراح الدوج .

- كلا فان الدوج متى استببطا جوابي ارسل لي سفيرا آخر .

- ربما ومهما يكن من الأمر فاني سأكون مخلصاً في ارسال الجواب
نفس اخلاصي في حمل الاقتراح اي انك تستطيع ان تتكلم بملء الحرية .

- ليكن ما تريد فاعلم اذن ان مشروع فوسكاربي يعجبني بحملته لأنه
مشروع عظيم يخلق بمن كان مثلي تحقيقه ومساعدة الآخرين فيه . ولذلك
اقبل مبدئياً هذه المخالفة وهذا كل ما ارجب ان تقوله لفوسكاربي .
- أهذا كل شيء ؟

- نعم فان اتفارقنا الآن مبدئي كما قلت لك اما الاتفاق النهائي فلا يكون
إلا بعد اجتماعي به وسأرسل اليه رسولا فأعين موعد الاجتماع ومكانه وذلك
بعد ثلاثة أو أربعة أيام لأنني سأبحث صباح غد في طريقة الهجوم على
كوفرنولس فيوم للتفكير ويوم للهجوم ويوم للنهب ثم ابعث رسولي الى
فوسكاربي فلا تسبقه إلا بثلاثة ايام .

وقد قال هذا القول وعليه علائم التفكير فما شكك رولاند انه يحاول
نصب مكيدة ولكنه لم يظهر عليه شيء من الاضطراب .
أما اقتراح فوسكاربي فقد اعجب به جان مدسيس أشد الاعجاب بدليل
انه كان يقول بصوت متقطع :

رأي بديع .. ما اجل هذا الاقتراح .. انه جدير بي .

فقال له رولاند اذن لقد رضيت بالاقتراح دون تمن ودون تردد .

- لا حاجة إلى التمعن في مثل هذا المشروع فان فائدته طاهرة للعيان .
بقي عليّ ان اذكر بعض ملاحظات .
- وهي ملاحظات ألقاها بالشكر اصدورها منك .

— لقد تقدم لي القول انك رجل حربي وان السياسة تندهص من شهرتك الحربية اذا اشتغلت فيها .

ومما لا ريب فيه انك اذا جمعت قوتك الى قوة فوسكوري تخضع انك إيطاليا ، وان يكن المشروع غير سهل ، كما يظهر لأول وهلة ، فان فلورنسا وبيروماتوجهوريتان قويتان ، ولا سيما اذا اتحدتا وتحالفتا ، فانهما تزادان قوة .

ومع ذلك فلنفترض انك بعد حرب عشرة أعوام على الأقل تسيل فيها الدماء كالأنهار تمكنت من إخضاع إيطاليا ، ثم لنفترض ايضاً امرأ مستحيلاً هو ان البابا وافق على ان تكون ملك الايطاليين وان أوروبا لم تلي دعوته . أيفرض كل ذلك فاذا تم على ما تريد فماذا تصنع بفوسكاري فان حين ينتهي دورك يبدأ دوره وينزل الحرب ويحل محله السياسي فوق ذلك العرش الذي بنى بالدماء .

وفوق ذلك فان فينيسيا قد تدافع دفاعاً تخرج فيه ظافرة فانها تعلم ان مستقبلها في البحر لا في الأرض وانها لا مطعم لها بغير السلم والاتجار والفنون فهي ستكون أول المدافعين .

والكن لنعد الى مسألتنا الأولى فاذا انتصرت فماذا تصنع ؟

قال : اني اذا انتصرت اجعل كرسي مملكتي في نابولي أو في روما نفسها ومن الذي يمنعني ؟

— يمنعني شريكك ، يا جان مدسيس ، فاني اعرف فوسكاري حق العرفان ولا تحسب انه سيكون في إيطاليا ملكاً ، بل ملك واحد .

فضرب جان بيده على المائدة ضربة اهتزت لها الأقداح وقال :

— ان هذا الملك الوحيد سيكون أنا فان فوسكاري سيكون مخلصاً بالكراهة وبالرضى .

— ليكون ما تظنه فقد فرغت من الملاحظات الخاصة بك وبقي عليّ تلك .

الملاحظات الخاصة بي ، فقد بينت لك الأسباب التي تدعوني الى الحقـد على
فوسكارى ، فاذا اصبحت شريكه كنت حائلا بينى وبين ما أريده له
فاعلم ، يا جان مديس ، انى اقسم لك بأمرى التي ماتت ياساً وبأبى الذي
شوهوه ونكلوا به لا يوجد قوة في الوجود تمنقذ فوسكارى من قبضة يدي.
بعد ان قضيت عليه .

ثم وقف وقال :

تمعن في الأمر ، يا جان مديس .

فوقف جان أيضاً ، وقال :

أتظن انك تهددني ؟

- بل انى اخبرك بما عزمت عليه فان فوسكارى الجريمة وأنا هو الانتقام.
ولك ان تختار!

- لقد اخترت .. ثم صفق بيديه ، وقال :

فاسرع اثنا عشر ضابطاً الى الخيمة ، فقال لهم :

اقبضوا على هذا الرجل ، واحرصوا عليه كل الحرص .

فقال له رولاند :

جان دي مديس لقد خيرتك بين الذنب وبين العقاب ، ولا يزال الوقت
فسيحاً لديك .

فلم يجبه جان مديس ، وقال للضباط : اقبضوا عليه .

فقال له رولاند : إذن أنت الذي أردت .

وفيما هو يقول ذلك ، دنا ضابطان منه ووضعوا يديهما على كتفيه .

وقد عرف القراء قوة رولاند ، فانه دفعهما بيديه فسقطا يهويان على

الأرض ، وأسرع الى باب الخيمة .

فجعل جان عند ذلك يصيح قائلاً :

خيانة .. خيانة .. اقبضوا عليه .

فانقض الضباط عليه .
أما رولاند فانه التصق بجدار الخيمة واسرع الى وضع المائدة بينه وبين
مطارديه ، ثم جرد حسامه الطويل وهو يقول :
تذكر يا جان مدسيس اني عرضت عليك اختيار العقاب فابيت إلا ان
ينفذ فيك .

٤١

اصطدام العواصف

في وسط قصر امباريا أي في تلك البناية الخاصة ببيانكا كانت المحظية
وبنتها جالسين تتحدثان ، وقد وضعت بيانكا يدها بين يدي امها وجعلت
تحدثها عن رحلتها الى قرية مستر واقامتها مع جوانا وبجيء ساندريجو فجأة .
وقد تكلمت قليلا عن رولاند ، ولكن امها تبينت من كلامها الموجز
عنه انها تحترمه إحتراماً عظيماً وتشق به ثقة لا حد لها .
وقد سمعت كلام بنتها الى النهاية دون ان تقاطعها حتى اذا اتمت حديثها
قالت لها :

لقد عدت اليّ يا ابنتي وزال عنك الخطر بفضل الله وبفضل ذلك القائد
الباسل السنيور ساندريجو .
فقالت لها بيانكا :

ولكنني لم اكن في خطر يا أماه قرب جوانا ، بل ان الخطر عليّ هننا
من ذلك الرجل الذي اختطفني ومن أولئك الرجال الذين لم أر وجوههم
ولكن هياتهم لا تزال منطبعة في تخيلتي .

وكانت تعني بهم ببو ورجاله ، فقالت لها أمها :
لا تخشي يا ابنتي من هذا الرجل .

فهمزت ببيانكا رأسها ، وقالت : من يعلم ما يكون منه .
 فقالت لها أمها : قلت لك لا تخشي منه فقد مات .
 وقد قالت لها ذلك بلهجة تبين فيها الخوف فانها علمت من رولاند نفسه
 ان بمبو قد مات وانه هو الذي قتله ومن يعلم الآن عند أي حد يقف انتقام
 رولاند سليماً ، وقد علمت انهم حين حاصروا رولاند في بيت الجزيرة تمكن
 من الفرار ولكنها كانت موقنة انه سيعود .
 وقد ذكرت عند ذلك عراكتها مع ليونور وانها هي التي اضطرت الى
 اخبارها بأمر فراره من السجن فلا شك ان ليونور تهتم الآن بالالتحاق بمن
 احبته وقد لقيته وحدثته فهاجت احقادها على ليونور وعلمت انها لا تستريح
 من عنائها إلا بموتها .
 وهنا ظهرت علي وجهها ملامح التهديد الهائل حتى ان بيانكا ارتعشت
 له وباتت تخاف أمها ، فقالت لها :
 - ما بالك يا ابنتاه ؟ وما هذا الاضطراب الذي تولاك ؟
 قالت : لأني افكر بهذا الرجل الذي حدثتني عنه والذي كنت تخافينه
 فلا تخشي شيئاً بعد الآن .
 وعند ذلك استرسلت بأفكارها الى بمبو ، فقالت في نفسها :
 - نعم ، انه قد قتل بمبو ، فمن عساه ان يقتل بعده ؟
 وفي تلك الساعة دخلت خادمة غرفتها ، فقالت :
 يوجد ، يا سيدي ، رجل يريد ان يراك .
 - من هذا الرجل ؟
 - انه لا يقول اسمه .
 - هل أتى هذا الرجل من قبل الى هنا ؟
 - لم استطع ان أبين وجهه ، فانه كان يخفيه بردائه .
 فخطر لأمباريا ان هذا الرجل رولاند إذ لا يأتي احد اليها متذكراً سواه .
 فوقفت واسرعت الى المرأة فجعلت تنظم شعرها وتبجمل .

ولن هذا التجميل ، وهي تعتقد ان القادم رولاند وكيف تنجمل له وهي
تعتقد انها تكرمه بلء جوارحها وانها تحب ساندرينو ، ذلك الالص الذي
تريد ان تزوجه بذتها ، فقالت في نفسها .

- انه اذا كان رولاند لا يخرج حياً من هنا .
ومع ذلك فانها اخذت تبالغ في التزين والتجميل كأنها تريد ان تطرح
نفسها بين ذراعيه حتى تراه وقد نسيت بذتها لاشتغالها عنها بنفسها .

أما بيانكا فانها اضطربت وسألت ذاتها قائلة :
تري من عسى ان يكون هذا الرجل المتنكر ، فلم يخطر لها انه رولاند
بل تمثل لها وجه بعبو الذي لم يكن يخطر في بالها حتى تصاب من رعبها بما
يشبه كابوس الحالم .

وكانت الخادمة قد تركت الباب مفتوحاً حين دخولها فرأت بيانكا من
خلاله ذلك الرجل الذي استبطاً الخادمة فسار في أثرها ووقف في ذلك الباب
ينظر الى بيانكا نظرات تكهر بها من الرعب .

فتراجعت منزعرة وصاحت صيحة منكورة .
فالتفتت أمها عند ذلك وصاحت مثل صيحة بذتها قائلة :
من أرى .. بعبو ؟

فانحنى بعبو امامها وقال :
لقد سأمت الانتظار لأنني مضطر الى الاسراع بمقابلة بلمتك .
وبعد هنيئة كان بعبو وامباريا في قاعة لم تكن تستقبل المحظية فيها غير
اخصائها فقال لها الكوردينال : .

- لماذا لم تبق هناك مع بيانكا ؟
قالت : اتسألني لماذا فاسمح لي ان اسألك ايضاً لماذا تقدمت حتى بلغت الى
حيث تقيم ابنتي
فجلس الكوردينال بجانبها وقال لها :

أرى انه يجب ان نتحدث ملياً بأعمالها ، فتهفضلي بالإصغاء الي يا سيدتي
ما زلت تريدن العودة الى الأبحاث .

يذكر القراء ان ساندريجو أخبر الكردينال بأنه عازم على الاقتران
ببيانكا وانه يلتبس منه ان يتولى عقد قرانها .
وقد صعد بمبوه لهذا الخبر فأمرع بالقدوم الى قصر امباريا وهو لا يعلم ماذا
تريد لاضطرابه
ولكنه حين رسا قاربه عند باب قصرها كان قد وضع الحطة التي يجب
ان ينتهجها .

وقد رأيناه يخبى وجهه بردائه كي لا يعرفوه ، فان هذا الرجل كان
يعرف جميع مداخل القصر وخارجه ويعرف الطريق المؤدية فيه الى حيث
تقيم بيانكا .
فلم يكذب يقيم هنيئة في قاعة الانتظار حتى هاج شوقه الى رؤية بيانكا
ولو قابلته بما كان يتوقعه من ظواهر الرعب .

وكان في نيته ان يسلم بيانكا امام امها ولكن دهشته بجمال الفتاة خلب
لبه بحيث ان امباريا حين اخذت بيده وذهبت به الى تلك الغرفة تبعها بمثلا
وهو لا يعلم كيف يسير .

أما امباريا فانها كانت تنظر اليه بانذهال عظيم فلا تصدق انها تراه وتقول
في نفسها :

تري ، أكان يفتخر رولاند بأنه قتله ام انه كان يدعى هذا الادعاء
للمأرب خفي .

وفي الحالين فقد خفضت منزلته عندها لأنه اضطر إلى الكذب والكذب
سلاح الضعفاء .

ولم تجب الكردينال على اقواله الاخيرة بل سألتها قائلة :

أعلمك كنت جريحاً .
 قال : انا جريح ، كلا أيتها العزيزة فليس من يحسر على جرحي إلا في هذا المنزل .
 ولكن غيابك .
 كنت التجول في ضواحي فينيسيا .
 - كيف ذلك ، ألم تجرح في تلك الليلة التي حاولت فيها اختطاف ابنتي .
 ألم ينتزعها منك رولاند ؟
 - من الذي روى لك هذه الحكاية ؟
 - رولاند نفسه .
 - إذن لقد رأيته .
 وأنت رأيته أيضاً كما يظهر .
 أجل فاعلمي إذن اني رأيته وإن حياقنا جميعاً باتت في خطر .
 فارتعدت امباريا وقالت اني عارفة بما تقول .
 - ولكن الذي لا تعرفيه هو انه يجب ان نبالغ بالحذر وأن نتحسس كل الاتحاد كي نستطيع مقاومته او اتقاء شره فاني لم انج منه اخيراً إلا باعجوبة من السماء ، فاذا وقعت في شركه مرة اخرى فلا مطعم لي بالنجاة .
 وقد يسهل عليّ وعلى فوسكاري والتياري المقاومة فاننا رجال ومهما بلغ من بأس رولاند فانه رجل مثلهنا وأما انت فانك امرأة ضعيفة مقيمة في قصر معتزل فمن يحملك الآن ؟
 وكان يحدثها بهذه الاقوال وهو ينظر الى وجهها فاحصاً فمحبب إذ لم يبد عليها شيء ، من علائم الرعب التي كان يتوقع ان يراها وذلك ان امباريا كانت واثقة من حماية ساندريجو .
 فلما رأى بمبو ما كان من سكينتها غير خطته فقال :
 وفي كل حال يا سيدتي فان جميع الاحوال تقضي عليك بان تكوني حليفتي .

فأجابته ببرود قائلة : سأفعل .

فهاج ثائر الكردينال وقال في نفسه : لتضرب الضربة الكبرى ، ثم نظر اليها وقال :

انك قد تجهلين يا سيدتي. ما يكون مني إذا قدر لنا ان نكون عدوين .
- لماذا نكون عدوين ؟

- ذلك ما لا أتمناه ، ولكنه اذا حدثت حوادث قضت عليّ ان اعتبرك عدوة لي ووجب عليّ ان أعد عديقي المدافع ، وإني مخبرك بماذا افعل .
- وانا مصغية اليك .

- اذن فاعلمي ان اول ما افعله اني القي في فم الأسد أي في ذلك المكان المعد للوشايات ورقة اعددتها من قبل وهي معي في كل حين .

واني قد استظهرت كلامها بحيث اني استطيع ان اتلوه عليك .
وهنا لا بد من إخبارك بأنه يوجد صديق لي لديه نسخة من هذه الورقة ،
فاذا احتجبت عنه ألقى تلك الوشاية في فم الأسد .

أما وقد عرفت ذلك فاعلمي ايضاً انه لا يزال لأسرة كانديانو اصدقاء في مجلس العشرة ، ولا بد لك ان قد كرت ايضاً ان رولاند لم يحكم عليه بما حكم إلا حين برهنت للقضاء انه قاتل عشيقك دافيليا ، أذنت مصغية لما أقول ؟
- كل الاصغاء .

- إذن لم يبق علي إلا ان اتلو عليك الوشاية التي أعددتها وهي مكتوبة بإنشاء وطني صادق . لا يجب إلا ان تجري العدالة في مجراها ، وهذه هي فاسمعي :

« انا صاحب التوقيع أتشرف بإبلاغ مجلس العشرة ان احكامه العالية قد أخطأت في ليلة ٦ حزيران ١٥٠٩ ، فان قاتل النبيل المأسوف عليه لم يكن رولاند كما توهم بل كان امرأة تدعى أمباريا ، وهي لا تزال في فينيسيا في

قصرها الواقع على الترفة الكبرى .

وقد سكنت بمبو هنية بعد ذلك فرأى الرعب قد ارتسم على وجه امباريا فأتى حديثه فقال :

اني وضعت إسمي في آخر هذه الرسالة ، ولا بد للقضاة ان يسألوني فأؤيد ما كتبته بالقول ولا يشك أحد بصدق كلامي وانا من رجال الله وفي أرقى المناصب الدينية .

وأنت ذكية الغواد يا سيدتي ، فلا فائدة من اخبارك عن عاقبة هذه الوشاية ..

فاشدد رعب امباريا ، وتمثلت لها المشقة حتى جعلت اسنانها تصطك فقالت :

كلا ان ما اسمعه منك ليس حقيقة بل هو حلم مخيف . كلا انك لا تشي بي هذه الوشاية الهائلة . وفوق ذلك فانك بهذه الوشاية تسيء الى نفسك كما تسيء الي .

— ربما كان ما تقولينه صحيحاً يا سيدتي ، ولذلك تعلمين دون شك ما يقدم عليه العشاق متى تمكن منهم القنوط ... انهم يقدمون على كل خطير ويستقبلون الحجل والعار والموت دون اكتراث ، وأنا من اولئك العشاق ..

إذن ماذا تريد ؟

فوقف بمبو وقال :

لا اريد ان تزوجي بملك لساندريجو ، فان بيانكا لي .

فصاحت امباريا صيحة يأس وخبات وجهها بين يديها ، فعندما رفعت رأسها كان بمبو قد قوارى عن الانظار .

أما الكردينال فانه انصرف مطمئناً وهو يقول في نفسه .

اني سأملها ثلاثة أيام للتفكير ويفعل الرعب البقية فاني سأعود بعد ثلاثة أيام وتكون بيانكا لي .

فلما بلغ إلى الباب وحاول الخروج منه رأى رجلاً خرج من قاعة الانتظار وعرف انه ساندريجو فنادى أحد الخدم وقال له :

خذ يا بني هذين الدينارين وأجبني .

فأخذ الخادم الدينارين بلهف وانحنى أمامه بملء الاحترام فقال له الكردينال :

أرأيت هذا الرجل الذي كان في قاعة الانتظار ؟

— نعم يا سيدي .

— من هو ؟

— لا أعرف اسمه ولكنه يريد مقابلة السنيورا امباريا .

— أهو الآن عندها .

— دون شك .

— اني امنحك خمسين ديناراً اذا كنت تسهل لي سماع حديثهما .

— خمسين ديناراً ؟

— نعم ألم تعرفني ؟

— ومن لا يعرفك يا مولاي .

— اذن تعال إليّ في هذه الليلة انقذك المال .

— تفضل واتبعني .

فسار الخادم يتبعه بمبو حتى بلغ الى غرفة ضيقة فوضع الخادم أصبعه فوق فمه ودله على ستارة كانت تفصل بين هذه الغرفة وبين الغرفة المقيمة فيها امباريا ثم تركه وانصرف .

فوقف بمبو وراء الستارة وجعل يصغي .

وكانت امباريا قد استقبلت ساندريجو بملء الارتياح بعد حادثة معها مع بمبو فلما دخل اليها قال لها :

- لقد أسرعت بالعودة اليك كما ترين .
- قالت وأنا كنت انتظر عودتك ببلد الجزع :
- قد كنت منهمكاً في ايجاد كاهن يعقد قرائنا .
- فاصفر وجه امباريا ولو بحث باحث في اعماق قلب هذه المحظية الغريبة الأطوار لرأى فيه بذور البغض والغيرة فانها باتت تحب هذا اللص الآن .
- حق انها أصبحت تغار من بنتها عليه فقالت له :
- لماذا هذا التسرع بالبحث عن كاهن .
- لأن لهذه المسألة خطورة عظيمة لدي ولا سيما مسألة الحفلة إذ لا يوجد من يعرفني في فينيسيا ما خلا زعماء الجواسيس وهم لا يعرفون عني سوى اني من اللصوص ولذلك أردت أن تكون حفلة القران باهرة في أعظم كنيسة .
- وان يتولى عقد قرائنا أعظم كاهن .
- من هو هذا الكاهن .
- الكردينال نفسه فقد رضي أن يبارك عقد قران القائد ساندرينو وابنة امباريا .
- ماذا تقول ؟
- أقول الكردينال نفسه .
- بمبو ؟ !
- هو يعينه .
- وعند ذلك ابتسم الظافر وقال :
- انك تعجبين كيف انهم يعاملونني معاملة لا يعاملون بها غير ابن الدوج فستكون الحفلة في كنيسة سانت مارك فتتأثر بألف شمعة ويحضر صلاة الاكليل لجميع القسس والرهبان وكل نبلاء فينيسيا والقائد العام ورئيس ديوان التفتيش ويعقد القران الكردينال نفسه فماذا تقولين .
- بمبو !
- نعم فقد تعهد لي بذلك .

- أهو تعهد لك ؟
- في صباح هذا اليوم .
- أكان يعلم اسم خطيبتك ؟
- نعم .

فوضعت امباريا يدها على جيباتها وذكرت ما قاله لها الكاردينال منذ
هنيئة وهو اني لا أريد ان تكون بيانكا زوجة ساندريجو لأنها لي .
فاضطربت في أمرها ولم تعلم كيف تحمل هذا اللغز .
ورأى ساندريجو ما كان من اضطرابها وذهولها فقال لها :
- انك تنذهلين لذلك ولكن متى علمت ان بمبو مدين لي بالحياة بطل
انذهالك .

وعند ذلك اخبرها بإيجاز كيف انه انقذه من مغاور بيافا فأيقنت امباريا
ان بمبو قد تقيد حقيقة بهذا الوعد ولكنه يضمن الشر في السر لمنقذه
فاضطربت في أمرها ولم تعلم إذا كان يجب في هذه الحالة إنذار ساندريجو .
الى ان رأت ان لا بد من إخباره والاتفاق معه على مقاومة الكاردينال .
ولكنها لو أنيخ لها النصر على الكاردينال بعد هذا الاتفاق فما تكون
النتيجة . . انها تكون زواج ساندريجو بابنتها فوازنت عند ذلك بين حالتها
فتمثلت لها المشقة وتلك الحفلة الباهرة في كنيسة سانت مارك فلم تجد حلا
لهذه المشكلة إلا بإطالة الوقت كي تتمعن في أمرها عليها تجد مخرجاً من هذه
المضايق الحرجة .

وعند ذلك أخذت تنادم ساندريجو وتغازله حتى فتلمته فخرج بعد حين
وهو يقول في نفسه .

ترى من هي التي أحبها أمي الام أم البنات
وكان بمبو وراء الستارة كما تقدم فرأى كل ما حدث وسمع كل ما دار
بينهما .

فلما خرج ساندرينجو زاح الستارة ودخل لقوره الى امباريا وهي لا تزال
محلولة الشعر فذعرت ذعراً عظيماً ولم تفه بكلمة فقال لها ببو .

لقد وقفت الان على سرك فانك تحبين ساريجو وتزاحين بقتك فيه ولا
تفتكرين الا ان يكون هذا الرجل لك وحدك اليس كذلك .

فتمتمت امباريا قائلة : هو ذاك .

قال : اذا كان ذلك فقد وجدت الحق الموافق .

— انت

— نعم فاعتبري ان كل ما قلناه كان لغواً وانسى وعيدي السابق ولنابق
صديقين اترين .

— نعم .

— او على ذلك يكون ساندرينجو لك وبمانكا لي .

فارتعدت امباريا واكتنمها قالت بصوت يتلهم : نعم .

— اذن فاطماني ولا تقلقي بعد الآن فان بقتك في وقت قريب لا نكون
سائلاً بينك وبين من تحبين .

فتنازعت قلبها عوامل الأمومة وعوامل الغرام الى ان انتصر عامل الحب
على ذلك القلب الفاسد فقالت :

— نعم لقد رضيت .

فخرج ببو عند ذلك سكران بنخمرة الرجاء كما خرج ساندرينجو من قبله
سكران بنخمرة الحب وهو لا يعلم الى اية المراتين يميل .

اسوار كوفرنولو

لقد تركنا رولاند في خيمة الشيطان الأكبر وقد جذب المائدة إليه فكانت حائلًا بينه وبين أعدائه وامتشق حسامه بينما كان جان مدسيس يصيح قائلاً :

— خيانة .. خيانة .. إلي .

وقد بلغ صوته إلى الجنود وجرد رولاند حسامه الطويل وجعل يدافع به عن نفسه فقتل ثلاثة من الذين تجرأوا على الصعود إلى المائدة .

وكان يقاتل بيده اليمنى ويده اليسرى وراء ظهره مسندة إلى قماش الخيمة وجان مدسيس يصيح بأعوانه قائلاً :

— "اقتلوه اقتلوه .

فهمجم عليه نحو عشرين رجلاً فصاح بعضهم قائلين : لقد سقط . وقال آخرون : لقد لقي عقابه .

وصاح الشيطان الأكبر قائلاً : بل انه نجى ادر كوه ، اقتلوه . وقد أشار إلى الجنود بيد تضطرب إلى خرق قماش الخيمة .

ذلك ان رولاند بينما كان يقاتلهم بحسامه جرد خنجره بيده اليسرى ومزق به قماش الخيمة حتى اذا رأى الجنود تكاثروا عليه وأرادوا ان يبطشوا به مرق من ذلك الخرق الذي فتحه مروق السهم وتوارى عن الابصار .

وقد جاء في اثره نحو مائة جندي ولكن الجاثم ذهب عتياً فعداوا

الى قائدهم خائبين وكاد جان مدسيس ان يجن من غضبه فلم تبقى كلمة من قاموس الشتائم حتى لفظها وهو يرغي ويزبد كفحول الجمال .

حتى اذا قنطوا من العثور به نام في خيمته ونهض عند الفجر فامتطى جواده وسار مع بعض قواده الى كوفرنولو التي كانت أسوارها تبعد عن معسكره نصف مرحلة .

وقد أسف أسفاً شديداً لفرار رولاند وارسل في أثره الجنود الى كل الجهات فلما عادوا اليه بالخيبة هز رأسه وقال :

— ان رولاند كانديانو تهديني واهانني إهانة لا تغتفر إلا بالموت على اني سأجده ومتى ظفرت به عاقبته بما عوقب به أبوه .

وعند ذلك انصرف الى مراقبة الأسوار وقد عزم عزمًا أكيداً على مهاجمتها في الغد او في اليوم الذي يليه .

على ان الحادثة التي جرت له مع رولاند هاجت عزيمته وعول على مهاجمة الأسوار في القريب العاجل لا سيما وان اقتراح فوسكاري قد يثني عقله فرأى ان يفتح هذه المدينة ثم يبدأ بتنفيذ ذلك الاقتراح بان يرسل الى فوسكاري فيخبره انه راض مبدئياً بالاقتراح ويسأله تعيين يوم ومكان الاجتماع . فلما استقر رأيه على ذلك لم يعد يفكر إلا بإحراز النصر في هجومه . وقد افتقد تلك الأسوار وفحصها فحوص العارف الخبير فأيقن من إحراز النصر .

وفيما هو يراقب تلك الأسوار ولم يكن يصحبه غير إثنين من ضباطه تساقط عليها الرصاص فأصيب احد الضباطين برصاصة قاتلة وجرح الآخر جرحاً بالغاً وأصيب جواد جان مدسيس برصاصة فقتلته فوثب عنه الى الأرض قبل سقوطه .

وعند ذلك التفت الى ما حواليه فرأى رجلاً قد خرج من بين الادغال وقال له :

— جان مدسيس انه لا يزال لديّ غدارة وخنجر وانت لديك مثلي قلنتبارز إذا أحببت .

فصاح جان صيحة فرح حين علم ان هذا الرجل كان رولاند .
وهجم على رولاند واطلق عليه غدارته فأخطأه وأطلق عليه رولاند فأصابه فسقط ذلك الرجل الحربي يتخبط بدمائه ثم أطبق عينيه .
فدنا رولاند منه وتغن في وجهه فقال :

— انه لم يم بعد ولكنه سيموت قريباً .
وعند ذلك فتح جان عينيه فقال له رولاند :

— هل تستطيع ان افيدك بشيء ؟
قال : اذهب لا أرجعك الله فلا اريد منك شيئاً .
قال : انك يا جان قد أردت عدائي في حين اني لم أكن أريد إلا ولاء وبرهنت لك عن صدقي في هذا الولاء .

وقد خيرتك بين الجريمة والعقاب فاخترت الجريمة بحيث لم أجد بداً من تنفيذ العقاب وهكذا سأعاقب اصحاب اعدائي .
قال : إذا كان ذلك فما أبقيت لأعدائك .

قال : ان هؤلاء لا أريد ان أضربهم أما انت فاعلم اني قتلتك دون ان أكون حاقداً عليك لأنك كنت حائلاً بيني وبين اعدائي .
وعلى ذلك فاني أعيد عليك ما قلته وهو :

— أريد ان افيدك بشيء واعلم يقيناً اني امثل لكل ما توصيني به بلاء الاخلاص .

فضحك جان ضحكاً عصبياً ذهب بحياته واطبق عينيه .
وبعد ذلك بربع ساعة علم المحصورون في تلك المدينة بوفاة عدوهم الكبير فقرعوا اجراس الكنائس وعلا هتافهم حتى بلغ عنان السماء ثم حملوه ودخلوا به الى المدينة فطافوا به الأسواق فرحين مستبشرين وهكذا كان دخول ذلك الفاتح الى قلعة كوفرنولو .

٤٣

رسالة من ارتين

كان بمبو وفوسكاري جالسين في سراي الحاكم يتحدثان بصوت منخفض .
وكان ذلك في صباح يوم بارد من أيام الشتاء بعد الحوادث التي ذكرناها
في الفصول السابقة بعدة أيام .

وقد بدأ الدرج الحديث فقال : هوذا اسبوعين قد مضيا دون ان يعود
ارتين قال اني أمر كل يوم فأسأل عنه ولم يرد منه شيء الى الآن .

— ولكن جان مديسيس غير بعيد الآن عنا فهو في مونتو وكان يجب على
رسولنا ان يعود منذ اسبوع .

— هو ذاك ولكن يقال ان الثلوج تساقطت بغزارة في السهول وقد
تكون سدت المنافذ .

— انظر الى هذه الأخشاب التي تحترق في الموقد يا بمبو فقد كانت شجرة
راسخة الاركان فباتت الآن اخشاباً تحترق .

— دع هذه التصورات ايها الدوج العزيز فان سلطتك لا يتهددها احد .

فارتعش فوسكاري وقال: أأنت رأيت ايضاً ما رأيته من معنى احتراق
هذه الأخشاب ؟

— كلا ، بل اني ترجمت فكرك ويسؤني ان أراك حزين النفس ضيق
الصدر في حين ان كل شيء في هذا الوجود يبسم لك .

فنهض الدوج وسار الى النافذة ثم أشار الى بيمو ان يدنو منه فقال له :
ماذا ترى من هذه النافذة ؟

فقال بيمو : أرى مدينة عامرة ملؤها الجلال والمجد تناطح بقصورها
السحاب وتضيء منصابيح قواربها في بحيراتها الزرقاء كما تضيء النجوم في
السماء ، وأرى ذلك الاسطول الضخم راسماً بقربها رسو الجبال فأقول في
نفسي ان كل هذا لك ، ثم أرى اولئك الجنود الذين يسرون الآن بتلك
الانتظام إذا جاء دور حراستهم فأقول انهم لم يعينوا إلا لخدمتك .

فتنهذ فوسكاري وقال : أما الذي أراه أنا من هذه النافذة فهو ذلك
الجسر الهائل جسر التهنيدات فاني ما وقفت مرة في هذه النافذة إلا اتجهت
عيناى بالرغم عني فإذا رأيت اولئك البحارة يسرون في قواربهم ويلتفتون
الى شرفات القصر اقول انهم يصبون عليّ لعنائهم، وإذا رأيت الجنود قادمون
للعراسة اقول انهم قادمون للقبض عليّ ، فان الناس يمتقدون يا بيمو اني
ملأت فينيسيا ظمأً وقد غصت السجون بهم حتى اني بت اسم تهنيداتهم
عن بعيد .

ألم أقبض على كانديانو وهو في نضارة مجده وكان ما تعرفه من عقابه فلا
يمنع ان يقبضوا عليّ كما قبضت عليه .

— هذا الرعب يا سيدي فاني لا أجد مساعاً له .

— ذلك لأنك لا تريد ان ترى فان الدم يدعو الدم وقد قلت لك ان
رولاند كانديانو يرود حولي حاملاً سيف القضاء ولا بد ان ينفذ بي هذا
القضاء .

— ان رولاند لا يلبث ان يقع في قبضتنا .

— ولكنه الآن حرّ وانت تقول يا بيمو انه لا مساع لرعي ولكني أرى
منذ حين من نظرات الضباط المحدثين بي ما يرعيني .
— لماذا لا تقبض عليهم ؟

— واني كنت أرى في الحفلات التي أعدها كثيرين من النبلاء يتكلمون حولي همساً .

— لماذا لا يزال هؤلاء النبلاء في قيد الحياة ؟

— صبراً يا بيبو الى ان تمتلي هذه الورقة التي أمامي من اسمائهم فانها كل يوم تزيد وسأضرب ضربة هائلة أدع فينيسيا خافضة الرأس عشرين عاماً . ولكن لا بد لي قبل ذلك من أمرين احدهما القبض على رولاند فاني لا أزال أخافه ما زالت هذه العصابات تحت قيادته .

والثاني ان يقبل جان مدسيس بحالتي وعند ذلك تعلم مقدار قوتي ولا سيما حين يصبح جيش الشيطان الأكبر تحت أمري . أعرفت الآن قدر جزعي بتأخر ارتين الشاعر عن الرجوع ؟

وعند ذلك دخل خادم وهو يحمل رسالة على صينية من الفضة وقال : — ان بيار ارتين أرسل هذه الرسالة الى مولاي الدوج وهو لا يستطيع الحضور بنفسه لأنه طريح الفراش .

فأخذ الدوج الرسالة وانصرف الخادم . فلم يكذ فوسكارى يقرأ السطور الأولى حتى صاح صيحة يأس فاصفر وجهه وسقطت الرسالة من يده .

فألتقطها بيبو وقرأ هو ايضاً تلك السطور الأولى كما يأتي :
« الى مولاي الشهير العظيم حاكم جمهورية فينيسيا ،
« مولاي ،

« التمس من سموكم معذرتي فان ما سأقوله هائل حتى اني لا أكاد أجسر على قوله .

« فقد لقيت من الحزن في هذه السفارة ما أنهلك قواي وهذا النبأ الحزن الهائل أقوله بكلمة وهي :
« ان جان مدسيس الشهير » .

فقال بمبو بلهجة قنوط ايضاً :

— ألمات جان مديسيس ؟

قال : نعم وهذه هي الضربة القاضية عليّ فاقراً كل الرسالة فاني أحب ان أقف على كل شيء فقرأ بمبو ما يأتي :

« ان جان مديسيس الشهير قد مات هذا الرجل الذي كنت عاقداً عليه كل آمالي بين ذراعي فقد أصيب صباح الثلاثاء حين اقترابه من أسوار كوفرنولو بضربة خنجر وقيل انه أصيب برصاصة غدارة كانت القاضية عليه وكان يصحبه ضابطان فقتلا قبله .

وكان قاتله رجل غريب عن كوفرنولو لا يعرفه احد ولكن كثيرين قالوا انه من أهل فينيسيا وأكد بعضهم ان هذا الرجل الفينيسي هو ابن دوج فينيسيا السابق . »

فابتسم فوسكاري ابتسام القنوط وقال :

— رولاند كانديانو .

فقال بمبو : هذا الذي كتب في لوح المقدور .

قال : تم قراءة الرسالة فقرأ بمبو ما يأتي :

« انه حين أصيب هذه الاصابة اضطرب نظام جيشه وكان الحزن عليه لا يوصف فسار ضباطه وجنوده الى كوفرنولو وهم يبكون وعادوا بقائدهم الأكبر الى معسكرهم ثم حملوه معهم الى قصره في مانشو وهناك دنوت منه وقتلت له :

— مولاي انه لا بد لك من إجراء عملية جراحية في رجلك فتشفي بعد ثمانية ايام ونعم انه يبقى أثرها ولكنه أثر شريف وان كنت غير محتاج الى هذا الشرف . »

قال : حسناً فليحضر الاطباء .

وعند ذلك أقبل الأطباء وأعوانهم واصطفوا حوله وهناك لقيت منه ما لا يخطر في بال انسان .

فانه كان يحمل المصباح بيده بينما كان الأطباء يقطعون رجله .

وقد هربت كي لا أرى هذا المنظر ولكني لم ألبث بعد هنيهة ان سمعته يدعوني اليه فدخلت فرأيت ضباطه من حوله آسفين ورأيتهم قد أخذ رجله المقطوعة فجعل يلعبها بيديه ويهزأ بنا .

ولكنه بعد ساعتين عاوده الألم الشديد وهذان الحمى فأسرعت اليه وسمعته يكرر هذا القول :

« لماذا اخترت الجريمة على العقاب ، ربه هذا هو القاضي الأكبر قد حضر » .

فاضطرب فوسكارى وقال ، القاضي الأكبر .

فقال بيبو : ذلك ما أقرأه في الرسالة .

— حسناً اتم قراءة تلك فقرأ بيبو ما يأتي :

وعند الصباح عاد اليه رشده فكتب وصيته وبعد ذلك حاول ان يتكلم بشأن المعارك والحروب ولكنه لم يستطع فان الموت عقد لسانه ومات مأسوفاً عليه .

وكانت بقية الرسالة تتضمن تفاصيل ذلك الموت مما لا حاجة الى بيانها فلما أتم بيبو قلاوتها اطرق مفكراً فلم ينتبه لا لفوسكارى وهو يردد هذا القول :

— يا للمصائب انها داهية دهماء فقال له :

— مولاي ما هذا الجذع فاني رأيتك صبوراً في أشد من هذه الملمات .

قال : ذلك لأن الكوارث وحدها كانت تنذرني .

— ماذا تعني بذلك ؟

فرقف فوسكارى وجعل يحول في الغرفة ويردد قول جان مدسيس

هوذا القاضي الأكبر ، الا ترى يا بمبو شيئاً من الغرابة في ان يقتل رولاند كانديانو جان دي مديسيس ؟

- ولكن ذلك لم يثبت كل الثبوت .
- بل هو ثابت كل الثبوت .

- غير ان رولاند لم يكن له ادني اتصال بجان مديسيس وقد كان في فينيسيا منذ اسبوعين وهو شريد طريد فكيف يتفقد وجوده في مديسيس واذا اتفق ذلك فلماذا خطر له ان يقتله ؟

- لماذا الا ترى ان هذا الرجل وقف على نيائي . . اني لا أعلم كيف عرف ذلك ولكنني موقن انه عارف بمقاصدي وهو انما قتله لأنه يعلم بأنه قد ينقذني فنهض بمبو وقال :

- يجب ان اعرف الحقيقة بتمامها وأنا ذاهب الآن توأ الى ارتين الشاعر وبعد ساعة اعلم ما يجب عمله .

- اذهب وعد في القريب العاجل .

فخرج بمبو مسرعاً وبقي فوسكاري وهو في اشد حالات الرعب .

قبل ان يرد كتاب ارتين بثلاث ساعات دخل رجل الى منزل هذا الشاعر فسأل عنه فقبل انه مسافر .

قال : حسناً فادخل اليه في غرفة اعماله وقل له اني آت من قبل الشيطان الاكبر .

فلم يسع الخادم الا الامتثال وبعد هنيهة عاد الى الرجل فادخله الى ارتين . فلما رأى ارتين رولاند داخلاً اليه فرح فرحاً عظيماً وقال له : الحق اني بدأت ان امل هذا الأسر .

قال : ألم يعلم أحد انك بقيت في فينيسيا ؟

- كلا
- ألم تخرج من المنزل مرة ؟
- لا في الليل ولا في النهار
- والمقيمون معك في المنزل ؟
- كانوا جميعهم يحسبون اني مسافر حتى نسائي مما خلا الخادم الذي ادخلك الي .
- حسناً فعلت .
- وعند ذلك جلس رولاند وهو مطرق فقال له ارقين :
- اتأذن لي بأن اسألك ؟
- سل ما تشاء .
- رأيت جان مديسيس ؟
- رأيت .
- أحدثته ؟
- نعم .
- بمهتي ؟
- بمهتك .
- ماذا قال ؟ ماذا فعل ؟
- انك جالس قرب مائدة الكتاب فاكتب ما امليه عليك تعلم الحقيقة
- الى من تريد ان اكتب ؟
- الى الدوج فوسكاري .
- الى الدوج ؟
- لماذا الى الانذهال ألا يجب ان تخبره بما فعلت في سفارتك ؟
- لماذا لا اذهب اليه ؟
- لأنك مريض طريح الفراش ولأنه يستحيل عليك ان تهرج الفراش .

- اني لا افهم ما تقول .
- سوف تفهم ولكن قبل كل شيء يجب ان يعلم المقيمون في منزلك انك اتيت اليه سرأ في الليل وانه يجب ان يعلموا بقدمك من بكائك وتألمك .
- بكائي وتألمي ؟
- نعم فاكتب الآن فاني املي عليك المعاني وانت تلبسها ذلك اللباس الجميل من اللفظ .
- فأخذ ارتين القلم وتهيأ للكتابة فقال له رولاند:
- ولكني أريد ان تحرص على كل كلمة قالها جان مدسيس حين نزعه .
- فوثب ارتين من مكانه وقد اصفر وجهه .
- ماذا تقول يا سيدي ؟
- اقول ان جان مدسيس مات قتيلا .
- جان مدسيس قتل العلي حالم .
- نعم وأنا الذي قتلتة .
- فسالت دموع الشاعر ورأى رولاند انه مخلص في حزنه صادق في دموعه وجعل ينظر اليه نظرات اشفاق .
- وبعد ساعة جفت دموعه ولكنه شعر بالخطاط عظيم فقال له :
- لم يبق حاجة الى الكذب فاني مريض حقيقة وسأكتب ما تمليه علي ثم أعود الى فراشي ولكن لماذا قتلت هذا الرجل واية اساءة اساءها اليك ؟
- قال : انه لم يسعى إلي بشيء ولكنه حاول ان يوقف مجرى العدالة فسيحقتة تلك العدالة .
- فلم يجبه على ذلك وقال له : اني مستعد للكتابة فتفضل باملاء ما تريد فاملئ عليه رولاند ذلك الكتاب الذي قرأه فوسكارى وبهو .
- وبعد ان أتم كتابه نادى الخادم الذي يثق به وأمره ان يسرع بايصال الرسالة الى الدوج .

- فأخذ الخادم الرسالة وقوارى عن الانظار .
وعند ذلك قال له رولاند :
- ان اللدوج سوف يرسل اليك من يسألك .
- تظن ذلك ؟
- بل اني واثق منه وربما جاء بنفسه .
- لقد احسنت بأخبارك اياي فاني سأنام في قاعة الشرف ولكن ماذا
يجب ان اقول لللدوج حين حضوره .
- تميد ما كتبته اليه وقصيف الى ذلك قولك ، انه في ليلة الوفاة رأى
الضباط رجلاً قدم الى المعسكر كلهم يتحدثون به .
- من هو هذا الرجل ؟
- رولاند كانديانو
ويذكر القراء ان رولاند لم يعرف ارقين بنفسه الا الآن فمضى في حديثه
فقال ان رولاند كانديانو جاء الى معسكر الشيطان الأكبر وطلب مقابلته
وهناك خاصمه ودعاه الى مبارزة لا قتلتهي الا بالموت دون ان يعلم احد اسباب
هذه المبارزة .
هذا الذي يجب ان تقوله لللدوج اذا زارك او لمن يرسله .
والآن فاعلم ان هذه المقالة تهمني كثيراً ولذلك اريد احضرها دون ان
يراني أحد .
قال : اذن ادخل الى هذه الغرفة المجاورة فليس بينهما وبين هذه الغرفة
غير حائط رقيق من الخشب .
وبعد هنيهة جعل الشاعر يبكي ويتوجع حتى تذب له نساؤه واسرعن اليه
وهن لا يعلمن انه قد عاد فجعلن يواسينيه ويسلمينه .
وما زلن على ذلك حتى دخل احد الخدم وقال :
- ان سيدي الكوردينال في غرفة الاستقبال .

فأمر أرتين عند ذلك جميع نسائه بالانصراف ودخل الكاردينال في أثر انصرافهن .

وكان رولاند قد سمع الخادم يلفظ اسم الكاردينال فاصفر وجهه من الغضب واشتد قلقه فقال في نفسه :

— ترى ماذا حدث وكيف جاء الى فينيسيا وزار أرتين الشاعر وأنا قد تركته مقيداً في المغارة السوداء ؟

أما ببو فانه جلس على كرسي قرب سرير أرتين وقال له :
— لقد كنت في سراي الدوج حين وصلت رسالتك فأرسلني اليك كي اسألك عن بعض أمور بشأن هذه الرسالة .

— انت ترى ايها الصديق اني مريض من هذا الحادث الأليم .

— إذن هو أكيد ؟

— دون شك وأأسفاه .

— رأيت بنفسك ان الشيطان الأكبر قد مات ؟

— لو لم أتأكد موته كنت اكتب للدوج ؟

— انها نكبة فادحة .

— علي ايها الصديق ؟

— بل على الجميع .

فأطرق ببو مفكراً مهموماً ولم يكن هم لفاة جان مدسيس بل لأن رولاند قتله فقال له :

— اخبرني ايها الصديق بتفاصيل هذه الوفاة .

فاندفع الشاعر يصف له ما كتبه في الرسالة حتى إذا أتم كلامه قال له الكاردينال :

— هذا الذي اريد ان اعلمه منك فقد قرأته في رسالتك ولكن خفي

علي بعض أمور في تلك الرسالة أحب ان افهمها منك .

- سل ما تشاء .
- لم تقل لجان مدسيس شيئاً بشأن المهمة التي انتدبناك فيها ؟
- كلا .. فقد أتيت بعد فوات الآوان .
- إذن لقد مات دون ان يعلم السبب في زيارتك ؟
- نعم .
- فيستنتج من ذلك انه هو نفسه لم يستطع ان يقول كلمة لأحد قبل موته عن مقاصد فوسكاري .
- هذا لا ريب فيه .
- إذن لنبحث في شأن آخر أي في شأن قاتل الشيطان الأكبر .
- سل ما تشاء .
- إن قاتله كان دون شك جندياً من جنود الاعداء ؟
- كلا .. فاني أعيد على مسممك ما كتبتة الى الدوج وهو انهم كانوا يحملون في المعسكر هذا القاتل وأما في كوفرنولو فهم يؤكدون ان قاتله كان ابن دوج .
- اذكر اسم القاتل .
- نعم لقد أكد بعض الضباط انه ذلك الرجل الذي استقبله في خيمته ليلة وفاته وجرى بينهما حديث أدى الى الخصام .
- ما اسم هذا الرجل ؟
- رولاند كانديانو .
- فارقمش ببو كأنه لم يكن يتوقع ان يسمع هذا الاسم وبدأت عليه علائم الرعب ولكنّه رأى ارتين ينظر اليه فنجعل وقال :
- قل لي الآن ايها الصديق ألم تخبر احداً بمهمتك قبل سفرك ؟
- فتردد ارتين لحظة وقال : كلا .
- غير ان الكاردينال انتبه لتردده فدنا منه وقال :

- ويح لك ايها الشقي انك بحت بالسر .
- معاذ الله ان افعل واني أقسم لك على صديقي فيما أقول .
- فأخذ الكاردينال يده فمزها وقال :
- أتعلم من كان سكرتيرك ؟
- أي سكرتير تعني ألعلمك جنذت .
- ذلك السكرتير الذي طالما سألتك عنه فلم تعرف شيئاً من أمره حتى انك كنت تجهل اسمه أتعرف من هو ؟
- أقسم بشعر مرغريتا اني لا اعرفه .
- أين هو وماذا جرى له ؟
- إنه اختفى لييلة سفري .
- إذن فاعلم ايها المجنون ان هذا السكرتير يدعى رولاند كانديانو .
- أية غرابة تجدد في ذلك إذا كان أكيداً وبماذا يستطيع ان يسيء إليّ وماذا تهمني اعمال هذا الرجل وهو قد سافر ولا فرق عندي بين ان يعود او لا يعود ؟
- والذي يعني في كل ذلك اني خسرت جان مدسيس وخسرت الفين وخمسمائة ريال كنت ارجو ان اقبضها عند رجوعي .
- اصنع إليّ يا ارتين أتريد ان تقبض هذا المبلغ الذي حسبت انك فقدته ؟
- كيف لا أريد ؟
- بل أتريد ان تقبضه مضاعفاً مرة بل مرتين ؟
- ماذا يجب ان افعل مقابل ذلك ؟
- لا شيء تقريباً فقد قلت ان سكرتيرك رولاند قد يعود .
- ربما فهو الذي قال لي هذا القول .
- إذن كل ما يطلب منك هو ان تحسن استقباله حين عودته وتحمله على البقاء معك ساعة او ساعتين .

- ليس ذلك صعب .
- وعند حضوره توسل الى من يخبرني ولا أخالك تتردد .
- كلا . فاني ما عرفت هذا الرجل ولا أريد ان اعرفه ولا فرق عندي بين ان تقتلوه او تعفوا عنه ولذلك ارسل اليك من يخبرك حين قدومه .
- وفي اليوم نفسه تقبض عشرة آلاف ريال وإذا أردت فاذهب الآن الى الخزينة واقبض الف ريال .
- كيف ذلك أعمل الخزينة بيدك ؟
- نعم وسأغنيك ايها الصديق بشرط ان تخدمنا هذه الخدمة الجليلة .
- إذن اعتمد عليّ .
- فودعه الكاردينال عند ذلك وذهب تواء الى الدوج فقال له الدوج : ماذا علمت أعرفت قاتل مدسيس ؟
- انك لم تكن مخطئاً يا مولاي .
- فاصفر وجه فوسكارى وقال :
- إذن هو رولاند كانديانو ؟
- هو بعينه ولكنني عرفت من ارتين أمراً آخر يصلح كل ما افسده رولاند .
- أسرع وقل ماذا علمت ؟
- علمت ان رولاند سوف يكون قريباً في قبضتنا .
- كيف ذلك ؟
- ذلك ان لرولاند علائق بأرتين .
- ماذا يرجو من علاقته بهذا الشاعر ؟
- لا أدري وكل الذي اعلمه ان لرولاند علائق بأرتين وانه قد يعود اليه .
- وعند ذلك ؟
- نقبض عليه .

فهرز فوسكاربي رأسه وقال :

- انك واهم يا بيمو فائننا لا نقبض على رولاند وقلبي يحدثني بأنه سيقبض علينا وحسبك دليلا على ان الأقدار قد باتت علينا لا لنا قتل .. قتل جان مدسيس وان قاتله هو رولاند .

فأجابه بيمو بلمهجة تبينت فيها السكينة . :

- ما حسبت انك فشلت إلا لأنك استرست الى حديث النفس وتشاءت من بعض الحوادث على انك لو دافعت لنجوت وحالتنا الآن بسيطة لا تحتاج الى الإمعان إذ هي موقوفة على الجرأة فاذا بدأت بمهاجمة عدوك كنت الفائز عليه لا محالة وإذا صبرت كان الفوز له فتدبر .

- ماذا أعمل يا بيمو انك مستشاري الوحيد الذي أثق بصديق اخلاصه فبماذا تشير عليّ فانك ما زلت قائدي في مهام الأمور .

- ذلك لأني متعلق بك فلا بد لي ان اتبعك في حالتي هنالك وشوقك .

وانك تسكمني عن الاخلاص والوداد ومما كلمتان لا أفهم لهما معنى فان عظمتك خير ضامن لي وأنا لا اعتد إلا بالقوة والإرادة ولذلك وثقت بي كما أثق بك لأننا باتحادنا نؤلف قوة وأنا على اليقين اني لو تخليت عنك كنت في خطر وكذلك لو تخليت عني فلا آمن على نفسي إذن لنتفق ولنبحث فيما يجب ان نعمله على قاعدة هذا المبدأ .

- نعم يا بيمو اني على مبدئك ولي بك ملء الثقة فأسر عليّ ما يجب ان افعله .

قال : ان الأمر بسيط يا سيدي .

ثم نهض الى المائدة التي كانت عليها تلك القائمة المبينة فيها اسماء الموشى بهم فاكتفى بالإشارة اليها .

فقال الدوج وقد أدرك قصده :

- ولكن ذلك يقضي الى ثورة ؟

- اني عالم ذلك يا سيدي ولكنك متى اتخذت وسائل الاحتياط أمنت الثورة فهل انت واثق من الجنود ؟
- نعم فان التياراتي مخلص لي .
- ذلك غير عجيب منه فانه هو ايضا لم يقر إلا بفوزك فاعلم إذن ماذا يجب ان نفعل .
انه يجب منذ اليوم ان تدعو التياراتي وتتفق وإياه على سجن المشتبه بهم ويجدر في هذا المقام ان يعرف دندولو جلية الأمر كي يسير غور مجلس العشرة ويقف على نواياهم فاذا وجدنا بينهم من يتردد وجب علينا ان نبدأ بهم .
فاستحسن الدوج هذا الرأي وكتب لفوره رسالتين إحداهما الى التياراتي والأخرى لدندولو ثم أرسلهما اليهما .
وعند ذلك نهض بمبو يحاول الانصراف فودعه الدوج ولما بلغ معه الى الباب قال له :
- ورولاندا ؟
قال : اني اتعهد به .

٤٤

المطاردة

كان بمبو يعرف طباع فوسكاري حق العرفان ولذلك غادره في الحالة الفكرية التي أراد ان يضعه فيها وانصرف عنه وهو يفكر برد تحيات الناس على الجانبين وبيار كهم بيده الطاهرة .
حق إذا سار بضع خطوات لقي امرأة يحيط بها اولادها وقد اعترضت الكاردينال بطريقة وركعت أمامه وضمت يديها شأن المتوسل .

فقال لها : ماذا تريدن ايتها المرأة ؟
 قالت : انهم قبضوا على زوجي في هذه الليلة وسنموت جوعاً وليس لنا
 معين غيره .
 - ماذا جنى زوجك ؟

- وماذا عسى يجنيه يا مولاي فهو رجل لا يفتكر إلا بأشغاله التي يكسب
 منها قوت بنييه فيخرج عند الفجر ويعود اليها عند غروب الشمس يا مولاي
 وقد أتيت كي التمس إطلاق سبيله فان كلمة منك تنقذنا .
 وكانت مثل هذه الحادثة تتفق لبعبو في كل يوم فيهمز كتفيه ويقابل من
 يتصدى له بالاعتراض .

وقد حاول هذه المرة ان ينهج مع هذه المرأة ذلك النهج الذي تعود
 ولكنه نظر الى ما حوالياه فرأى كثيرين من الناس قد وقفوا ينظرون الى
 المرأة وبنيها نظرات إشفاق وينظرون اليه نظرات رجاء فخطر له خاطر
 فجائي ونظر الى المرأة الراكعة أمامه تبكي نظرة المشفق وقال بصوت
 المتوجع :

- مسكينة هذه المرأة واولادها ثم قال لها :
 - أقسمين لي ان زوجك لم يرتكب جنائية ؟
 قالت : أقسم بالله يا مولاي انه بريء من كل ما يمكن ان يتهم به فما هو
 من أهل الشر ولكن هي وشايات المفسدين .

قال : انهضي ايتها المرأة فان زوجك يطلق سراحه اليوم فاننا عائشون
 في ظلال العدالة بفضل فوسكاري العادل .
 فصاحت المرأة وصاح الجميع قائلين :
 - ليحييا فوسكاري .. ليحييا الكاردينال .

فانصرف الكاردينال وهو يهزأ بهذا الشعب الهاتف ويقول في نفسه .
 - تباً لهذا الشعب ما أشد جملة وما أسهل قيادة الشعوب فانه ينسى

الف إساءة بإحسان واحد ، فبايها البلمه انكم تستحقون تلك القيود التي
نقيدكم بها .

ثم ابتسم ابتسام الاحتقار وواصل سيره وهو يقول :

- ان فوسكارى شديد الضعف حين يتوقع السقوط ولكنه شديد القوة.
حين يرجو الفوز حتى انه لا يغلب ، ولذلك وجب ان ازيد به هذه الآمال.
وما عفوت عن زوج هذه المرأة إلا لأسمعه هتاف الشعب له .

وقد عاد الى قصره وهو يفتكر بهذه الأمور فكتب بضع رسائل وفي
المساء ارتدى بلباس الفرسان وحاول الذهاب الى امباريا فان فيانكا وأمها
كافتا متمثلتين في ضميره كساندريجو ورولاندا .

ولم يسر اليها بطريق التريعة بل سار في طريق البر ولعله أراد بذلك ان
لا ينبه اليه الأنظار وان يطيل الوقت كي يفتكر .

وفيا هو يسير في طريق ضيق رأى رجلاً يسير الهويناً على مسافة عشرين
خطوة فارتعش إذ خيل له انه عرف هذا الرجل من قامته ومن مشيته .

وعند ذلك التفت بردائه حتى انه ستر به وجهه وأسرع الخطى حتى
تجاوز الرجل ونظر الى وجهه فقال انه ليس هو .

ثم ترك الرجل يتجاوزته فلم يسر امامه بضع خطوات حتى عاوده الشك .
وعاد الى إقتفاء أثره وهو يقول :

- لا شك ان هذا الرجل رولاندا كانديانو فقد عرفته من قوامه ومن
طريقة سيره .

ونعم ان الوجه غير وجهه ولكن أكان الوجه وجه رولاندا حين لقيت
سكرتير ارتين ؟ وهل كان الوجه وجهه حين قادني الى السفينة ؟ وهل كان
كذلك حين لقيته في المغارة فاذا كان قد تنكر في تلك الحوادث ألا يمكن
ان يفتكر ايضاً الآن .. نعم انه هو بعينه وليس في ذلك أقل ريب .

وقد جعل قلبه يهبو يخفق خفقاً شديداً وأخذ ينظر الى ما حوالاه وقد

هجم الليل فلم يرَ احداً فاشتد رعبه وهلع قلبه من الخوف إذ خطر له ان رولاند قد عرفه وانه سيعود اليه .

ولكنه لم يلبث ان اطمأن إذ قال في نفسه :

- ان رولاند قد قتل الشيطان الاكبر ولم يعد الى فينيسيا إلا اليوم كما عاد ارتين أي انه لم يتمكن من الذهاب الى المغارة فيعلم هربي منها فهو إذن يعتقد اعتقاداً راسخاً اني سجين وسأقبض عليه دون شك .

وعند ذلك وصل الى منعطف فرأى اثنين من الجواسيس كان يعرفهما وهما واقفان قرب خمارة يصغيان الى حديث العمال قدنا منهما وعرفهما بنفسه . وقال لهما بضع كلمات سرية فالتحنيا وتوارى احدهما عن الانظار وهو يركض أما الثاني فيجعل يسير في أثر بمبو .

أما الرجل الذي حسب الكاردينال انه رولاند فإنه كان يسير بلء السكينة فيجتاز للطرق والجسور الى ان وصل الى منزل على الشاطئ . فنظر الى ما حواليه ولم يرَ ما يحمله على الرية فدخل الى ذلك المنزل .

وبعد هنيهة عاد الجاسوس الذي كان قد ارسله برجلين فصار حول بمبو أربعة رجال مسلحين .

فاشتد خوف بمبو بمنظر هؤلاء الرجال الاربعة بدلاً من ان يطمئن وقال في نفسه :

- ان من الجنون محاولة القبض على مثل رولاند بمثل هؤلاء الاربعة ولكنه قال ايضاً ان الفرصة صالحة وإذا هاجه اولئك الجواسيس فإنما يخاطرون بأنفسهم ولا خطر عليّ في شيء .

ولذلك قال لهم : اني امنح كلاً منكم مائة دينار إذ تمكنتم من أسر هذا الرجل الذي رأيتموه دخل الى هذا المنزل .

فبرقت عيونهم من السرور وقالوا بصوت واحد : هلموا اليه . فاستوقفهم بمبو قائلاً :

— ان هذا الرجل شديد القوة ويجب ان تحذروا لانفسكم
فابتسموا ابتسام الاستخفاف وقال أحدهم :
— أتريد أن نأتيك به حياً أو ميتاً ؟
قال : لا فرق في ذلك عندي فاذا قتلتموه لا جناح عليكم بل اني أكافئكم
ولكن يجب ان تعلموا أن الرجل سيدافع عن نفسه وهو شديد كما أخبرتكم
فقد يقتل احداً منكم .
قالوا : انها مهنتنا واذا لم نعرض انفسنا لخطر الموت فكيف نستحق
المكافأة .
قال : اذا جرح أحدكم فأني أضاعف جائزته وإذا قتل لا سمح الله أغنيت
عائلته .
فتحسسوا لقول الكاردينال وقالوا : هلموا بنا اليه .
وبعد ذلك ساروا الى ذلك المنزل فبلغوا إلى سلم خشبي فصعدوا عليه
غير هائبين .
ولم يكن هذا المنزل مؤلفاً الا من طابقين فوقفوا عند الطابق الاول
متريدين وكان هناك بابان فجعلوا يتنصتون عند كل باب فلم يسمعا صوتاً
فواصلوا صعودهم الى الدور الثاني .
وهناك لم يجدوا غير باب واحد فاصغوا منه فسمعوا وقع خطوات
موزونة مستمرة فايقنوا ان الرجل فيه .
اما بما وجدوا فقد كان واقفاً عند مدخل المنزل وهو خافق القاب مضطرب
الأعضاء ينظر الى نافذة عالية كان ينبعث منها نور ضعيف .
غير أن هذا النور اطفئ فجأة فأسرع الجواسيس الاربعة الى إنارة
مصباح يظهر نوره ويختفي حسب مشيئة صاحبه .
وأدخل أحدهم خنجره في قفل الباب يحاول فتحه ووضع اثنان كتفيهما
على الباب ودفعاه بعنف .

* * *

كان هذا الرجل الذي تبعه بمبو رولاند ولا ندري اذا كان علم بانهم يتبعونه فانه كان مشغولاً عن ذلك بالتفكير بليونور فان عودته الى فينيسيا جددت في نفسه ذلك الحب الأول الذي توهم انه نسيه وهو لا ينسى .

وكان قد حاول ان ينقض على بمبو فيقتله حين رآه في منزل ارتين ولكنّه سكن روعه اذ لم يكن قرر في خطته قتل هذا الرجل في الحال .

فلما انصرف الكاردينال خرج رولاند من الغرفة التي كان مختبئاً فيها فقال له ارتين :

— العلي تسكمت بما ينطبق على نواياك ؟

قال : نعم

— ماذا يجب ان اصنع بشأن ما اقترحه علي الكاردينال ؟

— أي اقتراح تعني ؟

— ان أخبره حين تأتي إلي .

— يجب أن تخبره لأنني لا أحب ان تخسر ذلك المال الذي وعدك به غير اني أعين اذا ذلك اليوم الذي يجب ان تخبره فيه بأنني عندك وان تبالغ بالكتمان الى ان يحين ذلك اليوم .

وعند ذلك تركه وانصرف وفي نيته ان يجد سكالابرينو ويذهب وإياه الى المغارة السوداء .

وقد ذهب الى المنزل الكائن في الميناء فلم يجدّه فقال في نفسه :

عجباً اين هو فقد مضت مدة الاجازة التي منحه إياها فما عسى ان يكون سمحت فان بمبو قد نجا وسكالابرينو غائب وقد يكون قتيلاً فلأذهب الى المغارة السوداء لأقف على الحقيقة .

وعند ذلك غير تذكره وسار فمر بقصر التياري فارتعش وانتفض انتفاض المصغور وعاودته ذكرى ليونور فاشتد به اليأس وجعل يتساجي نفسه فيقول :

- ترى اية فائدة لي من الانتقام ما زال قضى علي ان لا أرى ليونور واذا رأيتها عن بعد زادت الامي .

نعم اية فائدة بقيت لي من الانتقام ومن المجد ومن الحياة ، نعم ان الموت أفضل ممين لي على النسيان ولا بد لي من الموت اذ لا يستطيع ان أعيش بهذه الذكرى .

وقد جعل يسير دون ان يقصد جهة معينة وهذه الافكار تتنازعها فمر بببيت الجزيرة وبقصر دندولو وسار الى كل مكان له فيه ذكرى من ليونور دون أن يريد فان الحب كان يقود خطواته .

وما زال على ذلك حتى اقبل الظلام فماد الى ذلك المنزل الحقير الذي ماتت فيه أمه اذ كان ملجأه الوحيد في فينيسيا وجعل يسير فيه ذهاباً وإياباً وهو يفتكر قارة بفوسكاربي الذي ضربه تلك الضربة الشديدة وقارة بالكردينال الذي نجا منه .

وفيا هو على ذلك سمع صوت كسر الباب ثم رأى الباب قد فتح فأسرع الى إطفاء المصباح وتراجع الى جهة النافذة .

أما الجواسيس الاربعة فقد دنو منه والخناجر مجردة في أيديهم فقال له أحدهم : سلم ان أردت الحياة .

فأجابهم رولاند بضربة ابقته بعيداً عنه قدر مترين .

فهاج ثائر الجواسيس الثلاثة وهجموا هجوم المستميت على رولاند ونهض الرابع من سقوطه واندفع معهم بعامل الانتقام فابقن رولاند انهم سيقتبعونه في هذا المكان الضيق المظلم ورأى من الحكمة ان يلبث في موقفه وان يتخذ خطة الدفاع الى أن يبطش بهم الواحد تلو الآخر .

وفيا هو على ذلك اذ سمع صيحة ارتجت لها جوانب الغرفة ورأى رجلاً هائل الجثة قد انقض على هؤلاء الجواسيس انقضاض الصاعقة فالقى الرعب في قلوبهم وهجم على النافذة ففتحها ثم عاد الى أول من لقيه من الجواسيس

فجعل يديه كما يحملون الاطفال والقاء من تلك النافذة فتحطم جسمه على بلاط الشارع .

وعاد الى الآخرين وقد هلمت قلوبهم من الرعب ولم يجدوا للفرار سبيلا فجعل يلقي الواحد قلو الآخر من تلك النافذة حتى القى الأربعة .

وعند ذلك صاح رولاند قائلاً :

- سكالابرينو ؟

قال : نعم يا مولاي انا هو وقد أتيت قبل فوات الاوان كما يظهر فلنسرع الى الفرار .

فوافقه رولاند على الهرب واسرعا بالنزول من ذلك المنزل ولكنهما لم يبلغا آخر السلم حتى وجدوا الطريق غاصّة بالجنود وقد طوقت المنزل من جميع جهاته وسما صوت بمبو يلعلع في ذلك الفضاء ويقول :

- ادخلوا جميعكم واقتلوا كل من تجدونه .

فقال سكالابرينو : يا للهول .

وقال رولاند : لنخترق جموعهم .

فقال له سكالابرينو : كلا يا مولاي لنعد فاتبعنى .

اما بمبو فقد كان واقفاً عند باب المنزل ينظر النتيجة وعيناه شاخصتان الى النافذة المضيئة وفكره يتبع الجواسيس الاربعة فيقول :

- انهم صعدوا ، لقد بلغوا الدور الأول ، صعدوا ايضاً ، الآن وقفوا عند

الباب ، لقد كسروه ، دخلوا ، ان النور قد انطفأ وقد بدأوا القتال .

وقد بدأ عند ذلك قليلاً وجعل يراقب فرأى ان النافذة قد فتحت فجأة

وان جسماً قد القى منها فارتجف سروراً وقال في نفسه : لقد القوه من النافذة واسترحمت منه .

وعند ذلك جثا أمام الجسم الملقى كي يتمتع عينيه بمنظر عدوه ويقول له

كلمة تشف قبل موته .

ولكنه لم يلبث ان رآه حتى صاح صيحة رعب قائلا : انه ليس هو فما هذا الشيطان الرجيم .

وبعد هنيهة سقط رجل ثان فثالث فرابع فتيقن الكاردينال من فوز رولاند وجعل يفتف شعره من قهره ويقول :
- الويل لنا جميعاً فقد نجا هذه المرة ايضاً .

وفيما يحاول الهرب رأى طائفة من الجنود مقبلة فأسرع اليها وأخبر قائدها بحيلة الأمر فامتثل الجنود له وطوقوا المنزل .

أما رولاند وسكالابرينو فأثما عاذا الى المنزل فكان رولاند يتبع سكالابرينو وهو لا يعلم قصده فذهب به الى الغرفة الثانية التي كانت تستخدمها جوارنا للطبخ فركع قرب المستوقد وجعل يعالج باباً سرياً كان مطلياً بالطين كي لا يظهر بينما كان الجنود من الخارج يحاولون كسر الباب ورولاند واقف وقفة المتأهب للموت وبيديه غدارتين دون أن ينتبه الى سكالابرينو الذي كان يشتغل بعنف شديد .

وعند ذلك كسر الجنود الباب ودخل أشدهم جرأة فاطلق رولاند عليه النار فصرعه .

ثم دخل آخر فكان حظه حظ رفيقه وفرغت الغدارتان فجرد رولاند خنجره وقد ايقن من دنو ساعته الأخيرة .

ولكنه انتبه لصوت سكالابرينو الذي كان يقول :

- لقد فتح الممر فأسرع يا مولاي .

فدنا رولاند منه فوجد منفذاً يتسع لأكثر من انسان .

فقال سكالابرينو :

- اسرع يا مولاي بالمرور .

قال : كلا بل مر انت قبلي .

فأيقن سكالابرينو ان جداله محال وتقدمه في ذلك الممر فتنبه رولاند وجعل يسير الى الراء ووجهه المنفذ .

وعند ذلك دخل جميع الجنود ورأوا انها هربا من ذلك المنفذ فوقفوا حائرين الى ان دفعت الجرأة او الجنون احدهم الى ولوج ذلك الممر فما سار فيه بضع خطوات حتى فاجأه رولاند بضربة خنجر فخر صريعا وسدت جثته ذلك المنفذ .

فسار الإثنين آمنان في رواق طويل انتهيا منه الى سلم وبعد خمس دقائق كان الإنسان في شارع مقفر غير مأهول ، فتنبه سكالابرينو تنهيمة ارتياح وقال .

— اني فتحت هذا المنفذ منذ عشرة اعوام كي أتمكن من الفرار إذا طاردني الجنود فهل كان يخطر في بال احد ان ابن الدوج يستخدم هذا المنفذ؟ فأجابه رولاند : ذلك يدل على بعد نظرك وتحسبك للعواقب فهم بنسأ وستخبرني في الطريق عن كل ما حدث لك .

ولنعد الآن الى سكالابرينو وطريقة نجاته فلقد تركناه في اشد مواقف الخطر ولم يبق بينه وبين الموت غير لحظة كما تركنا ساندريجو وصاحب الخماره يصغيان عند باب القبو يسمعان آخر كلمة يقولها ذلك المنكود من كلمات نزعته .

أما سكالابرينو فقد كانت المياه ترفعه تباعا الى ان وصل الى آخر درجة من درجات السلم فألقى نفسه في المياه وقد عزم عزمًا أكيدا على الموت . ولكن حب الحياة تغلب عليه فصعد وجعل يسبح حول جدران القبو الى ان علقته يده بتملك النافذة التي كانت تدخل منها المياه .

وقد اشتد رجاؤه حين شعر ان تلك القضبان الحديدية تضطرب بين يديه فانها كانت قديمة العهد وقد خلخلتها المياه وتقادم الأيام .

فأسند رجله الى الجدار وجعل يشد قضبان النافذة بما أوتيته من القوة البدنية الهائلة فلم تكن غير دقيقة حتى كسر قضيباً .

وعند ذلك خرج من المنفذ الى التربة وبذل جهداً عنيفاً حتى تمكن من الصعود الى سطح المياه حتى إذا أيقن من السلامة تنفس الصعداء وذهب الى المنزل فغيّر ملابسه .

وقد روى سكالا برينو لرولانـد كل حكاية سجنه حتى إذا أتم حكايته قال له رولانـد :

— ولكن لماذا ذهبت الى خمارة مرسى الذهب وأي شأن لك فيها ؟

فسالت دمعتان من عيني سكالا برينو وروى له حكايته بالتفصيل وهما يشيان الى ان بلغا الجزيرة فدعا رولانـد من بيت ليونور وقال له سكالا برينو :
— ألم تقل لي يا مولاي ان هذا المنزل مشتبـه به ؟

قال : لقد كان كذلك أما الآن فقد انقطعوا عن مراقبته ومع ذلك وسوف نرى .

ولما وصل الى الباب طرقه فأقبل الخادم المعجوز يحمل بيده مصباحاً وقال : من الطارق ؟

فأجابه رولانـد قائلاً : أملكك نسيت جان لورنزو سيدك الجديد ؟

قال : أسألك العفو يا سيدي ثم مشى أمام سيده الى المنزل وأثار بضعة مصابيح .

وقد لاحظ رولانـد ان يدي الشيخ كانتا تضطربان وأنه كان ينظر اليه نظرات غريبة فقال له :

— كيف ذلك ألم تعرفني بعد ؟

قال : لقد عرفتلك يا سيدي من صوتك أما وجهك فما هو وجه جان لورنزو .

— هو ذاك فاني أحب ان أغير وجهي من حين الى حين .
فهز الشيخ رأسه وسكت .

فقال له رولاند : أرى انك تريد ان تقول شيئاً تخشى ان تقوله أمام هذا الصديق فقل أمامه ما تريد قوله .

فقال الشيخ : أقول يا مولاي ان وجهك اليوم غير وجهك يوم كنت تدعى لورنزو .

فضم سكالابرينو قبضته فقال له رولاند :

— اني اعرفه يا سكالابرينو منذ عهد بعيد فهو لا يخون رولاند ولا بد ان يكون هناك سبب خطير دعاه الى قول ما قاله وسيوضحه لنا .
فقال الشيخ : هو ذاك يا سيدي رولاند .

فارتعش رولاند إذ رأى ان الخادم قد عرفه وناداه فجأة باسمه وقال له : تسكلم .

قال : لقد رأيت أمس السيدة ليونور .
فأجابه رولاند بصوت أبج قائلاً :
— هل عادت الى هنا ؟

— كلا . . ولكنها دعيتني اليها في قصر التباري وهناك اخبرتني بكل شيء يا مولاي فعلمت منها حقيقة اسم جان لورنزو وعرفت كل ما عانيته من العذاب والآن فاني اعجب لنفسي كيف اني لم اعرفك للمرة الاولى .

على ان السيدة ليونور اكدت لي انك ستعود ايضاً الى هنا .
— أهـي قالت لك هذا القول ؟

— نعم يا سيدي وقد أمرتني ان أبلغ بحراستك حين تكون هنا فاعلم

يقيناً انك ستكون في مأمن في هذا البيت كما كنت يوم كنت تأتي اليه خاطباً
فاني في تلك الاعوام التي مضت وهي اعوام كوارث وانقلابات فجائية
اعدت مكاناً سرياً في هذا المنزل كي تختبئ فيه السيدة ليونور وأبوها عند
الاقتضاء ولا يعلم احد غيري الى الآن سر هذا المكان وقد اقسمت لسيدتي
ان أخبئك فيه فهل تريد يا مولاي ان تراه ؟

قال : نعم .

فسار الخادم ومشي رولاند وسكالابرينو في أثره حتى لاقوا شجرة الأرز
الكبرى وكانت شجرة عظيمة بضخامتها وقد تدلت اغصانها حتى بلغت
الارض فأزاح الخادم أحد هذه الأغصان فانكشف عن ثقب يجزع الشجرة
فأراه الخادم إياه وقال له :

— إن من ينزل من هذا الثقب يبلغ الى دائرة متسعة عمقها ثلاثة امتار
وقد أنزلت اليها أمس سريراً للنوم ومائدة وضعت عليها من الطعام ما
يكفي ثلاثة ايام .

أما هذا الثقب فلا يراه احد لتدلي الاغصان عليه وفوق ذلك فقد زرعت
حواليه نباتاً كثيراً لينمو كي يحكم سده كما ترى فلو اتفق لأحدهم ان يزيح
الاغصان لما رأى الثقب .

فقال سكالابرينو: انه خير ملاجئ وعاد الثلاثة الى المنزل ورولاند عابس
الوجه مقطب الجبين فقال له سكالابرينو :

— أتريد يا مولاي ان أرجىء بقية قصتي الى الغد ؟

قال : كلا .. بل أروها الآن فاني مصغ اليك .

قال : لقد سألتني عن السبب في ذهابي الى تلك الحجرة التي كدت اموت
في مياهاها فاعلم يا مولاي اني قبل سفرك ذهبت الى المغارة السوداء فوجدت
الأمور على أتم الانتظام وحملت اوامرك الى الزعماء ثم عدت الى قرية مستر
ففاجأني فيها مصاب لم اكن أتوقعه .

- فأجفل رولاند منذعراً وقال : أبي ؟
- قال : كلا يا مولاي فلا تخف فان أباك لا يزال هناك بحراسة جوانا .
- إذن ماذا ؟
- بيانكا يا مولاي .
- ماذا أصابها ؟
- اختطفتم .
- من الذي اختطفها ؟ أتعرفه ؟
- نعم . فقد قالت في جوانا انه ساندريجو .
- هذا اللص الذي بات عدوك ؟
- هو ذلك اللص الذي يحمّد عليك حقداً هائلاً دون شك لأنه لم يختطف بيانكا إلا بغية الانتقام منك .
- ينتقم مني باختطافها ؟
- نعم يا مولاي فربما خطر له انك تحبها .
- ولماذا هذا الحقد عليّ ؟
- لأنك قهرته وأهنته أمام رجاله .
- فأطرق رولاند مفكراً ثم قال :
- إذن ان هذا الرجل اختطف بيانكا وأبقى على أبي لينتقم مني .
- ربما خطر له ان ذلك يكون ابلغ في الإساءة .
- ولكن جوانا أين كانت ؟
- مسكينة هذه المنكودة فانك ستدهش لما اخبرك عنها فانها تحب ساندريجو من عهد طويل وكانت ترجو ان تكون امرأته ومع ذلك فقد دافعت عن بيانكا دفاع اللبوة عن اشبالها ولكنه تغلب عليها وقبضها .
- وبعد ذلك ذهب الى فينيسيا وعلمت انه في تلك الحارة وقد عرفت ما كان بيني وبينه .

— مسكينة جوانا فقد لقيت أشد العذاب .

— ولكن ليس هذا كل شيء يا مولاي فاني بعد ان نجوت من قبو الماء لم يكن يخطر لي غير خاطر واحد وهو ان أجذك فبحشت عنك في كل الأماكن التي كنا فلتقي فيها وذهبت الى مستر ولقيت أباك وجوانا ثم ذهبت الى المغارة فرأيت ان بمبو قد نجا .

— لقد عرفت ذلك .

— إذن هذه هي قصتي يجمعتها فاني عدت بعد ذلك الى فينيسيا وصبرت الى ان هجم الليل فبحشت الى المنزل ولقيت رجلا عند بابه حسبته جاسوساً فأسرعت بالصعود ووجدتك تقاتل الجواسيس وانت تعرف البقية .
وقد رأى رولاند علائم الحزن الشديد بادية في عيني سكالابرينو فأيقن ان حزنه على بلته وقال له :

— اطمئن ايها الصديق فسيكون اول ما اعمله انقاذ بيانكا غير اني استمهلك يوماً لأرى أبي وأطمئن عليه .
قال : اني اذهب وإياك إذا أذنت .
قال : إذن هلم بنا .

٤٥

نحول جوانا

لقد عرف القراء كيف ان رولاند كان له مواصلات سرية في فينيسيا يذهب ويحيي بها دون ان يراه احد .

وكان له عدا عن تلك السفينة الكبرى التي ترسو في ميناء ليدو ثلاث سفن أخرى تسع كل سفينة ثلاثمائة مقاتل فكانت تسافر بشكل منتظم

تجاري كي لا تستلقت اليها انظار الرقباء ولكنها لا تباعد ومق عادت من سفرها بما تحمله من البضائع اطالت زمن إنزال هذه البضائع جهد الطاقة وذلك كي تبقى اكثر أيامها في الميناء .

وفوق ذلك فان هذه السفن الأربع لم يكن يسافر منها غير واحدة بالمناوبة بحيث يبقى في الميناء دائماً ثلاث سفن .

وكان له ايضاً في البحيرات نحو مائة قارب من القوارب السريعة تنقله حين يشاء من البحيرات الفاصلة بين فينيسيا وبين اليابسة .

وكان له في البر كثير من المحطات للجياد وهي محطات تتصل من شاطئ البحيرات الى مغاور بيافا بحيث ان رولاند او احد رسله لو أراد البلوغ الى المغاور والمودة منها يتمكن ببضع ساعات بفضل هذه المحطات التي أنشأها .

وقد ركب رولاند وسكالابرينو احد هذه القوارب بعد ان أشار الإشارة السرية الى البحار فأطلق النوتي قاربه للريح حتى اجتاز بهما البحيرات فخرجتا الى الشاطئ وركبا جوادين وسارا الى مستر .

وهناك لقي رولاند أباه جالساً في ردهة المنزل فأسرع اليه يعانقه ويناديه بأعذب الالفاظ .

فارتعش أبوه لهذا الحنو وقال :

— من هذا الذي يعانقني هكذا ؟

قال : أنا ولدك .. ولدك رولاند .

— ولدي ؟

— وأأسفاه ألم تعرفني يا أبي من صوتي ؟

فسكت ذلك الشيخ المنكود الأعمى ولكنه جعل يبحث بيديه عن رولاند ليجذبه اليه .

فركع رولاند أمامه وقال له بصوت مخفف :

— أبي .. أبي .. ألا تذكر ولدك ؟

فوضع كانديانو يده على رأس ولده وجعل يمرها على شعره كأنه يحاول
او يري باللمس ما يراه ثم قال :
- نعم ان الرأس رأس ذكي كريم ولو كان لي ولد لتمنيت ان يكون مثلك .
- ان ولدك راعع أمامك يا أبي .

- نعم .. نعم .. لقد ذكرت فقد كان لي ولد فيما .. ولكن ربما كان
ذاك من وسوس الجنون فاني عندما اهبط بفكري الى اعماق نفسي وعندما
أبحث في قلبي عن رسوم كانت تملأه أجدها كأنها قد اختفت .

نعم فقد يخال لي اني كنت كسائر الرجال منذ عهد بعيد جداً وان
عيني كانتا تنظران بملء الارتياح والسرور الى أحبباء كنت أحبهم كما أحب
نفسي .. فمن انت ولماذا تقول انك ولدي فلو كان لي ولد لكان مات دون
شك .. كلا ليس لي ولد .

وعند ذلك رفع يده برفق عن رأس رولاند فنهض ولده وقد تنهد تنهداً
كاد يتمزق له صدره .
أما أبوه فلم يهتم إلا بتدفئة يديه على نار المستوقد .

ومع ذلك نادى جوانا وقال لها :

- جوانا أكرمي هذا الرجل النبيل الذي دفعه الجنون الى الإدعاء بأنه
ولدي فاني اذكر كما يذكر الحالم اني كنت أشير اشارة بسيطة فيمتسارع
الخدم الى اكرام ضيوفي الغرباء .. فأين هذا العهد ومتى كان ؟

فهمز رولاند رأسه وقد أيقن ان أباه لا يعود اليه صوابه ثم التفت الى
جوانا كأنه يسألها رأيها فقالت له :

- ولكنك مع ذلك لمن مرتين فوسكاري وذكر ولده .

- إذن أتظنين انه يشغى ؟

- لا أدري ولكن الصواب يعود اليه احياناً .

فمشى رولاند بضع خطوات في الغرفة ثم عاد الى جوانا وقال لها :

- أرى انه لا يمكن بقاؤه هنا ؟
فاصفر وجهه جوارانا وقالت :
- وأنا أيضاً أرى هذا الرأي .
- قولي كل ما يخطر لك يا ابنتي .
فأطرقت برأسها وقالت :
- ان الذي أتى قد يعود .
- وعند ذلك ؟
- قد ينتقم منك بأبيك كما انتقم باختطاف الفتاة .
- ولكنك تكونين بالقرب منه تدافعين عنه .
- مولاي ؟
- اني موثق من انك تضربينه الضربة القاضية إذا تجاسر على الرجوع .
- مولاي ؟
- ماذا ؟
- اني اضربه الضربة القاضية دون شك لأنني تعهدت لك على ان
أحرص على أهلك ولكني اضرب نفسي بعد ان اضربه وسل سكالابرينو
يخبرك لماذا اقول هذا القول ؟
وقد قالت هذا القول وغطت وجهها بيدها إخفاء لاضطرابها .
فتوجع رولاند وأخذ يدها بين يديه فقال :
- انك تحبين هذا الرجل يا جوارانا ألا تعلمين انه كان يريد قتل
سكالابرينو ؟
فلم تجب ولكن ظواهر اضطرابها كانت تدل على يأسها فقال لها :
- اني سأنقل أبي الى محل أمين وستكوني معه في مأمن أيضاً ، انك
بمشابة أختي وأنا احترم حبك وأتوجع لمصائبك .. ولكن دعيني أتولى أمرك
واذهبي مع أبي .
فظمبت صمحة العزيرة علي وجهها المصفر وقالت بملء السكينة :

أَسْأَلُكَ الْعَفْوِ يَا مُوَلَايَ فَإِنِّي كُنْتُ أَنْتَظِرُ عَوْدَتَكَ لِأَقُولَ لَكَ .
وهنا توقفت عن الكلام وقد تلمعتم لسانها فقال لها رولاند :
- تكلمي أيتها الأخت الحبيبة وأعلمي يقيناً أنك مهما قلت لي فإنني أبقي
مدينياً لك بالجميل الى الأبد .
قالت : اني لا أستطيع البقاء مع أهلك فاصفح عني . اذ لا بد لي ان
اذهب الى فينيسيا .
- ليسكن ما تريد فانك تذهبين اليها معي ومع سكالابرينو أي مع
أخوين يحبائك ويحترمانك ويدافعان عنك .
فهزت رأسها وقالت : كلا بل يجب ان أذهب وحدي الى فينيسيا .
فقال لها برفق : أنك تريدان الذهاب اليه لثريته أليس كذلك ؟
- كلا بل لادافع عنه .
فاجهشت بالبكاء وقالت بصوت مخنق :
- اني أؤثر الف موت على ان أنا لكما بأذى وأنا كل ما أحبه واحترمه في
هذا الوجود ولكنه حياتي التي أعيش بها وان قلبي يتحدثني بشر مصاب وانك
كبير النفس فلا شك عندي أنك صفعحت عن ساندرينو من اجلي ذلك ما
أقرأه في عينيك ولكن .
- ولكن ماذا تكلمي أيتها الأخت العزيزة .
ففسحت جواراً دموعها التي كانت تحرق عينها وقالت :
- نعم لقد تمكنت ملياً خلال هذه الايام العشرة التي مضت فرأيت ما
سيحدث كأنه قد حدث فانك تعفو عن ساندرينو اكراماً لي ولكن ساندرينو
لا يتجاوز عن حقه عليك وهذا الذي أريد ان أمنعه ولو بسفك دمي فأني
حين يخطر لي أنك ستلتقي مع ساندرينو يجمد الدم في عروقي من الرعب .
- إذن انت تريدان السفر ولا سبيل الى تغيير افكارك ؟
- كلا فلا بد من السفر .

- ليكن ما تريدن ولكن اذكري دائما ان لك اخوين لا تبرحين عن
فكرهما أتعرفين منزل جزيرة أوليفو ؟
- نعم .

- انك تجديننا هناك متى أردت وإذا لم تجديننا تجدين من يخبرنا بأمرك
أفهمت ما أقول ؟
- نعم .

- حسناً فمضى تريدن أن تسافري .

- في الحال .

- كيف ذلك الا تدعين لي وقتاً لأعد لك معدات السفر .

- لقد تأهبت لكل شيء فاستأجرت مركبة منذ ثلاثة أيام وهي تنتظرنني.
في الغد للسير بي الى البحيرات وهناك استأجر قارباً وأذهب به إلى فينيسيا
والآن استودعكما الله .

فمانق سكالابرينو جواثا وهو يتلفظ بألفاظ الغانطين وعانقها رولاند وهو
يتوجع لياسها .

وعند ذلك ذهبت الى والد رولاند فركعت أمامه وقالت :

- أنت الذي أحببته ، أفت الذي كنت تحب تلك الميتة النبيلة التي غفرت
لي ولا أزال أقدس اسمها لأنها باركتني ودعتني بنيتها ان روح هذه المرأة
الطاهرة ترف حوانا وهي تعلم يقيناً ما أكابده من عناء هذا الفراق .

فرفع الشيخ الأعمى يده على رأسها ولا ندري أكان ذلك منه اتفاقاً أم
استنار عقله في تلك اللحظة بشعاع من أشعة الصواب .

وعند ذلك نهضت وسارت مسرعة بعد ان اشارت إشارة وداع الى
رولاند وسكالابرينو .

وقد لبث الرجلان مدة واجين ساكتين الى ان تحرك الشبح حركته
استلقت انتباهه ولده والتفتت اليه .

- وفي الوقت نفسه قال سكالابرينو :
- أتأذن لي يا مولاي ان أذهب بسيدي الدوج الى المغارة السوداء .
- فهمز رولاند رأسه دون ان يحيب فقال له سكالابرينو :
- ثقي يا مولاي انه يكون هناك في مأمن من كل طارئ فان تلك الحادثة التي جرت لبمبو نهبت الزعماء فزادوا القوة والمحافظة وأنت أدرى بسهولة الدفاع في تلك المغارة .
- قال : ان أبي سينذهب الى فينيسيا .
- إلى فينيسيا ؟
- نعم فاعد لنا مركبة تنقلنا نحن الثلاثة .
- وماذا أصنع بجوادينا ؟
- دعهما في المحطة واجتهد ان يكون وصولنا في الليل .
- فأسرع سكالابرينو الى الامتثال وبعد ساعة عاد بالمركبة .
- فأخذ رولاند بيد أبيه وسار به الى المركبة دون ان يعترض ولكنه اكتفى بسؤاله قائلاً :
- إلى اين تذهبون بي ؟
- فلمعت عينا رولاند ببارق رجاء وقال :
- الى فينيسيا أفهمت ، تلك المدينة التي كنت حاكماً عليها وقمت فيها بسراري الدوج مع امرأتك سيلفا وابنتك رولاند .
- فظهرت على الشيخ عدم الاكتراث وقال :
- فينيسيا ، نعم لقد سمعتمهم يقولون عن هذه المدينة انها جميلة .
- فتأوه رولاند وقال : وأسفاه ثم ركب المركبة مع سكالابرينو بجانب أبيه وبلغوا الى فينيسيا في جنح الظلام فسار بأبيه الى بيت الجزيرة .

٤٦

أرتين

لقد تركنا بمبو عند منزل الرصيف وقد أمر الجنود بالدخول الى المنزل للقبض على رولاند وأقام ينظر تلك اللحظة السعيدة التي تحقق بها آمال حياته .

وبعد هنيئة رجع الجنود وفي مقدمتهم قائدهم فقال القائد للكاردينال :
- لقد قتل منا ثلاثة فاذا اضمناهم الى الذين سقطوا من النافذة بلـسـخ المجموع سبعة فاذا اتفق لنا بضع ليال مثل هذه الليلة اصبحنا من غير بوليس . فلم يكتزث بمبو لهذه الأقوال وقال : وهو ؟

- اذا كنت تعني به الذي دخلنا للقبض عليه فقد استحال الى دخان وهذا أحسن ما يقال عنه في هذا المقام .

- ماذا تعني ؟

- أعني أن الرجل ورفيقه ، لأنهما كانا اثنين لا واحداً ، سارا في الطريق التي يسير الدخان عادة للصعود الى السماء .

- أمربا من المستوقد ؟

- هذه هي الحقيقة .

فغضب الكاردينال غضباً شديداً ولولا حضور الجنود لشم اقبح شتم ولكنه تجلد وأمر بعض الجنود ان يفتشوا بيوت الحي بمحلمته وأمر آخرين يراقبوا المنزل ثم انصرف الى المنزل وقد ضاقت الدنيا في عينيه واشتد خوفه حتى أنه جعل يفكر في طريقة تمكنه من الفرار لشدة فزعه من رولاند فأرتأى ان يترك الدرج وفينيسيا خفية ويذهب الى رومـة فيلجأ الى البابا وهناك يكون في مأمن من رولاند .

ولكنه لم يلبث ان اقر على هذا الرأي حتى تمثلت له بيانكا فهاجت
مكامن غرامه وشغلته عن الخوف ورأى انه لا يستطيع العيش بعيداً عنها
لا سيما وقد تمثل له ايضاً ساندرينو فهاجت غيرته وزادته هياماً ، فأقام
يفتكر في خطة كان قد وضعها بشأن بيانكا فما زال يعالجها حتى استقامت
فذهب الى فراشه ونام في تلك الليلة امناً واثقاً من النجاح .

وفي صباح اليوم التالي ذهب توأ الى ارتين فخلا به وبعد حديث مختلف
سأله فجأة عن نسائه فقال له : كم يبلغ عددهن ؟

فقال : سبع نساء وأنا أرجو ان اجعلن تسعاً فمتى تكامل عندي
هذا العدد اطلقت علي كل واحدة منهن اسم عروسة من عرائس الشعر
فاسمي الواحدة كليو والثانية تربيسكور .

فقاطعه الكماردينال قائلاً : لا تكمل ذكر هذه الاسماء وافترض انك
سجتهم بفتاة جديدة .

- اذن لا يعود يعوزني غير واحدة لتتم عندي العرائس التسع .

- اصغ يا ارتين فاني أحدثك عن فتاة طاهرة كالزنبقة نفورة كالغزالة
التي لم تألف وجه الصياد .

- وهل هي حسناء ؟

- ان جمالها يخلب العقول فما رأها أحد حتى فتن بها اما أنا فلا أعلم إذا
كانت حسناء فاني ما احببت جمالها بل احببتها وقد كنت أحسب نفسي
قويًا شديدًا واني ما خلقت إلا للسيادة وسحق الشعوب ولكن هذه الفتاة
علمتني الخضوع وانستني الاطباع ومعاني السيادة وبنت اعاني في حبها عذاباً
شديداً فأصبحت في حالة تحمل على الاشفاق .

- ولكفي لا اجد في كل ذلك ما يدعو الى العذاب وانت تقول انك
تحبها وانها جميلة فلماذا تتعذب ؟

- افترض ايها الصديق ان واحدي نساءك قد اهانتك وبصقت في وجهك
فماذا تفعل ؟
- أجعلها بالسوط حتى أمزق جلدها .
- وافترض ان التي قفضلها من نساءك قالت لك انها تؤثر ان ترى
خنفساء على ان تراك فماذا تفعل ؟
- أضع لها مائة خنفساء في كيس فأزودها بها وأطلق سراحها وأبحث
عن سواها .
- أرأيت إذن كيف انك لم تحب أما أنا فاني أعد إهانتها مديحاً ولكنها
لا تقول لي انها تجديني اقبح من الضفدع ولا تحقرني بل تعاملني بأشد من
ذلك أي انها تشمئز وتنفر من نفور المرء من الرائحة الكريهة .
- إذن لم يبق عندي إلا ان تأخذها بالقوة ومتى فعلت ذلك وعاملتها
بالقسوة خافتك وذهب ذلك النفور .
- لقد حاولت ذلك فلم انجح أيها الصديق وفوق كل ذلك فان لي
مزاحماً فيها .
- هل هي تحب هذا المزاحم ؟
- لا أعلم .. ولكني لا أظن ان بيانكا تحب ساندريلو .
- أتقول بيانكا ؟
- هذا هو اسمها .
- أهى بنت امباريا ؟
- هي بنفسها فهل عرفتها ؟
- كلا ولكنني عرفت ان لامباريا فتاة تدعى بهذا الاسم ولكنك قلت لي
ان لك مزاحماً فيها ؟
- نعم وهو مزاحم لا يستطيع التخلص منه الآن لأنني لا ازال محتاجاً
اليه وقد قضي علي ان اعقد لها بيدي عقد القران .

- بماذا تحتاج الى هذا المزاحم ؟
- لأنني اعتمد عليه في القبض على رولاند كانديانو حين يأتي الى هنا .
- إذن لا يجب ان تختار بين الكره والحب ؟
- لا أريد ان اختار بينهما بل اريد كليهما واريد ان أظفر برولاند كما أظفر ببيانكا ولا عيش لي إلا إذا فزت بهذه الأمنية أمارولاند فاني معتمد في شأنه على ساندريجو .
- مزاحك ؟
- نعم .. وأما بيانكا فاني معتمد بشأنها عليك .
- انك تعلم مقدار إخلاصي لك ؟
- ذلك لا ريب فيه عندي فاسمع ما انتظره منك .
- ان زواج بيانكا وساندريجو لا بد من عقده .
- متى ؟
- لا أعلم بعد فانه منوط بساندريجو ولكن بيانكا تحتجب على أثر عقد القران .
- كيف ذلك ؟
- ذلك منوط بي فسأرضي ساندريجو كل الرضى بحيث لا يكون له من هذا الزواج غير حفلته .
- وماذا يكون من بيانكا ؟
- انها تكون ضيفتك أفهمت الآن ؟
- اني معجب بذلك يا بيبو .
- أعزمت على مساعدتي ؟
- نعم فاني أساعدك بذلك كل المساعدة .
- فارتاب الكاردينال بقوله وقال له : كيف تقول بذلك ألمعله يوجد أمور لا تستطيع مساعدتي فيها ؟

- فأسرع ارتين الى التوصل من هذه وقال له :
- ان سوء الظن من حسن الفطن ولكن مثلي مع مثلك لا يحمل على الريب
ويسوئي ان تشكك بي وأنا أوفى صديق .
- لا بأس ايها الصديق فاعذرني فاني لا اعود الى الظنون .
- اني اعذرک دون شك اذ اعلم يقيناً انك لا تندفع الى هذه الظنون الا
لاضطرابك ولنعد الآن الى ما كنا فيه فقد قلت لي افي اقبض خمسة الاف
ريال يوم تدخل بمانكا الى منزلي .
- ليكن ما تريد ولكن صداقتك هذه المرة ستكلفني كثيراً .
- لا يحق لك الشكوى فاني لا اقبض من خزيفتك بل من خزينة
الجمهورية فقل لي الان ما تريد .
- أريد ان تضيف بمانكا عندك وان تعرفها بنسائك كأنها واحدة منهم
- ان الغيرة تدفعهم الى البكاء ولا أطيق بكاء النساء .
- ولكنك تعرف طريقة تخفيف الدموع .
- حسناً فماذا تريد بعد هذا ؟
- أريد انه متى باقت الفتاة عندك ان تتعهد لي بأن لا يراها غير نسائك .
- أتعهد .
- هذا هو القسم الاول من مشروعي وهو سهل كما تراه وقد بقي الثاني
فقل لي الديك امرأة بين نسائك موصوفة بالذكاء والدهاء .
- اذا كان الدهاء من الذكاء فكلهن ذكيات .
- اتحسب انهن يستطعن اغواء فتاة نقية وتغيير اخلاقها ؟
- ذلك لا ريب فيه فلا يضي شهر حتى يغيرن اخلاق التي تحبها .
- ليس هذا كل الذي اريده .
- ولكنك شديد الظلم بصداقتك .
- لا بأس فسندظر في حساب صداقتك وظلمي فاذا رجعت كفة ظلمي

- وضعت اثقال الذهب في كفة الصداقة الى ان تتساوى الكفتان .
- أنه خير قول خيالي لا ينطق به غير الشعراء .
- بل انه قول ذهبي ولذلك اعجبك فقل لي الآن ألم تضجر من اقامتك في فينيسيا ؟
- كيف اضجر من هذه البلد ، بلد الحب والفنون ؟
- أما انا فاني اضجر .
- اذن سافر ؟
- هذا ما نويت عليه ولكني اذا سافرت وحدي اشتد ضجري .
- يظهر انك تريد ان أصحبك .
- لقد فهمت قصدي .
- وانا مستعد لصحبتك .
- ولكنك لا تستطيع الاعتماد عن نسائك .
- ألم افارقن حين ذهبت الى الشيطان الأكبر وما فعلته من قبل أفعله اليوم .
- ولكن هذه المرة يجب ان تسافر مع نسائك .
- أي انك تريد إخراج بيانكا من فينيسيا وان لا يعلم أحد بأمرها ما زالت مع نسائي .
- هو ذاك .
- الى اين تريد ان اذهب بها ؟
- سأعين لك المكان حين الاقتضاء والآن فلنلخص اتفاقنا فانك قبضت الف ريال وستقبض اربعة الاف فتكون الجملة خمسة .
- إنك بارع بالحساب .
- وهذه القيمة مقابل اقامة بيانكا عندك عشرة ايام ، اي ان غذاء هذه الفتاة يكلف خمسمائة ريال في اليوم .

- وتعلميها ؟
- لقد أصبت وقد بقي لك عندي خمسة الاف ريال تقبضها خارج فينيسيا .
- هو ذاك .
- إذن لقد رضيت بجميع اقتراحاتي ؟
- دون شك الست صديقك المخلص ؟
- وعند ذلك افترق الصديقان فذهب بمبو الى منزله فوجد ساندريجو ينتظره فقابله ضاحكا ودخل به الى غرفة اعماله فقال له :
- اعينني يوم القران ايها القائد العزيز ؟
- فنظر ساندريجو اليه محققا وقال له : ذلك منوط بك .
- فاصفر وجه الكاردينال اذ خشي ان يكون عرف شيء عن مقاصده وقال له :
- كيف يكون أمر زواجك منوط بي ؟
- قال : اني خرجت الآن من منزل امباريا وقد الحمت عليها ان تعين يوم الزواج فأجابته قائلة :
- « اذهب واستشر الكاردينال بمبو قبل ان تأتي على أمر نهائي » .
- فأتيت اليك وها انا قد نقلت لك اقوالها فلا حاجة الى تذكرك بمعهودك - كلا فاني لا انسأها .
- لا شك عندي بأنك لا تنسي ما حييت بأنك مدين لي بالحياة ولكني خلقت يا سيدي ضعيف الثقة بالامتنان وعهدي ان من يصنع جميلا لا يجب ان يكتفي عنه بالامتنان لان الامتنان مجاني ولا شيء يؤخذ مجانا في هذا الوجود ولذلك ارجوك ان تعين يوم الزفاف .
- فأجابه الكاردينال دون تردد قائلا :
- ذلك سهل ما زال قد أنيط بي فاني أجعله في اقرب حين .

- انه كلام معقول ولكني لم افهم معنى « في اقرب حين » فكأنك لم تعين موعداً .
- إذن إسمح لي بدوري ان اذكرك بعهدك ؟
- تفضل .
- إنك أقسمت بأن تأتينا بولاند كانديانو ميتاً أو حياً .
- وسأبر بقسمي فاعطوني بيانك اعطيك رولاند بعد اسبوعين من حفلة الزواج فاني سأجيشكم به مغلول اليدين والرجلين الا إذا اضطررت الى قتله وفي هذه الحالة آتيكم برأسه .
- فقال له الكاردينال ببطء :
- أتأتينا برأسه بعد اسبوعين ؟
- اني ما تعودت ان احثت بيمين .
- الاتخاف ان يحول حائل دون انفاذ هذا القصد ؟
- فابتسم ساريجو ابتسام استخفاف وقال :
- لا يوجد مانع في الوجود يحول بيني وبين هذا الرجل .
- ولكن العاقل يحسب لهذا الأمر الف حساب .
- قلت لك انه يجب حساب كل شيء حتى موت خطيبتك .
- ولو ماتت خطيبتي فان ذلك لا يمنعني عن الوفاء بتعهدي .
- لقد وثقت الآن بكلامك واننا سنظفر بولاند بعد اسبوعين ولذلك فقد بات من فائدتنا ان نعمل عقد قرانك ونحن الآن في يوم الثلاثاء فهل تريد ان يكون يوم السبت .
- ان هذا اليوم يوافقي وأنا اعتمد عليك إذن باقناع امباريا فقد خيل لي انها لا تزال تتردد .
- ذلك منوط بي فاطمئن .
- ويجب ايضاً اقناع بيانكا .

- ولكني لا اعرفها .
 - أحق ما تقول ؟
 - نعم فاني لا استطيع ان اتولى هذه المهمة .
 - لا بأس فلا تهتم اذن الا بالايام وبان يكون الموعد يوم السبت .
 وعند ذلك افترقا فلما بقي الكاردينال وحده ظهر الاضطراب على وجهه وقال في نفسه .
 اني لم التقي في المغاور السوداء ما لقيت هذه الساعة من العذاب فاعطني ايها اللص الشقي رولاند وانا اتكفل بان اضع القبود في عنقك والقبك في تلك الآبار . انت تكون زوج بيانكا ؟
 وهنا ضحك ضحكا هائلا وهاج ثأره فلم تعد اليه سكينته الا بعد ساعة فذهب الى امباريا وقال لها :
 اننا سنزوج يوم السبت صديقنا ساندريجو ببنتك بيانكا .
 فاصفر وجه المحظية وقالت : يوم السبت ؟
 قال : نعم وهنا يجب علينا ان نقنع بملك بالرضى بهذا الزواج .
 - نعم :
 - ان بيانكا لي وانت لساندريجو اليس هذا اتفاقنا ؟
 ف اشارت برأسها إشارة الموافقة فقال لها :
 - لا تقلقي لشيء فان الحفلة تكون يوم السبت إذا تمكنت من اقناع بملك ولا بد من اقناعها .
 ولكن بعد الحفلة تذهب بيانكا في طريق وساندريجو في طريق آخر .
 اما أمر بيانكا فهو منوط بي وأما ساندريجو فهو منوط بك فتدبري .
 وعند ذلك تركها وانصرف وهي لا تعي لفرط اضطرابها .

- ٤٧ -

دهاليز سانت موك

في ذلك الزمن كان رئيس بوليس فينيسيا يدعي جينارو وهو في الاربعين من عمره اسمر الوجه رشيق الحركات كثير المطامع شأن معظم الموظفين في الجمهورية التي كان قومها يتنازعون السلطة فيها كل يوم .

فكان جينارو يطمع بمنصب دندولو كما كان التياري يطمع بمنصب فوسكاري وكما كان فوسكاري يطمع بتحويل تاجه اللوقي الى تاج ملكي . وكان متولياً زعامة البوليسين الظاهر والسري ولم يكن فوق يده غير يد دندولو وفي ذلك ما يدل على خطورة المنصب الذي كان يتولاه .

وفوق ذلك فقد كان له لذة عظيمة بمهنته فلم يؤثر عنه انه مال الى سواها أو مال مع اهواء الشبيبة فلم يكن له حليمة أو خليمة ولم يولم وليمة ولم ينزله مع أحد فكانت زهته انه يتنكر قارة بلباس البحارة ويطوف في المدينة ويجتمع بمشاهير اهل الشر كصاحب خمارة مرسى الذهب وأمثاله فيقف منهم على كل ما يجري في المدينة بحيث لا يفوته شيء من خفاياها .

وكان من عادته ان يقول ان أخص ما يجب ان يبني في المدن الكبرى السجون وكان يخطر له ان يبني سجنًا هائلًا يسع كل المدينة وان يؤلف هيئة لا يكون فيها غير فريق من الوطنيين فيكون قسم مسجونين وقسم سجانين .

ففي اليوم التالي لذلك اليوم الذي رأينا فيه بمبو سار من عند ارتين الى ساندريجو ومن ساندريجو الى امباريا كان جينارو رئيس البوليس واقفاً أمام مرآته يصلح شعره وهو يناجي نفسه فيقول :

- ان دندولو خلق ليكون رئيساً لديوان التفتيش كما خلقت انا لأكون ملكا لاسبانيا وهو فوق جملة أمور هذا المنصب الكبير الذي يتولاه قد عهد الي بكل أمر وتواري عن الانظار بحجة اعتنائه بصهره الجريح .

ولكن من الذي جرح التياري .. وفي كل حال فقد اتصل بي ان دندولو يحاول الاستقالة ومن عسى يتولى منصبه الخطير الاي .. نعم سأتولى منصبه ولماذا لا أقولاه الأني لست من النبلاء .. هوذا بمبر وهوذا فوسكارري نفسه فانهما كانا من عوام الناس .. نعم ان الفرصة دانية ولا بد لي من اغتنامها .

والآن فلأشرب كأس خمر فان ما سأفعله يحتاج الى قوة .

وعند ذلك شرب كأس خمر اسبانية وعاد الى مناجاة نفسه فقال :

- اني لو لقيت الدوج لقات له انك يا مولاي في حالة كئيبة وانك والجمهورية في أشد خطر فلو استشرتني في أمرك لما وصلت الى ما وصلت اليه الآن ولما أشرت عليك ان تشمل عيني الدوج كانديانو وتسجن ابنه بل اشرت عليك ان يكون العقاب العكس فكان الحزن قتل الاب وكنت أمنت شر الولد .

والآن فانك لو دخلت الى الخمارات وطفقت بالمعارة او جلست في الشوارع العامة لما سمعت غير حديث الأعجاب برولاند كانديانو ذلك عدا من تلك المعصبات الهائلة التي يتهددك بها في كل حين فاذا جئتكم بهذا العدو اللدود يا مولاي الدوج اتجملني رئيساً لديوان التفتيش ؟

هذا ما يجب ان احدث به الدوج حين اظفر برولاند فلأبدأ الآن بالبحث عنه .

ولا شك ان رولاند من أهل الحيلة والدهاء ولكنني اشد منه دهاء فاني اعرف عنه ما لا يعرفه عن نفسه فهو يعتقد انه لا يحب ليونور وانا أرى الحب ماثلا في جميع حركاته واعماله وهو يعتقد انه لن يعود الى منزل

الجزيرة وأنا واثق من انه لا بد ان يعود اليه نعم فانه يشبه العصفور يدرج الى عشه فليذهب الى العش بل الى هذا القفص .

وقد خرج عند ذلك من منزله وهو مطمئن فتفقد خمارتين الى ان انتهى الى خمارة مرسى الذهب .

أما صاحب الخمارة فقد عرفه بالرغم عن تنكره فأنحى أمامه بله الاحترام فقال له رئيس البوليس .

— ما لديك من الاخبار يا برتولو ؟

قال : لدي خبر خطير يا سيدي .

— ما هو هذا الخبر ؟

— هو ان سكان الابرينو الهائل ، يد رولاند اليمنى ، قد مات .

فهرقت غينا الرئيس بأشعة الفرح وقال : إذا كنت صادقاً فيا تقول

يا برتولو كافأتك بعشرة دنانير ولكن هل انت واثق مما تقول ؟

— دون شك فانا الذي قتلته .

— أنت ؟

— نعم فقد جاء الى الخمارة فما زلت اسقيه حتى نام الى الأبد .

— إذن مر بي غداً لتقبض مكافأتك .

— ليس هذا كل اخباري يا سيدي فقد بقي ساندريجو .

— لا تحدثني بعد الآن عن هذا الرجل اذ لم يبق فائدة من البحث

في شأنه .

— لماذا عليكم قبضتم عليه ؟

— كلا بل لأن الحكومة استخدمته .

وقد تركه الرئيس منذهلاً وهو يقول في نفسه .

لقد قتل سكان الابرينو فلا بد لي بعد ذلك من القبض على رولاند .

وما زال يسير حتى وصل الى بيت الجزيرة فتسلق جدار الحديقة والقى
بنفسه اليها .

وهناك وقف هنيئة يتمعن ويقول :

لا بد من واحد من امرين وهما إما ان يكون رولاند هنا فأسرع وأعد
بعشرين رجلاً يقبضون عليه ميتاً أو حياً أو لا يكون هنا فأجد الخادم
المعجوز فاني احاول التعرف بهذا الابله من عهد بعيد فقد أقف منه على كثير
من الأمور .

وعند ذلك تقدم في الحديقة حتى وصل الى المنزل فرأى الأنوار كثيرة
فيه ولكنه لم يستطع أن يرى أحداً .

فدنا من النافذة فوقف تحتها وسمع صوت رجل يقول :

— أقيم الليلة هنا يا مولاي ؟

فأجابه آخر قائلاً : نعم يا فيليب فاني محتاج الى ليلة رابعة وعساي
ان أجدها في هذا المكان .

فايقن رئيس البوليس ان الصوت الأول صوت الخادم وان الصوت الثاني
صوت رولاند .

وقد كاد فؤاده يطير سروراً لاعتقاده الراسخ انه سوف يقبض عليه
فتراجع يمشي الهويناً ويختبيء بين الاشجار كي لا يراه احد حتى إذا وصل الى
سور الحديقة حاول ان يتسلقه .

وعند ذلك شعر ان يداً من حديد قد قبضت عليه فحاول ان يجرد
سكينه وشعر ان بدأ غلت يده وأفه لا يستطيع الفرار .

كان جينارو مشهوراً بشبهات الجاس فلم يدع هذه الحادثة وقال لذلك
الرجل الذي كان قابضاً عليه .

اني أعطيك الف ريال اذا اطلقتني .

فكان جواب الرجل ان حمله بين يديه كما يحملون الاطفال وعاد به الى المنزل .

فلما رأى الرئيس ذلك الرجل على نور الصباح دهش دهشاً شديداً دون ان يندعر وقال من أرى .. سكالابرينو !

ثم أجال نظره في الغرفة فرأى رولاند وفيليب والتفت الى سكالابرينو وقال له :

اهنئك بيديك فانها تشبهان الكلايب .

ونظر رولاند الى سكالابرينو نظرة السائل فأجابه قائلاً :

أن الأمر بسيط وذلك اني كنت عائداً من المدينة فرأيت رجلاً يتسلق سور الحديقة فتسلقت السور في أثره وقفوت خطواته وقبضت عليه وهو يحاول الرجوع من حيث أتى .

فقال له رئيس البوليس وقد نظر اليه نظرة اعجاب ، احق ما تقول ؟

— كيف أكون كاذباً وانت الآن هنا ؟

— اذن اهنئك بهراعتك فما كنت احسب انه يوجد من يستطيع اقتفاء

أثري دون أن اشعر به .

وعند ذلك التفت اليه رولاند وقال له : من انت ؟

قال : بحار فقير يلجأ الى مروءتك فانك تستطيع يا سيدي ان تسلمني

الى الجنود فاسجن وقد اقيم في سجن خمسة اعوام لا أرى في خلالها النور .

— ماذا أتيت تعمل هنا . كن صادقاً في قوالك فلا أسلمك الى الشرطة .

فقال الرئيس في نفسه :

— لقد نجوت بحمد الله فان الأمر سينتهي بيننا انسه ينعم علي ببعض

درهمات اشفاقاً علي ويطلق سراحي فاعود اليه بعد نصف ساعة المكافأة .

وعند ذلك أطرق برأسه مستحيماً كأنه يخجل ان يعترف بزلته .

فقال له رولاند .

- تكلم وقل الحقيقة .
- قال : اني أخجل يا سيدي من الاعتراف بهذه الحقيقة ولكنك وعدتني انك لا تسلمني الى الشرطة .
- وأنا موف بوعدي إلا إذا كذبت فتمعن قبل الاعتراف إذا شئت لأني لا أطلق سراحك إلا بشرط الصدق .
- الحقيقة يا سيدي اني فقير وان اعمالي لا تجري على ما أريد منذ عهد طويل .
- أنت بحار ؟
- إني بحار بالظاهر يا سيدي وما هذه الملابس التي لبسها إلا ملابس تذكر فاني لا أمتن مهنة البحارة فأجتاز الترة بالعابرين وأنا أغني وأنشد وأنشد الأشعار كلا يا سيدي فان هذه المهنة مهنة أهل الكسل .
- إذن ما هي مهنتك ؟
- هي ان أتسرب في ظلمات الليل الى المنازل التي لا يحيدون حراستها وان اتفقدوها دون ان يشعر بي أحد ثم اعود منها بما يتيسر سرقة بملء الاحترام .
- وإني لا أزور غير المنازل الكبيرة ولا أمرق عادة غير ما خف حمله وغلا ثمنه وذلك لأني شديد الإعجاب بالمجوهرات .
- أي انك تحترف مهنة اللصوصية ؟
- هو ذاك وأأسفاه فان المرء خلق ليعمل وإنما يعيش الفقى كما يضر وينفع ولما كانت أشغالي لا تسير على محور النجاح كما ذكرت لك ولم يكن لي درهم أقتات به خرجت الليلة هائماً على وجهي واليأس ملء قلبي حتى وصلت الى هذا المنزل فدخلت الى حديقته ودنوت منه فسمعت أصواتاً ورأيت نوراً فرجعت قانطاً على ان أعود اليه في الغد فقبض عليّ هذا الرجل وهذه حكايتي .

وكان رولاند يصغي الى حديثه كل الإصغاء وعند ذلك سمع في الحديقة صوت صفير فارتعش رولاند وسكالابرينو وتنبيه جينارو .

فنهض رولاند وقال لسكالابرينو : احرص على هذا الرجل كل الحرص وبالغ في إكرامه فانه السيد جينارو رئيس بوليس فينيسيا وقد أراد ان يشرفك الليلة بزيارته .

ثم خرج من تلك الغرفة وقد ترك جينارو فيها مصعوقاً من هذه المفاجأة . وقد سار توأ الى الأرزة الكبرى وهناك صفر مثل الصفير الذي سمعه فظهر له في الحال رجل وقال له :

— مولاي ان الأمر يجري في هذه الليلة .

— أتقدر ان تذهب بنسا ؟

— نعم.. دون خطر .

— حسناً فانتظرنى هنا .

ثم عاد الى المنزل فقال لرئيس البوليس :

— انك يا مسيو جينارو أسيري .

فأيقن الرئيس انه لا سبيل له الى المفرد وسكت .

فقال له رولاند :

— نعم انك أسيري وسأعاملك كما كنت تعاملني إذا اتفق لك ان تأسرنى .

قال : لا سبيل بعد ذلك الى الإنكار فأنا هو حقيقة رئيس البوليس

ولكنني اقتصر على سؤالك عن هذه المعاملة التي تريد ان تعاملني بها .

قال : ماذا كنت تصنع بي لو كنت أسرتني .

— كنت أسلمك الى الحكومة وهنا تنتهي مهمتي .

— وماذا كانت تصنع بي المحكمة ؟

— إنها تسلمك الى الجلاد .

— وماذا يصنع الجلاد ؟

— يقطع رأسك إلا إذا أرادوا الاكتفاء بشمل عينيك بل أزيد على ذلك
انهم كانوا يحاكمونك ويمكرون عليك في هذه الليلة نفسها ولا يصبرون
الى الغد .

وقد قال الرئيس هذه الأقوال لاعتقاده انه يؤثر بها تأثيراً حسناً على
رولاند ولكنه حدث في وجه رولاند فلم ير شيئاً من علائم التأثر فقال في
نفسه : لقد قضي عليّ ولم يبق سبيل الى الرجاء .
فقال له رولاند :

— انك أتيت تهاجمني في منزلي يا جينارو دون ان أسئ اليك بشيء .
— ولكن واجباتي تقضي عليّ بذلك يا سيدي وقد أردت إنقاذ الجمهورية .
— بل قل انك أردت ان تقدم رأسي الى مجلس العشرة بإحدى يديك
وتلتمس بالشأن المكافحة عن هذه الخدمة اليس كذلك ؟
قال : هو ذاك يا سيدي فلم يدفعني الى مهاجمتك غير الطمع .
فبرقت عينا رولاند ببارق سرور وقال :

— إذن قد هاجمتني فغلبتك وكنت تريد ان تسلمني الى محكمة فينيسيا
فأنا أسلمك الى محكمة الجبل فتحكم عليك بنفس العدالة التي تحكم عليّ بها
محكمة .

— محكمة الجبل يا سيدي إذن قل لي بصراحة انك تريد قتلي .
— ذلك منوط بالحكمة لا بي .
وعند ذلك سمع رولاند قرعاً على الباب بشكل خاص فقال للطارق :
ادخل .

فدخل ذلك الرجل الذي لقيه رولاند عند الارزة وقال له : لقد أوف
الوقت يا مولاي .

— حسناً فلنذهب .
وقد أشار إشارة الى رئيس البوليس وانصرف دون ان يهتم لأسيره .

فنهض سكالابرينو الى الرئيس فتأبط ذراعه وجرد باليد الثانية خنجره وهو يقول :

— إن كلمة واحدة تبدو منك تدعوني الى معاقبتك فلا توقفني في مواقف الجلادين .

قال : إطمئن فلا أقول شيئاً .

وسار هذا الموكب الصغير يتقدمه رولاند والأسير بين حارسيه وهما سكالابرينو وذلك الرجل الى ان بلغوا الشاطئ .

وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة وقد اطفئت أنوار التربة ولم يبق غير نور واحد كان يضيء في قارب .

فشى رولاند الى ذلك القارب وصفر نفس الصغير الذي صفره في الحقيقة عند الارزة فخرج له في الحال رجل وقال له وقبعتك في يده :

— الى أين يريد مولاي ان يذهب ؟

فنزل الى القارب وقال : الى سانت مارك .

ثم نزل رئيس البوليس يحيط به الرجلان وسار بهم القارب فوقف بعد نصف ساعة عند سانت مارك .

وهنا نزل جميعهم فقال الرئيس في نفسه : الى أين يذهبون بي ؟

وقد سرى الرعب الى قلبه فقد كان يتوهم في البدء انهم سيخرجون به فينيسيا وينقلونه الى الجبل ولكن أنزلوه عند سانت مارك فماذا يريدون ان يصنعوه به .

ومسا زالوا يسرون به حتى وقفوا عند احد أبواب تلك الكنيسة وبعد هنيهة كان داخل الكنيسة وهي مضاءة بنور ضعيف .

فقال الرجل الذي يرافقهم : اسرعوا قبل فوات الوقت .

ثم تقدمهم فدخل من وراء الهيكل في باب ونزل منه على سلم وهم يتبعونه حتى اجتازوا ثلاثين درجة .

وهناك ساد الظلام فأثار الرجل مصباحاً ورأى رئيس البوليس انه في إحدى مغاور تلك الكنيسة وهي مغارة متسعة بنيت فيها القبور .

فذهب الرجل الى أحد هذه القبور وفتحه بلولب خفي فدخل رولاند قبل الجميع وقبعه رئيس البوليس وسكالابرينو وذلك الرجل فلما دخلوا جميعهم أقفل الباب من ورائهم .

وهناك رأوا نافذة تطل من ذلك القبر على قاعة رحيبة يستطيع الناظر أن يرى كل ما يجري في تلك القاعة ويسمع كل ما يقال من الحديث دون أن يراه احد .

فالتفت رولاند عند ذلك الى رئيس البوليس وقال له :
- انظر واسمع ولكن حذار ان تفوه بكلمة أو تكون من الهالكين .
وقد وقف سكالابرينو فوق رأسه والخنجر مجرد بيده .

وعند ذلك اطفئ النور الذي كان ينير القبر وأخفي ذلك الذي جاء برولاند .

وفي تلك اللحظة دقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل فكانت دقائقها في ذلك السكون تشبه اجراس الكنائس في ساعات الموت فلم تكد تدق الدقيقة الثانية عشرة حتى اشرقت القاعة فجأة بالانوار .
فهمس دولاند باذن الرئيس قائلاً : انظر جيداً .

فالصق الرئيس وجهه بنافذة القبر وقد دهش لما رآه حتى أنه نسي موقفه فقد رأى اثني عشر رجلاً ظهوروا في تلك القاعة وهم يحملون المشاعل واصطفوا حول القاعة ولبت كل منهم واقفاً قرب مشعله وفي وسط القاعة مصطبة كبيرة لم يكن عليها احد ولكن كان عليها كراسي وبعد هنيئة جعل الناس يتواردون الى تلك القاعة وكلهم مبرقعو الوجوه فكان كل قادم يقف أمام واحد من حملة المشاعل حتى بلغ عدد الوقوف حول كل مشعل اثني عشر رجلاً .

فعلهم جينارو ان حملة المشاعل هم رؤساء تلك العصابة .
وقد جلس أربعة على كراسي المصطبة فقال رئيس البوليس في نفسه .

- ترى من عسى ان يكون هؤلاء المجتمعون المتنكرون وماذا يريدون
أعلمهم اجتماعوا لمحاكمتي .. أهذه هي محكمة الجبال الهائلة ، ولكن كلا ان
ذلك لا يمكن ان يكون لأنهم لو كانوا يريدون محاكمتي لوجب ان يكون
رولاند معهم وهو يجاني فمن هم وماذا يريدون ؟
وعند ذلك وقف أحد الرجال الأربعة الذين كانوا جالسين على المصطبة
فانتزع برقعته والقاه الى الأرض .

فدعر الرئيس ذعراً عظيماً فان هذا الرجل الذي اظهر وجهه والذي
يظهر أنه رئيس هذه الجمعية السرية كان قائد جيش فينيسيا العام ، أي
التياري .

اما التياري فانه وقف وخاطب الحاضرين قائلاً :

- ايها الاخوان تفضلوا وانزعوا براقعكم حسب عاداتنا في كل اجتماع كي
ذأمن الخيانة ونثق انه لا يوجد بيننا رجل غريب .
فنزع الجميع براقعهم وبرزت الوجوه فجعل كل منهم يحمي الرفاق بكلمة
أو بابتسامة أو إشارة ثم ساد السكوت .

أما رئيس البوليس فقد كان دهشه لا يوصف فجعل ينظر الى جميع أولئك
المحتشدين فعرف معظمهم وكان كثيرون منهم في حاشية الدوج ومنهم من
كبار الضباط وبعضهم من ضباط الإسطول وآخرون من النبلاء فقال
في نفسه :

- ترى ماذا يريدون من هذا الاجتماع السري بل لماذا رولاند الذي كان
يستطيع ان يقتله جاء به الى هذا الاجتماع وأوقفه في مواقف يرى فيه أولئك
الناس دون ان يروه .

أما التياري فانه مضى في حديثه فقال :

- ايها الاخوان أرى أن عددنا قد تم وقد عرفتم جميعكم ان ساعة العمل دنت فاشكركم لحضوركم والتفافكم حولي .

وكان يتكلم بلهجة السيادة ولم يكن بين الحاضرين من يخطر له ان ينازعه تلك السيادة فقد كانت علائم الامتثال بادية على الجميع .
فقال التياري :

- نعم لقد تم عددنا ولا ينقصنا غير واحد وهو دندولو .
فظهرت علائم القلق على جميع الوجوه بحيث استدل رئيس البوليس ان غياب دندولو يتوقف عليه أمر خطير .

ورأى التياري انهم يتوقعون منه ان يخبرهم باسباب هذا الغياب فقال :
- ان حمل يدي في عنقي ايها الرفاق يدلكم على اني كنت جريحاً وذلك أني اضطررت الى المباراة مع دندولو بسبب مسألتنا الكبرى لما ترددت هنيئة عن تجريد حسامي في وجه والد امرأتي وهو شبه أبي ولكنني اعترف ان يدي اضطربت وذلك طبيعى خلافاً له فان يده لم تضطرب وأصاب بحسامه زوج ابنته .

أما السبب في هذه المباراة فهو ان دندولو اخبرني فجأة انه لا يريد الانخراط في سلكتنا وأنه تمعن في الأمر فرأى بعد التفكير ان الحكمة وصالح الجمهورية يفضيان ببقاء فوسكارى رئيساً وان المصلحة العامة تقضي بان لا يحدث تغيير على الاطلاق فاضطررت الى مبارزته .

فارتفعت الاصوات وقال كثيرون :

- من يضمن لنا انه لا يخوننا ؟

فابتسم التياري وقال :

- لقد حملته على ان يقسم على ان لا يبوح بكلمة مما يعرفه بل فعلت خيراً من ذلك فقد أكرهته على الاقامة في قصري ووضعت عليه الرقباء واليوم اكرهته على الاستقالة من منصبه بحيث لم يبق لدينا ما نخشاه .

فصعد عند ذلك رجل الى المصطبة واضطرب الرئيس حين رآه إذ عرف أنه اميرال الاسطول .

أما الأميرال فانه التفت الى الجمهور وقال :

— سادتي وإخواني .

ان ما أراذ عمله رقيقنا العزيز ورئيس جمهوريتنا في المستقبل لا يستطيع ان يعمل سواه .

ويسؤني جداً ، ان اتبين هذا الضعف من دندولو ولكني على ثقة انه لا يخون أرى انه لا بد من قتله حرصاً على شرفنا وسلامتنا ومستقبل مشرونا .

فصاح الجميع قائلين :

فقال الأميرال : هو ذاك ويجب ان نقر على ذلك منذ الليلة فاسمعوا ما اقترحه .

اني اقترح على ان نقترب على ثلاثة منا وهؤلاء الثلاثة الذين تصيهم القرعة يذهبون الى قصر التياري حيث يقيم دندولو فيقترون عليه مبارزة شريفة فاذا لم يقبل بها طعنوه طعنة خنجر تكون القاضيه وإذا قبل بارزه الثلاثة كل بدوره حتى يقتله واحد منهم .

فوافق الاكثرون على هذا الاقتراح ونزل الاميرال عن المصطبة .

أما التياري فقد قطب حاجبيه وقد علم القراء كيف ان دندولو كان مقبياً في قصر التياري لم يصدق بكل ما رواه إلا بأمر واحد وهو استقالة عمه للانصراف الى العناية بليونور فماذا يصنع متى ذهب هؤلاء المؤتمرون الى منزله وماذا يكون من ليونور متى علمت مقاصدهم واسترسلت الى اليأس .

ولذلك استرعى الجمهور السمع وقال :

— ايها السادة الاخوان اني لا اوافق على اقتراح الاميرال فلو قتل

دندولو في منزلي فكيف اوضح هذه الحادثة ؟

علي اني اؤكد لكم ان والد امرأتى مقيم في منزلي واني مبالغ في مراقبته
فاذا قتلناه الآن اثرنا الظنون فيحدث الناس بما يكون وبما لا يكون .

على انا اذا صبرنا الى اليوم التالي لفورنا لا نخاف دندولو سواء كان ميتاً
او حياً ولذلك اسألكم ان تعتمدوا علي بكل ما يتعلق برئيس ديوان التفتيش
فأنا المسؤول عنه .

وكان التياري يتكلم والاضطراب ظاهر في لهجته فحمل الجميع اضطرابه
على يحمل النسب وفوق ذلك فقد كان بالتياري ثقة لا حد لها وما زال قد
تعهد بعمه وتحمل تبعته فلا سبيل الى مقاومته .

ولذلك وافقوا جميعهم على اقتراحه حتى الاميرال نفسه وكان من الذين
خضعوا باضطرابه ايضاً رئيس البوليس فقال في نفسه :

- اني لم اكن أعهد بأن التياري يحب عمه الى هذا الحد بل كنت أحسب
ان الأمر على عكس ما رأيت ولكن فلا سمح .
وعند ذلك قال التياري :

- ليقدم الآن الزعماء تقاريرهم .
فرأى رئيس البوليس ان الاثني عشر مؤتمراً الذين جاءوا في البدء بمشاعلمهم
قد تقدموا من التياري واعطوه اوراقاً مختلفة .

فأخذ التياري الاوراق وجعل يقرأها مع ثلاثة كانوا بالقرب منه .
حتى إذا اتم تلاوتها ذهب الى أحد القبور ففتحه ووضع فيه تلك
الأوراق .

فارتعش الرئيس شروراً ونسي ان رولاند وسكالابرينو واقفان وراءه .
وعند ذلك خلا التياري باثني عشر رجلاً من الحاضرين وجعلوا يتداولون
خدمات المداولة ساعة .

وبعد ذلك عاد المتداولون الى مواقعهم امام المشاعر وساد السكون
الرهييب هنيهة فانهم سيسمعون القرار النهائي .

وقد صعد التباري الى موقفه الأول وقال بصوت جهوري :
« أيها الاخوان »

ان جرميتنا مؤلفة من النبلاء وقواد البر والبحر ومن كل من يتولى منصبة
عالياً في فينيسيا ار كان ذا وجاهة فيها .

أما عامة الشعب فلا نعتد بهم إذ ليس بينهم من يجب فوسكاري
وسينظرون بحملتهم الى سقوطه بغير اكتراث .

ونحن متفقون على المناصب التي يتولاها كل منكم في الحكومة الجديدة فلا
حاجة الى البحث في هذا الموضوع .

ولكني أقسم أمامكم أيها الاخوان وأمام ارواح اولئك الموتى التي ترفرف
حولنا وأمام الله الحاضر في هذا الهيكل اني لا أدخل بحرف من الشروط التي
عاهدتكم عليها واني امنح كلا منكم ما وعدته به في اول يوم من فوزنا .

والآن فاعلموا انكم جميعكم قد اقسمتم لي ايضاً بين الوفاء والاخلاص .
فرفعوا جميعهم أيديهم وقالوا بصوت واحد :
— إننا نحدد اليمين .

فقال التباري :

— إذن فاعلموا اننا متأهبون وقد اعددنا كل ما ينبغي من الوسائل وكل
منكم يعرف موقفه وما يجب ان يفعل بحيث لم يبق علينا إلا تعيين اليوم الذي
يجب ان نضرب فيه الضربة الكبرى ونحن قد اجتمعنا وتداولنا لتعيين
ذلك اليوم .

فاعلموا إذن اننا لا نجتمع في هذا المكان بعد اليوم فهو اجتماعنا الأخير .

وأنتم تعلمون ايها الاخوان ان فوسكاري لم يحتفل بعد تلك الحفلة
التقليدية التي يحتفل بها كل درج يتولي فينيسيا وهي تلك الحفلة التي نسميها
« زواج الدوج ببجر الادرياتيک » .

وبناء على إلحاحي وإلحاح بعض رجالنا رضي فوسكاري ان يحتفل بهذه الحفلة في آخر العام أي في زمن قريب .

ففي هذا اليوم ، أي في يوم زواج فوسكاري بالادرياتيك ، يكون موعد زواجه بالموت .

أما موعد اجرائنا فسيكون موعد هذه الحفلة فعند إطلاق اول مدفع من مدافع الاحتفال يعمل كل منكم بما عهد اليه فهل توافقون على هذا الموعد؟ فصاح الجميع هاتفين لالتياري إشارة الى الموافقة . وعند ذلك قال لهم:

— إذن استودعكم الله الى يوم زواج فوسكاري بالادرياتيك .
فمدت الأيدي اليه من كل صوب وصافحه الجميع وهم يهنئونه بالفوز وهو يقبل تهنئاتهم بالشكر .

وبعد ربع ساعة تفرق الجميع وعاد الظلام والسكون الى تلك القاعة وبقي جينارو رئيس البوليس وهو حائر مضطرب يسائل نفسه مراراً هذا السؤال فيقول :

— ترى لماذا أراد رولاند ان احضر هذه المؤامرة ؟

وعند ذلك فتح باب القبر الذي كانوا فيه ودخل ذلك الرجل الذي جاء برولاند اليه وهو يحمل مصباحاً ، فخرج رولاند في البدء وتبعه رئيس البوليس بين الرجل وسكالابرينو فصعدوا السلم حتى وصلوا الى ساحة الكنيسة .

وفيما هو يسير معهم وقد نسي نفسه لفرحه بهذا الاكتشاف رأى ان سكالابرينو قد وقف هو ايضاً والتفت الى ما حواليه فرأى ستة رجال جالسين على كراسي وأمامهم الشموع .

فدعر وقال في نفسه : ترى أية حادثة جديدة ؟ ومن هم هؤلاء الستة الذين يشبهون القضاة ؟

ثم رأى صندوقاً طويلاً يشبه التابوت فدعر وقال : ما هذا ؟

فأجابه صوت قائلاً : إنه تابوتك .
 فاشتد رعبه ولم يعرف من الذي قال له هذا القول .
 ثم سمع رولاند يقول لأولئك الستة :
 — يا زعماء الجبل ان الاجتماع الذي كنا عزمنا على عقده في بيت الجزيرة
 سنعقده هنا واننا في مأمن .
 ولكننا قبل ان نبحث في أعمالنا اطلب اليكم ان تؤلفوا شكل محكمة
 لمحاكمة هذا الرجل .
 فقال احدهم : ماذا فعل المتهم ومن الذين يشكوه ؟
 قال : أنا .
 قال : تسلم إذن ايها الرئيس فاننا مصغون اليك وسنحكم عليه حسب
 شرائعنا المستقلة .
 فقال رولاند : ان اتهمني ينحصر بكلمة وهي ان هذا الرجل يدعى
 جينارو أي رئيس بوليس فينيسيا .
 فقال احدهم : هل التهمة ثابتة عليه ؟
 — إنه جاء في هذه الليلة الى جزيرة اوليفو للقبض عليّ أليس ذلك
 أكيداً يا جينارو ؟
 قال : ذلك لا ريب فيه ولكنني قد فعلت واجباتي .
 فقال أحد القضاة :
 — ان الاقرار صريح فلا سبيل بعد ذلك الى المحاكمة ولم يبق بد من ان
 ينفذ فيه العقاب حسب شرائعنا ثم وقف وقال :
 — ان مهمتك يا جينارو تقضي عليك بمطاردتنا نحن الذين نحاول إعطاء
 الحرية والاستقلال لهذا الشعب المضطهد .
 وان شرائعكم تحكم على كل من تقبضون عليه منّا بالإعدام وكذلك
 شرائعنا فانها تحكم عليك بالإعدام لأنك من أعدائنا فتأهب للموت .

فقال رولاند : اني أطلب إليهم حق الدفاع عن نفسه .

فنظر الستة الى رولاند نظرة اندهال فقال احدهم :

— دافع إذن عن نفسك يا جينارو فقد سمعت اننا نعتبرك من أعدائنا وإننا نقضي عليك بالموت لأنك لو قبضت على واحد منا لقضيت عليه مثل هذا القضاء وقد أراد رئيسنا الأكبر الذي أخرجنا من الظلمة الى النور وعلمنا ما لا نعلم من اسرار الحياة ان تدافع عن نفسك فدافع إذا استطعت .
قال : اني لا اعتبركم قضاة .

— وهل الذين يحكموننا منكم قضاة أعظم منا ؟

— نعم لأنهم يحاكمون باسم شرائعنا .

— ونحن نحكم باسم شرائعنا ايضاً أما انتم فتحكمون بالظلم والكذب فتجورون على الضعيف والفقير وترهبون الغني والقادر أما نحن فإنا شرائعنا تمنح حق هذه الحياة لكل إنسان وتبني على المساواة وأنتم تختارون قضاةكم من بينكم فكيف تنكرون علينا ان نختار قضاةنا من بيننا ؟

قال : حسناً فاني اعتبركم قضاة ولكم لا تستطيعون الحكم عليّ لأنني قتت بواجباتي .

— أتحسب من واجباتك قتل أمثالك في الإنسانية او تسليمهم الى الجلاذ ليقتلهم ؟

— كلا اني أقبض على أمثالي بل على الذين يسيئون الى الهيئة الاجتماعية .

— أي الذين يسيئون اليكم أنفسكم وكذلك نحن فاننا نقتل من يسيء الينا .

— إذن كنتم تفعلون نفس ما نفعله لكنتم ايضاً مثلنا .

— هو ذاك غير ان مقاصدنا تختلف عن مقاصدكم ولكن الوسطة واحدة

وهي الحرب الناشئة بيننا .

– إذا كان ذلك فلم يبق لي سبيل الي الدفاع لأنني أصبحت أسير حرب فافعلوا بي ما تشاؤون .

وقد أطرق برأسه وضعفت عزيمته فقال له رولاند :

– هذا الذي كنت ادفعك الي قوله يا جينارو وهو ان تعترف انك أسيرنا وانك أسير حرب وانه يحق ان نعاملك معاملة عدو لدود .
– اقبلوني اذن ما زلت كما تقولون .

– اصغ إلي يا جينارو فان أبي حين كان دوجاً لم يسيء الي حرية الشعب بشيء ولم يخالف نظام الشرائع ولكنه كان يعتبر ان أفقر بحار وأعظم نبيل متساويان لدى القانون وهذا هو ذنبه الوحيد الذي جوزي عنه بشمل عينيه كما تعلم وجوزيت أمي بالموت يأساً وجوزيت أنا بالسجن ستة أعوام في أعرق الآبار .

فاعلم يا جينارو ان الذين انقذوا هذا العقاب الهائل كانوا فوسكارى وببوا والتيماري وقد عرفت جرائمهم الهائلة وانهم لم يبلغوا الي هذه السلطة إلا بعد ارتكاب هذه الجرائم ومع ذلك فانك تستخدمهم .

فكيف تقول انك تفعل واجباتك بالقبض علي وانما أنا أريد معاقبة المجرمين بل اني أريد ان اعمل عملاً نافعاً يستفيد به جميع الناس وكان عليك ان تختار بين العقاب والجريمة ولكنك اخترت الجريمة بخدمة أهلها .

جرد ففسك يا جينارو من شوائب الاغراض ولا تفتكر بظواهر تلك الالفاظ الرنانة كالواجبات والعدل والشرائع بل افتكر بحقيقة معانيها تجد انك اخطأت بخدمة هؤلاء المجرمين الذين لا يستخدمون الشرائع الا للعبث بالشرائع ولا يتذرعون بالواجبات الا للاخلال بالواجبات .

فتأثر رئيس البوليس لأقوال رولاند وترقرق الدمع في عينه فقال له رولاند :

– ان دمة واحدة تشتري زلات كثيرة فتمعن يا جينارو بكل ما رأيته

وسمعتة الليلة في الدهاليز السرية واذهب فانك حر مطلق السراح .
 فكادت عيناه تخرجان من وجهه لفرط اندهاله وقال : أنا حر طليق ؟
 ثم سقط مغمياً عليه كأنه لم يطق احتمال هذا السرور الفجائي بعد أن
 سمع بأذنه حكم الاعدام عليه وبعد أن رأى بعينه التابوت .
 فلما استفاق لم يجد نفسه حيث كان بل وجد انه كان طريحاً على شاطئ
 التربة .
 فاسرع الى منزله فوضع رأسه بين يديه وقاه في مهامه التفكير .

عندما ذهب رولاند الى كنيسة سانت مارك كان عالماً بما سيراه فقد كان
 له كثير من المخلصين بين المؤتمرين مع التيماري وقد وقف منهم على نيات هذا
 القائد .
 وكان في وسعه احباط هذه المؤامرة غير انه رأى ان يهيج الحزبين حزب
 فوسكاري وحزب التيماري فيقسم قوتها ويضعفها وكلامها خصمه فقد ثبت
 جلياً أن الأميرال لم ينخطر في سلك هذه المؤامرة الا بايعازه .
 وعلى ذلك فان الدرج والتيماري سيقمتلان أشد قتال دون ان يعلما ان
 رولاند الذي سحقهما .
 فلما أتاه ذلك الرجل حين قبض سكالابرينو على جيناريو وعلم منه ان
 الجلسة ستعقد هذه الليلة خطر له ان يصحب معه رئيس البوليس .
 وذلك أنه منذ قبض عليه كان يفكر بأن هذا الرجل قد يفيد فائدة
 عظيمة ويتمعن الفكرة في طريقة استخدامه الى ان خطر له ذلك الخطر
 الفجائي وهو أن يدع رئيس البوليس يعلم بأمر المؤامرة ويعلم
 جميع المؤتمرين فيخبر فوسكاري دون شك بما رآه فتتشب الحرب الأهلية
 بين النبلاء المنقسمين الى قسمين فيضعفان بعد هذا القتال فيغتنم رولاند فرصة

هذا الضعف ولا يجد مقاوماً شديداً حين يضرب ضربته الكبرى .
ولذلك أطلق سراح رئيس البوليس بعد ان أوهمه انه محسن اليه بهذا
العفو وبعد ان أوقفه على هذا السر الهائل

* * *

أما جينارو فانه بعد أن لبث في منزله مضطرباً نحو ساعتين عادت اليه
السكينة وعاد الى التفكير والإيمان .
ومن غريب أمره أنه كان يبذل جهداً عنيفاً كي لا يفكر بـ رولاند ولكنه
لم يكن يستطيع التفكير الا به فكان يسمع قوله له :
- انك حر مطلق السراح .
فبهتز لهذا القول ويقول : ان من واجباتي ان اقبض عليه وسأفعل أما
الآن فلا فتكر بغير هذا الشأن .

٤٨

جوانا

تركنا جوانا وقد خرجت من المنزل بعد ان ودعت رولاند واباه
وسكالابرينو وذهبت قوا الى فينيسيا فلم تقم في ذلك المنزل الذي كانت
تقيم فيه مع سكالابرينو بل استأجرت غرفة في شارع ضيق يشرف على ساحة
سانت مارك .
ولم تكن قد وضعت لنفسها خطة فان هذه المنكودة لم يكن لها غير
فكر واحد وهو انقاذ ساندريجو من رولاند .

وكانت خططها شديدة الصعوبة فانها كانت تريد انقاذ ساندريجو ولكنها كانت تحاول في الوقت نفسه إكراه ساندريجو على عدم قتل رولاند أو سكالابرينو .

فلما وصلت الى فينيسيا كان اول مهمها ان تجد ساندريجو فاقامت اربعة ايام وهي تبحث عنه كل يوم في الميناء والأرصفة والشوارع الى ان كانت الليلة الخامسة فلقيته عند ساحة سانت مارك ولكنها رقت حائرة منذهلة لا تعلم اذا كانت خدعتها عيناها لانها رأت ذلك الاصح بلباس الضباط .

فلما ثبت من ذهولها كان ساندريجو قد دخل الى قصر بمبو فوقفت عند ذلك الباب فتتظر خروجه .

وبعد نصف ساعة خرج ساندريجو وسار فاقتفت أثره وهي لا تعلم ماذا تصنع الى ان وقف عند باب منزله وهم بالدخول فالتفت منذهلة اذ شعر بيد لطيفة قد وضعت على كتفه ورأى جوانا فقال :

— انت هنا في فينيسيا !

قالت : نعم وقد اتيت لحدثك يا ساندريجو .

— اذن ادخلي ايتها العزيزة لتعلمي مقدار سروري بلمقياك .

فدخلت واياه واجلسها فقال لها بلمهجة الهازيء :

الا تزالين في حراسة الشيوخ والفتيات .. اني اهنئك بهذه المهمة ولكنني اعجب لفتاة جميلة مثلك لا تزال في نصارة شبابهها كيف تقضي على ذلك الشباب وتدفن نفسها حية كي تخدم المجانين .

ولكنك اتيت اخيراً واذا شئت أجعل لك مركزاً هنا فلا تعجبي لقولي الذي لا ينطبق على ظواهر منزلي الحقيبة ولكن لا تغتري بالظواهر فانه لا يعفي زمن وجيز حتى ابلغ ما لم يكن يخطر في بال .

وكل ما أرجوه ان لا تكوني حاقدة علي فقد قضت علي السياسة ان

التصرف معك كما تصرفت واعلمي اني قادر على افادتك فاذا شئت ادخلتك
الى منزل امرأة شهيرة فلا تجدين عندها الا الخير اتقبلين ؟
فاجابته قائلة :

- ساندريجو اني ما اتيت إلا لانقذك .

- ممن تنقذيني ؟

- من رولاند كانديانو .

فوقف ساندريجو وقد توقف الحقد في عينيه وقال :

- رولاند كانديانو ذلك الرجل الذي اهانني وداس كبريائي .

اني اكرهه بملء جوارحي ويسرني انك اتيت لانذارني يا جوانا بعد ان
اسأت اليك تلك الاساءة فقولي يا جوانا كل ما تعلميه عنه فقد عرفت نياته
دون شك واين هو يختبئ فلا تمضي ساعة حتى يبيت قتيلا .

- كلا يا ساندريجو انك لا تقتل رولاند .

- لا اقتله ابداً ؟

- كلا .

- ومن يمنعني ؟

- أنا .

- انك مجنونة دون شك .

- قفرس في وجهي اترى مني ما يدل على الجنون ؟

- اني لا افهم ما تريدن فقد قلت لي انك اتيت لانقاذي من رولاند ثم
تقولين انك تمنعيني عن قتله فكيف يتفق هذان القولان ؟

- لقد قلت ما قلته يا ساندريجو فاصنع الي واعلم انه اذا قتلك
رولاند مت انا بأسأ ولذلك اتيت لانقذك ولكذك اذا اردت قتله فاقملي
أنا قبله .

فضحك ساندريجو وقال :

— اني لا أفهم شيئاً من اقوالك لأنك تريدني ولا تريدني في وقت واحد
فأوضحني ما تقولين .

— ذلك لأنني لا أريد ان تموت ولا ان يموت هو ايضاً فأعذرني يا ساندريجو
إذا كنت لا أحسن التعبير عن افكاري فلا تنظر إليّ هذه النظرات ألا ترى
اضطرابي ؟

— ولكن ألم أقل لك اني اكره هذا الرجل كرهاً لا تصفه الاقلام واني
لا يهنأ لي عيش إلا بقتله فاذا كنت لا تريدني ان اقتله فقولي لي على الأقل
كيف تريدني إنقاذي ؟

— ذلك لأنني أعلم عن رولاند ما لا تعلمه وإذا كنت قد عرفت شيئاً فقد
فأنتك أشياء ، ألا ترى ذلك الاغصار حين يثور فيجرف كل ما يمر به في
السهول وهكذا رولاند فانه سيمر بفينيسيا مرور الاغصار والويل لمن يقف
في سبيله ، فلماذا تريد ان تتصدى له يا ساندريجو ، اني اضمن لك بأنه لا
يمسك بسوء بشرط ان لا تقف في سبيله .

— لقد فهمت الآن .

— ماذا فهمت ؟

— فهمت ان رولاند ارسلك إليّ لأنه يخافني .

— انك منخدع يا ساندريجو فان رولاند لم يكلمني كلمة عنك بل أنا الذي
كلمته وقرأت بين عينيه انه يعفو عنك إكراماً لي بشرط ان تنسحب
من المعركة .

— أي بشرط ان أبرح فينيسيا .

— نعم هو ذاك فلنسافر معاً يا ساندريجو أتريد ان أسافر معك الى حيث
تشاء وأكون معك كما تشاء .

— أتيت الى فينيسيا لتقترح عليّ مثل هذا الاقتراح ؟

— نعم .

— ان اقتراحك صالح مقبول ولكن يوجد مانع يحول دون تنفيذه .
— كرهك لرولاندا أليس كذلك .. والأسفاه اني كنت أود ان تعرفه
حقى العرفان .

— إذن كان يزيدني كرهاً ولكن ليس الكره الذي يحول دون اقتراحك.
— إذن ماذا ؟
— الحب .

فصعقت جوانا لهذا التصريح ومضى ساندرىجو في حديثه فقال :

— نعم اني محب وانى محبوب ويوم السبت سيعقد قران القائد ساندرىجو
في كنيسة سانت مارك ويحضر حفلة قرانه نبلاء فينيسيا والآن فاذا اردت
ان تعرفي خطيبتى فاعلمي انها تدعى بيانكا .

فسقطت جوانا على كرسيها واهية القوى وأتم ساندرىجو حديثه فقال :
— أرأيت كيف انى لا استطيع ان أبرح فينيسيا في الوقت الحاضر
فاذهبي الآن يا جوانا فقد اوشك ان يهبط الظلام ومضى تزوجت وسكنت في
منزلي الجديد سأستقبلك على الرحب .

وكان هذا اللص السفاك يكلم تلك المنكودة وهو يشاور نفسه بين ان
يبقيها عنده أسيرة او يفتك بها كي يمنعها عن ان تقابل رولاندا .
ولكن خطر له انه اذا تركها تنصرف يتعقب أثرها ويعلم اين يقيم رولاندا
إذ لم يكن لديه شك لغرط غروره بنفسه ان رولاندا يخافه وانه ارسل
جوانا اليه .

أما جوانا فان كلمات ساندرىجو ضعفت حواسها فقالت له :
— الى اللقاء القريب ثم انصرفت وهي تتعم بكلمات لا تفهم .
وأما ساندرىجو فانه خرج في أثرها الى ان عرف المنزل الذي دخلت اليه .
فانصرف وعاد بعد نصف ساعة يصحبه جاسوس فدلّه على المنزل وقال

له : انها تقيم هنا فيجب ان تعرف أين تقيم بالتدقيق كي لا أجد صعوبة حين الدخول اليها .

فأجابه الجاسوس قائلاً : ذلك سهل .

قال : حسناً فسأقف في موقف المراقبة وسأرسل لك معيماً فاذا خرجت فاتبعها وإذا زارها احد فارسل إلي في الحال من يخبرني ثم تركه وانصرف بينما كانت جوانا في غرفتها الصغيرة تشفق بالبكاء .

بينما كانت جوانا تبكي وتلتحج وتنظر واليأس ملء قلبها الى تلك الهوة العميقة التي فتحت أمامها كان ساندرىجو قد دخل الى منزله ووقف يصلح شعره أمام مرآته ويتألق في لباسه .

حتى إذا أتم لبس ثوبه الجديد قال في نفسه :

— من يستطيع ان يعلم انه يوجد في هذا الثوب ذلك اللص السفاك ساندرىجو ، كلا حتى ان رفاقي القدماء قد لا يعرفونني .

حتى إذا أتم لباسه ولبس قبعته نظر الى المرأة نظرة أخرى وابتسم وقال :

— لا شك ان النصر سيكون حليفى وسأظفر بقلب بيانكا في حفلة الليلة .

ذلك ان ساندرىجو كان كسواه من الشبان الأغرار الذين مننت عليهم الطبيعة بشيء من الجمال فانهم يحسبون ان النساء رهن لحظة من لحظاتهم .

على ان قتله لروланд كان اسهل من فوزه برضى بيانكا .

ولم يكن ساندرىجو وحده يهتم بهذه الحفلة التي ستعقد فيها خطبته هذه الليلة في قصر امباريا بل ان رولاند ايضاً كان يود حضورها فقد لبس ملبسه

ولم يغيّر ولم يتنكر فلا ندري أكان ذلك لإفراطه في البسالة أم انه كان له قصد خاص .

غير انه لبس برقعاً من المخمل الأسود حسب العادة في تلك الايام وخرج من المنزل في الساعة الحادية عشرة ونصف أي بعد بدء الحفلة بساعتين .

ولما خرج من المنزل الى الردهة وجد كثيرين من الرجال مجتمعين فيها فقال لهم :

— هل هيأتكم رجالكم ؟

قالوا : نعم فانهم في مراكزهم منذ ساعتين .

— حسناً فساخرج من الحفلة في الساعة الثانية تقريباً بعد انتصاف الليل فلا تصنعون شيئاً فاذا بلغت الثانية والنصف ولم تروني فابدأوا الهجوم .

فانحنى اولئك الزعماء بلاء الاحترام وتفرقوا بحيث لم يبق غير سكالابرينو فقال :

— أظن يا مولاي اننا نفوز ؟

قال : اطمئن يا سكالابرينو فان القصر سيطوقه مائتا رجل وهذا العدد كاف لاختطاف فتاة .

قال : لقد أصبت يا مولاي فان ثقني بك لا احد لها واني اعتقد اعتقاداً كبيراً انك سترد لي ابنتي ولكن قلبي يحدثني بمصاب لا اعلم ما هو .

— لا تخف شيئاً فقد علمت ان بيانكا كانت في قصرها في الساعة الثامنة من هذه الليلة .

فأطرق سكالابرينو هنيهة مفكراً ثم قال :

— لقد عهدت يا مولاي الى كل من رجالنا بمهمة يقضيها إلا أنا .

قال : ليس من مهمة اعهد اليك بها سوى انه يجب ان تقف أمام باب قصر امباريا في الساعة الثانية والنصف .

— لماذا لا تريد ان اعمل شيئاً .
 — لأنك أب قد يدفعك الحنو الى فعل ما يفسد عملنا فدعني أقضي هذه المهمة مع رجالنا وهم بنوا الآن فقد حان الأوان .

ولنعد الآن الى جوانا فان هذا النقيب الذي تلمقته من فم الذي تحبه عن بيانكا قد صمقها فاسترسلت الى البكاء حتى إذا فضبت دموعها قالت :
 — كلا انه لن يتزوجها وذلك مستحيل .

ثم خرجت من منزلها هائجة على وجهها وهي تردد هذا القول كالجنانين .
 وما زالت تسير حتى رأت انها بلغت شاطئ التربة الكبرى وهناك لقيت بحاراً وقالت له :

— هل لك ان تدلني على قصر امباريا ؟
 فمد البحار يده مشيراً الى قصر يبعد نحو مائة خطوة .
 فقالت : اهذا هو قصر امباريا ؟
 قال : نعم هو ذلك القصر المتلألئ بالانوار إذ يظهر ان ليس لهذه المرأة بنتاً وانها تحتفل الليلة بعقد زواجها .
 فارتعشت جوانا وسارت الى ذلك القصر .

٤٩

أم او محظية

كانت امباريا قد عقدت هذه الحفلة بأمر بمبو فجاءها الناس على اختلاف الطبقات وكانت حفلة نادرة المثال فان المحظيات في ذلك العهد كان لهن منزلة كبيرة ولا سيما من كانت مثل امباريا وكان يظهر عليها في تلك الليلة انها

متأثرة تأثراً عظيماً فانها كانت تضحك ثم يصفر وجهها ثم تقطب حاجبيها ثم تعود الى الضحك وكل ذلك لغير سبب ظاهر .

وقد كانت لم ترَ بنيتها منذ ثلاثة أيام فان الغيرة كادت تمزق قلبها الفاسد . ففي الساعة الخامسة من تلك الليلة دخلت الى بنيتها وتتبعها خادمة تحمل صندوقاً صغيراً فأمرت الخادمة ان تضع الصندوق في الغرفة وان تذهب لإحضار البقية .

فامتثلت وعادت بعد هنيهة بثوب من الحرير الأبيض فوضعتة على المقعد . أما بيانكا فكانت تنظر الى هذه الملابس نظرات تشف عن الرعب . فلما انصرفت الخادمة دنت امباريا من بنيتها فقبلت جبينها ثم فتحت الصندوق فأخرجت منه عقداً من اللؤلؤ الثمين ومشطاً مرصعاً باللؤلؤ ايضاً ونظاقاً مرصعاً بالالماس ثم اخرجت تاجاً صغيراً رصع بالحجارة الثمينة المختلفة فأخذت تلك الحلى بيدها وقالت :

— كيف ترين هذه الحلى يا ابنتي ؟

قالت : انها من ابداع المجوهرات .

— ولكن جمالها يزيد متى كانت عليك .

— عليّ أنا ؟

— نعم يا ابنتي فاني أحب ان تلبسيها كي أرى كيف تكون عليك مع الثوب الأبيض .

فوقفت بيانكا وقد تبين الذعر في عينيها فقالت :

— ماذا تريدن مني يا أمام اني احب ان اعرف الحقيقة مهما كانت هائلة .

— أتعددين اعظم حفلة أحييها في فينيسيا من الأمور الهائلة ؟

— إذن لقد احضرت لي هذه المجوهرات وهذا الثوب كي احضر تلك

الحفلة التي سمعت الخدم يتحدثون بها ؟

— نعم يا ابنتي فاني أريد ان تفتني الأبصار وان تهيجي قرائح الشعراء

واعلمي يا بيانكا انك قد تجاوزت السن الذي تنحصر فيه البنات في المدارس وفي الغرف وآن لك ان تظهرى أمام الناس فان هذه العزلة تقتلك وأنا لا أريد لك إلا الحياة فانك تعلمين انك ابنتي الوحيدة وانك كل ما أحبه في هذا الوجود .

وبعد ان قالت لها هذا القول وقفت تتمعن في جمالها فاصفر وجهها فجأة وقالت :

— نعم ان جمالك بديع فتان لا يلبث الناظر اليك ان يراك حتى يتبدله في حبك ، وأما أنا ..

فأخذت بيانكا يد أمها بين يديها وقالت :
— ما بالك يا أماء وما هذه الأقوال الغريبة التي اسمعها منك انك تعذبيني .

فبذلت إمباريا جهداً عنيفاً حتى تمكنت من ضبط نفسها فضحكت وقالت :

— الحق اني مجنونة فاعذريني يا ابنتي فاني متأثرة لفرط سزوري بك فان هذه هي المرة الأولى التي تجتمعين بها مع الناس .

ثم أشارت الى المقعد وقالت :
— انظري الى هذا الثوب الابيض يا بيانكا فقد اعتنيت به عناية خاصة وستظهرين به كالملاكات ولكن كاد يفوت الأوان يا ابنتي وسأسلمك إياه بيدي .

فتأوهت بيانكا وقالت :
— اني لا أحضر هذه الحفلة يا أماء .

فارتعشت إمباريا وخامر قلبها شيء من الرجاء ولكنها مع ذلك لم تجد بداً من اقناعها على حضور الحفلة فان عواطف الأمومة وعواطف الغيرة كانت تتنازع في قلبها .

فقلت بيانكا :

- انك تعلمين يا أمي شدة ففوري من هذه الحفلات فلماذا تحاولين إكراهي على حضورها وماذا اعمل بحفلة لا اعرف احداً من اهلها ؟
- فأجابتها بصوت مخننق وهي تتمنى ان لا تتمكن من اقناعها .
- ولكن ذلك لا بد منه يا ابنتي .
- لا افهم ما تقولين وهذا الذي يعذبني فقد أشكل عليّ فهم مقاصد الناس حتى أمي وقد آن لنا ان نتوضح يا أماه بلاء الاحترام .
- قسكلمي يا ابنتي وسليني عما تشائين أجيبك .
- نعم فاني أحب ان اعلم قبل كل شيء لماذا تقولين ان حضور هذه الحفلة لا بد منه ولم تقولي هذا القول قبل اليوم ولماذا كنت تحجبيني عن العيون حتى اوشكت ان تسدي عليّ منافذ النسيم والآن تريدان ان اظهر في قاعاتك لجميع الناس ؟
- ذلك لأن اليوم غير أمس ولكنك تجاوزت عهد الحداثة فأصبحت صبية وغداً تصبحين امرأة حسب النظام العام .
- فاصفر وجه بيانكا وقالت :
- ذلك يدل انك تريدان تزويجي .
- هو ذاك .
- وعلى ذلك فقد اخترت لي الزوج .
- وهذا أكيد ايضاً .
- وإذا قلت لك اني لا أريد ان اتزوج واني ارجوك ان تذهبي بي من فينيسيا .
- أجيبك ان زواجك ضروري .
- ولما ؟ ما زلت لا أريد الزواج .
- لي أنا .
- فساد بين الأم والبنت سكون يشبه ذلك السكون الذي يتقدم العاصفة.

فأطرقت امباريا برأسها وكانت عيناها ترسلان شراراً خلفاً لبيانكا فانها كانت تراقب أمها بملء السكينة ولكن علائم صحة العزيمه كانت بادية عليها فان نبأ زواجها قد أثر بها تأثيراً عظيماً ولكنها علمت انه لا يزال لديها أمور كثيرة يجب ان تعلمها فتمكنت من ضبط نفسها وقالت :

— أرى يا أماء منذ عهد بعيد ان لديك أمور خفية تحاولين كتمانها عني فاني عشت كل مدة حداثتي وحدي ولما جئت اليك جعلت حاجزاً منيعاً بيني وبينك ومع كل ذلك اشعر انك تخبينني واني أحبك .

ثم انك لا تخرجين بي للنزهة إلا حين هجوم الظلام وتبرقعين وجهي ووجهك ايضاً ببرقع كثيف كأنك لا تريدين ان يعرفك احد حين أكون وإياك وهنا في نفس هذا المنزل اعيش معتزلة منفردة لأسباب لا اعلمها حتي سمعت هذا العيش وهذه الالغاز ولكن ليس هذا كل شيء فانك الى الآن لم تقولي لي شيئاً عن أبي .

— أبوك ؟

— نعم أليس لي أب ؟

فاضطربت امباريا اضطراباً شديداً إذ لم يخطر في بالها ان ابنتها ستسألها يوماً عن أبيها فندسيت في تلك اللحظة ساندريجو وبمبو والحفلة وبدت على وجهها صفرة الخجل وهي لم تخجل في حياتها فقالت لها :

— اسكتي يا بيانكا فلماذا تريدين ان تخجليني ؟

فأخذت بيانكا يد أمها بين يديها وحدقت بهما كأنها تحاول ان تقرأ دخائل قلبها في عينيها وقالت :

— أي خجل تعنين يا أماء انك قد اندفعت في القول فلم يبق لي بد من ان أعلم .

— بيانكا أرجوك ..

— كلا اني أريد ان أعلم .

— إذا كان لا بد من ذلك فاعلمي .. ثم غطت وجهها بيدها وقالت :
 أن أباك لص لم يرك في حياته ولا يعلم بوجودك .
 — يا للهول .

— نعم يا ابنتي هذا هو السر الهائل الذي اكرهتيني على ان أبوح لك به
 فاني كنت أحاول أن اكنم عنك عيشي الذميم ولكنك أبيت الا اكراهي
 على القول .. نعم يا ابنتي اني تلك المحظية الشهيرة التي يدعونها امباريا .

وهنا اختنق صوتها بالبكاء فقالت بيانكا بلهجة حنونة :

— كفي أيتها الأم العزيزة فاني سأنسى كل ما سمعته منك الآن فليمت
 الماضي ولنبرح هذه المدينة الى بلاد لا يعرفنا فيها أحد فافتخر بك وأقول
 هذه امي التي أحبها .

فهاجت العواطف المختلفة في صدر امباريا وتثقل لها أنها إذا برحت
 فينيسيا اضطرت الى فراق ساندريلو فسقطت عواطف الأمومة لمجرد هذه
 الذكرى وقالت :

— اني أريد يا ابنتي ان أسافر فان كل سعادتي ان أكون انا وإياك ولكن
 ذلك مستحيل .

— لماذا ؟

— لا تسأليني مزيداً ولكن اعلمي انه قد مر في أيامي الماضية حوادث
 دعت الى يأسى اذا لم تنقذيني قضى علي .
 — تكلمي يا أماء فاني مستعدة لانقاذك .

— اذن فاعلمي يا بيانكا انه لا ينقذني غير زواجك ولا تحسبي اني اريد
 أن اضحي سعادتك على هيكل أغراضى فان ذلك الرجل الذي يحبك ويريد
 زواجك يشغل منصباً خطيراً في فينيسيا وهو في مقتبل الشباب جميل قوي
 قتمنى كل حسناء ان تكون زوجته فستكونين معه غنية محبوبة محترمة
 وتموت أمك سعيدة لأنها تراك سعيدة .

فأجابتها ببيانكا قائلة : كلا يا أماء اني لا اتزوج هذا الرجل ولا سواء .
فأجابتها أمها كأنها لم تسمعها :

— بل يجب ان تحبينه فهو الذي انقذك وأرجعك الي .
— معاذ الله ان أحبه بل أكرهه .
— تكريهينه ؟

— نعم .
— لماذا هذا الكره وبماذا اساء اليك ؟
فاصفر وجه بيانكا وقالت :

الي .. انه لم يسيء الي بشيء .. ولكني اسالك بدوري يا أماء ان لا
تسأليني شيئاً .
— أتردين أن أقول لك الحقيقة يا ابنتي اذن فاعلمي انك تكريهين
ساندريجو لانك تحبين سواء .

— نعم فانك تحبين ايتها الشقية رولاند كانديانو .
فأجابتها بانذهال صادق قائلة :
— رولاند كانديانو . اني لا أعرف هذا الرجل .

— بل انك تعرفينه فهو الذي اختطفك من هنا وهو الذي أوهمنا في
البدء انه طبيب وهو الذي ذهب بك الى قرية مستر وأقسم على ان يشقيني
ويقتلني . نعم انك تحبين الرجل الذي اكرهه وهو رولاند كانديانو .

فتنهدت بيانكا تنهداً عنيفاً وقد سمعت أمها تذكر لها انها تحب هذا
الرجل وعرفت انه يدعى رولاند كانديانو فاضطربت اضطراباً عظيماً ولم
تستطع احتمال هذا التأثير فسقطت مغماً عليها .
ولم يطل اغماؤها فلما استفاقت وجدت أمها جاثية بقرنها فقالت لها
فجأة :

— بماذا كنا نتحدث يا أماء أليس بحديث الحفلة ؟

قالت : نعم وبغير هذا الحديث أيضاً .
 قالت : لا تذكر لي بالله غير حديث الحفلة .
 - ولكنك أبديت ان تحضرها .
 - أنا قلت ذلك . اذن لقد كنت مخطئة فاني أحب ان احضرها وأحب
 أن أرى .

فاضطربت امباريا وقالت في نفسها : ترى ما الذي يحملها الآن على
 حضور الحفلة ومن الذي تحب ان تراه ألعلمها ترجو أن ترى رولاند ثم
 قالت لها :
 - أحق ما تقولين :

قالت : نعم فاذهبي ودعيني ألبس وحدي فاني أحب أن اكون جميلة كما
 تقولين .

فذهبت امباريا وهي معجبة لهذا الانقلاب وبيانكا وحدها فجعلت
 تضع في صرة بعض اشياء كانت تحبها وهي ساكنة هادئة غير أنها كانت معجبة
 بنفسها لهذا العزم الفجائي الذي اوحى اليها .

وبعد ان تمت معاداتها اخذت الصرة بيدها وفتحت باب غرفتها فخرجت
 منه الى ساحة ومن تلك الساحة الى رواق ضيق انتهت منه الى سلم فنزلت
 عليه حتى انتهت الى باب من ابواب القصر كانت تخرج منه للنزهة كل ليلة
 مع أمها .

وقد فتحت ذلك الباب وخرجت بسرعة وهي لا تفكر الا بالابتعاد
 عن أمها .

وكانت الساعة قد بلغت الثامنة ، أي ان الظلام كان قد خيم على
 فينيسيا ، ولكن القوارب كانت مصابيحها مضيئة وبعد ان ابتعدت نحو
 خمسمائة خطوة من القصر وقفت وقالت في نفسها :

- ربه الى اين اذهب وماذا اعمل وما يكون مصيري ؟

وقد اضطربت في امرها اذ لم يكون لها اصدقاء ولا ام ولا بيت ولا مال غير بضعة دريهمات كانت في جيبها وما كان عليها من الحلوى .
ولكنها كانت تؤثر عذاب البرد والجوع والفقر بل كانت تؤثر الف موت على ان تعود الى امها بعد ان علمت من فمها انها محظية وانها تريد ان تهرجها وتزينها لتبيعها في سبيل اغراضها .
وعند ذلك خطر لها خاطر فجائي اثار ظلمات يأسها فنادت بحساراً وقالت له :

— هل تريد ان تجتاز البحيرات ؟
قال : حباً وكرامة يا سيدتي .
فنزلت الى القارب وسار بها يخترق العباب فقال لها البحار : في اي شاطئ تريد سيدتي ان تنزل ؟
قالت : في الشاطئ المؤدي الى طريق مستر .

— ٤٩ —

رجل الغابات

عندما نزلت بيانكا من القارب الى الشاطئ كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة .
فوقفت وحدها في ذلك المكان المظلم المقفر الى ان توارت السفينة عن انظارها .
ولبثت على ما كانت عليه من الشجاعة والصبر حتى اذا مشت قليلاً ورأت انها لا ترى غير الظلمات ولم تعد تسمع انين المياه ولم تعد ترى غير تلك الظلمات التي كان الهواء البارد يطارد غيومها المتباعدة شعرت ان تلك الشجاعة قد فارقتها وان الرعب قد بدأ يتولاها .

وكان البحار قد دلفها على طريق مستر وهي قريبة منها فجعلت تشجع نفسها وتوسع الخطى .

وكانت الأشجار الباسقة مغروسة على جانب الطريق فكان الهواء يحرك اغصانها فتخرج اصواتاً يتمثل للفتاة انها تقول لها :

— الى اين تذهبين ايها الصغيرة الحسناء .. ليس اب ولا ام ولا اخ ولا زوج أمكنا تسيرين وحدك في هذا الظلام الخفيف ؟
فكانت يبانكا تجيب هذه الاصوات فتقول في نفسها :

— هناك في ذلك البيت الصغير في مستر اجد الأم والأخت .. اجد جوانا اجد ذلك الشيخ الجليل .. وربما وجدته هو .. نعم ان نظرة منه تلمسيني الامي وكلمة من فمه ترد الي الرجاء المفقود .

وما زالت تشجع نفسها بهذه الاقوال وتسير حتى وجدت نفسها في غابة متوسط الطريق .

فوقفت منزعرة فان الغابة كانت كثيفة فتعملت لها اشجارها رجالا من العماقة سود الملابس سود الوجوه وخيل اليها ان حفيف تلك الاشجار كلمات يمس بها اولئك العماقة بعضهم في اذان بعض .

وكيف لا قرعب تلك المنكودة ولو سار الرجل الشجاع في مثل الغابة في ظلام الليل لما تمكن ان يصون نفسه من الرعب .

وفيا هي على ذلك مر بها ايل وهو يركض ويصوت ولو علمت انه ايل لاطمأنت ولكنها لم تكن قد سمعت من قبل ذلك الصوت ولم تستطيع ان ترى ذلك الحيوان لشدة الظلام فندعرت ذعراً لا يوصف وجعلت تركض وهي لا تعي إذ لم يخطر لها في ذلك الحين غير خاطر وهو ان رجل الغابات يطاردها .

وذلك ان الخرافات كانت كثيرة في ذلك العهد ومنها خرافة كانت كثيرة

الشيوع وهي انه يوجد في كل غابة رجل وحشي الأخلاق له وجه إنسان وجسم نمر فلا يظهر فيها إلا بالليل ويمزق من يعثر به بأظافره ويفترسه .

وكانت بمانكا تعرف هذه الخرافة فلما شعرت ان الأيبل قد مرّ بها أيقنت انه رجل الغابة فطارت نفسها من الذعر وجعلت تركض كما قدمناه .

مع ان بمانكا كانت متعلمة خير تعليم وقد ثقف العلم عقلها ولكن ذلك العصر كان عصر خرافات حتى ان العلماء انفسهم كانوا يمتقدون بها .

وقد لبثت تركض منذرة فتقع وتنهض وتسقط وتقوم وما زالت على ذلك حتى اشرق الفجر .

وقد التفتت الى ورائها إذ خيل لها انها سمعت وقع خطوات فرأت انه ليس الوم الذي كان يدفمها الى الاعتقاد بأن رجل الغابات يطاردها بل رأت حقيقة ان رجلاً يطاردها .

وعند ذلك جعلت تركض قانطة وهي واثقة انه لم يبق لها رجاء بالإفلات من رجل الغابات .

ولكن الرعب قد هدّ حيلها لا سيما وقد رأت بعينها ما كانت تراه بعين الخيال فصاحت صيحة منكورة وسقطت جاثية على ركبتها وشعرت بأنفاس ذلك الرجل الذي يطاردها تهب على رأسها .

ولكنها لو التفتت ورأت ذلك الرجل لكان ذعرها منه أشد من ذعرها من رجل الغابات .

* * *

تابع رجل الغابات

في الساعة العاشرة من تلك الليلة كان المدعون قد بدأوا بالوفود الى قصر امباريا وقد جاء ساندريجو وبمبو وغيرهم وجميع من في فينيسيا من المحظيات واخذ رولاند كانديانو يتأهب للحضور كما تقدم .

وكانت امباريا اعلنت لزائريها ان الحفلة لا يكون فيها رقص لأنها ستكون قاصرة على تعريف اهل فينيسيا ببنيتها وبصهرها القائد ساندريجو . ولكن الموسيقى كانت تصدح في القاعة الكبرى وقد غصت القاعات بالمدعويين ومع ذلك فان امباريا لم تظهر واليك تفصيل ما حدث .

انها بعد ان تركت بنيتها دخلت الى غرفتها وهي لا تمي لفرط اضطرابها فنانها باتت تغار من بنيتها غيرتين احدهما لأنها ستكون زوجة ساندريجو كأنها نسيت اتفاقها مع بمبو وان هذا الزواج سيكون بالظاهر فقط .

والثانية لأنها ظهر لها ان بنيتها تحب رولاند وهي لا تزال تحبه ايضاً ذلك الحب الاول الذي لا يزول تأثيره من القلب مهما طرأ على هذا القلب من الاغراض .

ولما عادت الى غرفتها كي تتأنق بلباسها وتكشف بنيتها بالجمال الاصطناعي لمذ كانت دورها بالجمال الطبيعي .

وبعد ان اقامت ساعتين امام مرآتها تحيط بها نساؤها ذهبت الى بنيتها ودخلت الى الغرفة التي كانت فيها فوجدت ان الثوب الابيض لا يزال على المقعد وصندوق المجوهرات لا يزال في موضعه فقالت في نفسها :

— انها لم تلبس فهي لا تريد ان تحضر الحفلة .
وعند ذلك دخلت الى غرفتها الخاصة فلم تجدها فنادت خادمتها وسألتهن
عنها فبحثن عنها في جميع الغرف فلم يجدنها .
فأيقنت انها هربت وأمرت خادمتها ان يكتبن هذا الأمر وقد اقفلت
عليهن الابواب مبالغة في الحرص على الكتمان وعادت الى غرفتها وهي متأثرة
لفراق بنتها ولكن غير تأثرها في المدة الأولى فانها حين اختطفوا بنتها اول
مرة كانت أما مجردة أما الآن فان حبها غير مجرد .
وقد أقامت مدة طويلة في غرفتها ثم خرجت الى قاعة الاحتفال فاستقبلها
ساندريجو وسار بها الى كرسي كبير يشبه العرش في تلك القاعة وجلس
يجانبها يتحدثها فجعلت تنادمه وقد نسيت بنتها .
وفيما هما على ذلك مرت بهما رجل مبرقع عرفته امباريا بالرغم عن برقع
الكثيف فأخذ بيدها وقامت معه بعد ان استأذنت من ساندريجو فجعلها
يسيران في القاعات وهما يتحدثان بصوت منخفض .
وقد سألهما الرجل قائلا :
— أين بيانكا ؟
فقالت له : انها لا تحضر .
فتنهده الرجل كأنه قد نزل عن عاتقه حملا ثقيلا وقال :
— انك لا تدسين ما افهقنا عليه وهو ان بيانكا تكون لي بعد الزواج .
قالت : ان الزواج لا يعقد بعد غد ولن يعقد .
فارتعش الرجل وقال : ماذا تعنين ؟
قالت : اصنع إليّ يا بيمو فسأطلعك على أمر أحب ان يكون مكتوما
عن الجميع حتى عن ذلك الرجل الذي يكاد يفترسنا بيمينه لشدة شوقه الى
معرفة ما نتحدث به .

فنظر بمبو من خلال برقعته الى ساندريجو فرأى عينيه تتقدان وراه نهض وهو يحاول ان يأتي اليهما فقال لها :

— اسرعي بما تريدن ان تقوليها فانه قادم اليينا .

قالت : ان بيانكا قد اختطففت منذ ساعتين واظن انها ذهبت الى رولاند في مستر فتصرف الآن بما يوحيه اليه دهاوك .

فوضع بمبو يده على جبينه وقد شعر ان دماغه تلتهب في رأسه ولكنه تاب الى رشده لفوره فالتحنى أمام امباريا وافترق عنهما .

وعند ذلك دعا ساندريجو من امباريا وقال لها :

— ماذا يريد هذا الفندير السوء وهو من هو ؟

قالت : انه صديقي وسيكون من اصدقائك فانه من ظرفاء فينيسيا .

فاطمأن باله وسألها قائلاً : أين بيانكا فاني لم أرها بعد ؟

— انها ستحضر قريباً .

أمما بمبو فانه حين ترك امباريا ذهب توأ الى حيث تقيم بيانكا ففتح غرفتها ورأى الثوب الأبيض لا يزال على حاله والمجوهرات لا تزال في موضعها فارتعش سروراً وقال في نفسه : انها لم تكذب في ما قالت له لي .

وعند ذلك اسرع الى الخروج من النهر فركب قارباً وأمر البحار ، ان يسرع به الى اجتياز البحيرات وان ينزله في طريق مستر .

فلما توسط البحيرات رأى قارباً عائداً الى فينيسيا فقال للبحار : يمكن محادثة من في هذا القارب ؟

قال : ذلك سهل يا سيدي .

قال : إذن أدن منة حتى تلاصقه .

ففعل وسأل بمبو بحار ذلك القارب قائلاً :

— من أين انت آت ؟

قال : من الشاطئ المؤدي الى طريق مستر .

— انك ذهبت بفتاة صبية اليس كذلك ؟

— نعم يا سيدي .

— حسنًا فواصل سيرك ولكن احذر ان تكون كاذبًا وقل لي غمرة قاربك .

قال : ان غمرته عشرة وما قلت لك غير الحقيقة .

قال : إذن امض في سبيلك وأمر بحاره ان يسرع جهد الإمكان .

وبعد هنيهة بلغ به الشاطئ فأمره ان ينتظره وسار حتى بلغ الغابة .

ولم يكن يعلم أين تقيم في مستر ولكنه يرجو ان يظفر بها في الطريق قبل دخولها لأن طريق مستر واحدة فجعل يوسع الخطى ثم جعل يركض الى ان سمع وقع خطوات أمامه فجأة فوقف مرتعشًا فانه رأى بيانكا على قيد عشرين خطوة منه .

وكان اضطرابه شديدًا حتى انه لبث واقفًا في مكانه وهو يحسب انه يركض كما يصيب الراكض في الحلم .

ولم يثب الى رشده إلا حين رأى الفتاة قد أخذت تركض حتى كادت تنواري عن انظاره فزال اضطرابه واندفع في أثرها كالسهم حتى أدركها وقد سقطت جاثية على ركبتها فابتسم ابتسام الظافر وقال :

— انها باقت لي هذه المرة دون منازع .

سفينة الحب والموت

بعد انتصاف الليل بقليل تفقد رولاند رجاله حول قصر امباريا ليرى اذا كان كل في موقفه فانه كان قد أعد المعدات لاختطاف بيانكا بحيث بات الفوز مضموناً لديه .

وبعد ذلك دخل الى القصر ونظر نظرة عامة في تلك القاعة المتسعة فرأى امباريا تبسم لساندريجو ابتساماً ساحراً وأيقن انها تهوى هذا اللص .

فجعل رولاند ينتقل من موقف إلى موقف باحثاً عن بيانكا فلم يجدها حتى انه قلق عليها وأيقن أنها غير موجودة في هذه الحفلة الذي أعدت لها فعاد الى القاعة التي كانت فيها امباريا جالسة في صدرها جلوس الممسكات فلم يجدها ولم يجد ساندريجو فبحث عنها فلقبها واقفين عند نافذة تطل على التربة فاحتمل حتى تمكن من الوقوف بقرب هذه النافذة وراء ستارة بحيث كان يسمع حديثهما ولا يريانه فسمع ساندريجو يقول :

— إذن هي تأبى حضور الحفلة ؟

قالت : لقد توسلت اليها مراراً كما قلت لك ولكن لنسعد البحث في شأنها الليلة وغداً نفتكر ببيانكا أمسا الليلة فأرجو ان تكون يجملك لي أتريد ؟

— لكن ماذا تريدن ؟

— قل عني مجنونة اذا شئت ايها الحبيب فان هذه الحفلة تضجرتي ولا افكر بالساعة التي سنمختلي بها حتى اتشهد .

- ان الليل يتقدم .
- نعم ولكن أتعلم ما خطر لي ان افعل حين ينصرف المدعوون وتنتهي الحفلة .
- ماذا خطر لك ؟
- اتعبدني بتحقيق هذه الأمنية ؟
- دون شك .
- فلم تكثرت امباريا للناس الذين يرونها فطوقت ذراع ساندريجو بذراعها واسندت رأسها الى كتفه فقالت :
- اني أعددت سفيني الجميلة الخاصة بالحفلات الانيقة وأمرت ان يضعوا فيها الخيمة الداخلية وفرشوا فيها البسط الحريرية والوسادات الجلدية بحيث باتت شبه عش للعاشقين .
- والذي أريده هو أن ندرج الى هذا العش بعد تفرق الناس وتتم لذة الحياة على تماوج السفينة اللطيف .
- فلم يشأ رولاند ان يسمع اكثر مما سمع وانصرف وهو يقول في نفسه :
- أن بيانكا مقيمة في غرفتها دون شك ولا بد من اخبارها بأننا سنختطفها كي لا تضطرب وقد بات اختطافها سهلاً ما زالت هذه الأم الشقية مشغولة عنها بغرامها الفاسد .
- وبعد ربع ساعة ثبت له ان بيانكا غير موجودة في القصر فعاد الى القاعات وكانت امباريا تحدث الناس ضاحكة باشة امنية طوارق الايام وارقين واقف بين عصابة من الفتيان يجادلهم في الشعر ويوازن بين الشعراء فدنا منه رولاند فاحس كتفه فأشار اليه ان يتبعه .
- فامتعض الشاعر وتبعه مكرها وهو لا يعرفه حتى اذا خلا به وعرفه ارتعش خوفاً عليه لوجوده في هذا القصر وقال له ؟ بماذا تأمر يا مولاي ؟

قال : أريد ان تذهب الى امباريا فتقول لها ان لديك نبأ سرياً خطيراً تريد أخبارها به .
- ما هذا النبأ ؟

- لا تقلق له واتبع هذه المرأة الى حيث تذهب بك وعلي البقية .
فذهب ارقين ممثلاً وراء رولاند يحدث امباريا ثم رأى الاثنين يسيران فاقطفى اثرهما .

وقد اجتازت القاعات حتى بلغت الى غرفة مقفلة ودخلت اليها .
فحاول ارتين ان يتبعها ولكن رولاند سبقه الى هذا الباب فدخل مكانه واقفل الباب .

أما امباريا فانها جلست على مقعد وقالت : واني مصغية اليك فاننا وحدنا الآن .

وقد نظرت عند ذلك الى الرجل الذي تحدثه فعلمت انه غير ارتين ووثبت من مكانها الى الباب .

غير ان رولاند حال بينها وبينه وقال لها : بلاء السكينة .

- اعلمي يا سيدتي انك اذا خطوت خطوة أو صحت صيحة جازيتك عن جرائمك بموت سريع تستحقينه من عهد بعيد .

فارتعشت رعباً لهذا الصوت وقالت لحدثها : من أنت ؟

فرفع رولاند البرقع عن وجهه فتراجعت امباريا منذرة وسقطت على المقعد الذي كانت عليه وقد وهت قواها من الرعب .

أما رولاند فانه جلس بجانبها وقال لها :

- اطمئي وأعلمي يقيناً انك إذا أصفيت الى بسكينة لا أمسك بسوء .
قالت : ماذا تريد ؟

قال : انك اعددت في قصرك حفلة باهرة اهنئك بانتظامها ولكني أما أن اكون مخطئاً أو تكون هذه الحفلة عدت لغرض من الأغراض .

— ماذا تعني بذلك ؟

— لقد اكدوا لي وأنا واثق مما يقولون انك أردت في هذه الحفلة ان
تقدمي بمنتك لأهل فينيسيا اليس كذلك ؟
فاضطربت وقالت : هذا أكيد .

قال : ولقد قيل لي انك لا تريدين الاقتصار على تقديم بمنتك بل انك
تريدين عقد خطبتها على القائد ساندريلو اليس كذلك ؟
— هذا أكيد ايضاً .

— اذن فاعلمي اني بحثت في جميع قاعاتك فوجدت الخطيب ولكني لم
أجد الخطيبة فخطر لي ان اسألك عن السبب في تخلف بمنتك عن هذه الحفلة
التي اعدت لها .

فارتعدت امباريا إذ علمت أو خيل لها انها علمت ما يدفع رولاند الى
سؤالها عن هذا الشأن لاعتقادها انه يحب بيانكا وانها تحبه وأنه لم يخاطر
بحياته ويأتي الى هذه الحفلة الا وقد دفعه يأس الغرام فهاج تأثرها وابتغيت
ان اضطرابها لم يكن الا اضطراب غيرة لأنها شعرت بانها لا تزال تحب رولاند
فقالت له بصوت يتهدج :

— أريد ان أعلم باي حق تسألني هذه الأسئلة ؟
فابتسم رولاند وقال :

— لقد التقينا قبل هذه المرة ودار بيننا حديث يشبه هذا الحديث يومئذ
فبات يحق لي ان أراقب اعمالك وأن اسألك عما أريد .
وقد قال لها هذا القول بلمهجة تبين فيها الوعيد فخافت امباريا
وقالت له :

— اني أجيبك على سؤالك فأقول ان بيانكا لم تحضر هذه الحفلة لأنها ابت
ان تحضرها .
— بل انك كاذبة .

فاطرقت برأسها لهذه الاهانة دون ان تجيب وهي لو خرجت من قم
سواه لمزقت عنقه باظافرها .

ولكنها رأت ان رولاند يستطيع ان يهينها دون ان تستطيع مجاوبته فهل
نشأ ذلك عن خوفها منه لأنه عارف باثامها كلا بل انها شعرت بسرور لهذه
الاهانة كما يفرح بعض النساء حين يضربهن عشاقهن .
ولذلك اجابت رولاند بلهجة ادهشته فقالت :

— ارحمني فاني اذا قلت لك ان بيانكا أبت حضور الحفلة فما ذلك الا
لأنني لا استطيع ان اقول غير ما قلت .

قال : ولكن يجب ان تقولي فاني اريد ان أعلم ما جرى لبيانكا .
— إذن انت تحبها ؟

وعند ذلك تفجرت الغيرة في صدرها حتى انها لو ظهرت لها بنتها في
تلك الساعة لقتلتها .

فلما سمع رولاند قولها لبث ساكناً منذها فاعتبرت امباريا سكوته
اعترافاً بذلك الحب فهاجت هياج اللبوة ووقفت وقالت بصوت مختنق :

— انك إذا تحبها .. حسنناً فستضعحك قليلاً لتعذبني بما يخطر لك من
انواع العذاب الذي عذبتني به قبل . انك اهنتني واحترقت كبريائي فاني
تعودت ان أفوز على جميع القلوب بنظرة ما عدا قلبك . نعم انك لم تشفق
علي ولم ترحمني حين طرحت قلبي عند قدميك بل انك سحقته هذا القلب
وجئتني الآن تقول انك تحب ولكنك لا تحبني ولا تحب ليونور بل تحب
بيانكا .. إذن فاعلم قبل كل شيء امراً لم تكن تعلمه من قبل وهو ان
بيانكا لا تحبك فقط بل تعبدك عبادة .

فارتعش رولاند وكانت تبتدره الحدة ولكنه كظم غيظه إذ كان يريد
ان يعلم كل شيء .

ونظرت امباريا الى وجهه فرأته قد اصفر وبدت عليه علائم الانفة
والاشمئزاز فقالت :

نعم انك تأنف ان تسمع مثل هذه الأقوال ولا تحترم قول غرام يخرج من محظية فيخدش سمعك يا حضرة النبيل .

إذن فاعلم ان بيانكا تحبك وليس هذا كل شيء ايها العزيز .. وهنا ضحككت ضحكة المنتقم .

انك تحب بيانكا ولكن يوجد رجل آخر يحبها وهو من أخلص اصدقائك إذ انه يمو الذي اختطفها منه مرة .. اما وقد عرفت ذلك الآن فتعذب كما عذبتني .. أتعلم أين هي بيانكا .. اين هي تلك الفتاة النقية الطاهرة التي لا عيب فيها إلا انها ابنة المحظية .. انها الآن بين ذراعي يمو وأنا التي قيمتها بين ذراعيه فابحث عنهما واطفر بهما اذا استطعت .

وعند ذلك سككت وهي عرضة لنوبة عصبية كانت تهز اعضاءها . فغضب رولاند غضباً عصبياً وجرّد خنجره وهو يقول في نفسه :
— لقد دنت ساعة هذه المرأة فلتمت .

ولكنه ما لبث ان اغمد خنجره وقال في نفسه :

— كلا لست أنا الذي يجب ان يعاقبها على هذه الجريمة .

وقد نظر الى امباريا نظرة صعقتها ثم خرج وهو يقول :

— مسكينة بيانكا اني أثبت لنجدتها بعد فوات الأوان .

ثم خرج من القصر واسرع الى أحد زعماء عصاباتة فقال له :

— سر بعشرين رجلاً الى قصر الكاردينال وادخل اليه بالرضى او بالعنف

فاذا وجدت يمو فيه فبحني به الى بيت الجزيرة ميتاً او حياً .

فأسرع الزعيم ممثلاً وتوارى عن الأنظار .

وقد وقف رولاند حزيناً منقبضاً يفكر في هذه الفتاة المنكودة ويقول

في نفسه :

— اني ما ابقيت على أمها إلا لأنها تحبها أما وهي التي دفعته الى يمو

فلتمت فانها لا تستحق الحياة .

وعند ذلك وضع برقمه على وجهه وارتدى بردائه بحيث لم يعد يعرف
وسار الى حيث كان سكالابرينو .

فلما رآه سكالابرينو قال له : ماذا حدث أيها الرئيس ؟
قال : اتبعني .

وقد أخذ يسير على شاطئ الترع وهو يفحص القوارب الراسية فيها
وسكالابرينو يتبعه دون ان يجسر على سؤاله الى ان وقف أمام سفينة جميلة
عظيمة الاتقان فقال له : أترى هذه السفينة ؟
قال : نعم .. ولكن بيانكا ؟

قال : صبراً واعلم ان هذه السفينة المحظية امباريا سمعت ؟
- نعم سمعت ولكن قلبي يحدثني بمصاب .
- لقد قلت لك صبراً فاصنع الى كل ما اقوله .
- اني مصنع .

- إذن فاعلم ان المدعويين سيخرجون قريباً من قصر امباريا وتسود
السكينة في ذلك القصر ولكنك تبقى في موقفك فلا تفارقه .
- هنا ؟

- هنا او في غير هذا المكان كما يوحى اليك فعندما ترى الجميع قد
انصرفوا ترى امباريا آتية الى هذه السفينة مع ساندريجو أفهمت ؟

- نعم ولكن فاعلم إذن ان امباريا وساندريجو سيذهبان للتمتزه في
هذه السفينة ولا اقول لك شيئاً بشأن هذا الرجل وهذه المرأة فان البقية
عليك أما الآن فافترض انه حدثت نكبة وان ابنتك لا نستطيع ان نردها
اليك هذه الليلة .

- إنني أؤثر يا مولاي ان اعرف الحقيقة مهما كانت هائلة فان بيانكا
حانت اليك كذلك ؟
- كلا انها لم تمت كما ارجوه .. ولكن اسمع ..

وعند ذلك أخذ يده بين يديه وجعل يحدثه بصوت منخفض فيسليه
ويعزبه حتى إذا أتم حديثه ووقف سكالابرينو على جليلة الأمر لم يبك ولم
يتمهد بل قال :
— حسناً يا مولاي .

فابتعد رولاند عنه وذهب فاخْتَبأ وراء شجرة وجعل يراقب فرآه قد
اقترب من السفينة التي دله عليها وجعل يحدث البحار الذي كان فيها فقال
في نفسه :

— لقد فهم قصدي وقد قضي على امباريا القضاء المبرم .
وعند ذلك انصرف وذهب الى جهة قصر الكاردينال دون ان يرى ودون
ان يرى سكالابرينو ايضاً امرأة واقفة على الرصيف تنظر اليهما .
أما هذه المرأة فقد كانت جوانا .

* * *

وأما سكالابرينو فانه دنا من سفينة امباريا .
وكان من عادة امباريا ان تعين لسفينتها بحاراً من النوبيين السود غير
انها حين كانت تحاول ان تتوغل في البحيرات تختار رجلاً من الأشداء الاقوياء
يحميها عند الاقتضاء من القرصان .
وكان هذا الرجل جالساً في مؤخر السفينة ينتظر والنماس قد دب
في جفنيه .

فناداه سكالابرينو وقال له : لي كلمة اقولها لك من قبل السيدة امباريا .
فأسرع الرجل اليه وقال له : ماذا تريد ؟
قال : لا أعلم ولكن إحدى نساء السيدة امباريا تنتظرك عند باب
القصر .

قال : ماذا تريد مني ؟

قال : خير طريقة لمعرفة ذلك ان تذهب اليها .
 قال : لقد اصبت وسار في طريق القصر وسكالايرينو يصحبه .
 وكان الظلام شديد الحلك فلم يسر البحار بضع خطوات حتى انقض عليه
 سكالالايرينو فألقاه الى الأرض وصفر صفيراً خاصاً فأسرع اليه نحو عشرة
 رجال فقال لزعيهمهم :
 — خذوا هذا الرجل ولا تسيثوا اليه ولكن لا تطلقوا سراحه قبل
 صباح غد .
 فقبضوا عليه ووضعوا الكمامة في فمه وانصرفوا آمنين .
 وعند ذلك ذهب الى السفينة بعد ان أخذ رداء البحار ومشعل ومجلس
 في مؤخر سفينة امباريا مكانه ووضع رأسه بين يديه فكان يظهر انه نائم
 والحقيقة انه كان يفتكر بأمور هائلة .

* * *

عندما ثابت امباريا الى رشدها رأت ان رولاند قد انصرف فقالت في
 نفسها :
 — انه ذهب للفتيش عن بيانكا ومحاولة الوصول اليها قبل بيبو ولكنه
 سيضل سعياً فانه لا يعرف الطريق التي سارت بها خلافاً للكاردينال فانه
 يعرفها .
 وقد فرحت فرحاً وحشياً حين خطر لها ان ابنتها ستقع في قبضة بيبو
 وان رولاند يطوف باحثاً عنها في فينيسيا واليأس ملء قلبه .
 وعند ذلك قامت الى مرآتها فأصلحت وجهها وعادت الى قاعاتها فخطر
 لها ان رولاند قد يكون باقياً في القصر وانها تستطيع القبض عليه .
 ولكنها رأت ان ذلك محال إذ لا يمكن ان يبقى في قصرها بعد ان اظمر
 لها نفسه فجعلت تسائل نفسها قائلة :

— ترى لماذا لم يبطش بي بعد ان جرحته هذا الجرح الهائل ؟

ألهل أشفق علمي أم يريد ان ينتقم مني انتقاماً أشد من القتل .

وعادت الى الاختلاط بالناس الى الساعة الثانية بعد انتصاف الليل حيث تفرقوا فتوكلات على ذراع ساندريجو وخرجت به الى السفينة فصعدت اليها ولم ينتبهها الى سكالابرينو إذ حسباه البحار فانه كان لابساً رداءه وهو في مؤخر السفينة فقالت : سر بنا في عرض البحيرات الى حيث تشاء .

فسار سكالابرينو بتلك السفينة يمخر العباب وجلس العاشقان تحت تلك الحيمة وقد أرخيت ستائرهما الحريرية وتبرقع القمر بالقيوم كأذنه خشبي ان يرى ما كان يتوقع ان يراه من المناظر الهائلة .

وفي الوقت نفسه كان قارب حقير يتبع تلك السفينة الفخيمة الى حيث سارت دون ان ينتبه اليه احد .

ولبت العاشقان يتنزهان نحو ساعة في البحر وقد شغلا بما هما فيه عن مراقبة سكالابرينو الذي كان قد توغل بهما حتى لم يعودا يريان المدينة .

وعند ذلك قال لها : لنعد الى البر .

قالت : بل لنقم هنيئة أيها الحبيب .

قال : ولكننا قد تأخرنا .

قالت : ألم يسكرك الحب كما اسكرني وما علينا إذا تأخرنا بل ما علينا إذا بقينا كذلك الى الأبد ؟

— ذلك لأني ..

— ماذا ؟ قل كل ما خطر لك .

— ذلك لأني أريد ان أرى بيانكا .

فارتعشت امباريا فجأة لقوله الذي نبت فيه عواطف الأمومة ولكنها كانت مضطربة اضطراباً عظيماً لفرار بنتها ولطاردة ميمو لها واطهور رولاند ولتلك الساعة التي قضتها مع ساندريجو وقد هاجت هذه العواطف المختلفة تأثرها حتى كادت تجن فضحكت ضحكاً عصبياً وقالت :

— بيانكا ؟

فقلق ساندريجو وقال : نعم بيانكا .

فخطر لها عند ذلك ان تبوح له بكل شيء وان تستبقيه لها فقالت :

— أتريد حقيقة ان ترى بيانكا ؟

— نعم ألا يحق لي أن أراها ؟

— ولكنها تكون نائمة في القاعة .

— لا بأس فهي تغفر لخطيئتها هذا الخطأ ولا سيما حين تعلم ان قلقي عليها

شديد فاني اريد ان اعلم لماذا لم تحضر الحفلة .

فضحكت ضحك الجاهل وقالت :

— أتريد ان تعرف الاسباب .. حسناً فأنا اقولها لك .. انها لم تحضر

لأنها تكرهك ولأنها تنذع من مراك فلیم تفتكر بها وهي تكرهك في

حين أنت معي وأنا أعبدك ؟

— اني اريد ان تكون لي يجملتك ولا أريد ان تقطع الغيرة قلبي .

وعند ذلك طوقت عنقه بذراعيها العاريين ولكنه دفعها عنه وهو يقول :

— اني اريد ان أرى بيانكا .

فاتقدت عينها بشرار الغضب وعضت الغيرة قلبها فهاجت انتقامها

وأثارت جنونها فضحكت ضحك المنتقم وقالت :

— إذا كنت تريد ان تراها فاسرع في أثرها .

فقبض ساندريجو على يدها وقال لها :

— ماذا تعنين ؟

قالت : اعني انها ليست في فيفيسيا وانها هربت منك وان يعبو يطاردها
ولا بد ان تكون في حوزته الآن .

فزأر ساندريجو زثير الأسود الضواري وصددها صدمة عنيفة القتها على
الارض .

فابتسمت وقالت له : اقتلني .

قال : أين هي ايتها الشقية ؟ تسلمي .

وقد قبض بيده على عنقها وحاول خنقها فقالت له :

— لا أعلم .

قال : وعبو ؟

— في طريق مستر .

— في طريق مستر .. لقد فهمت كل شيء .

وعند ذلك نهض عنها وأسرع الى باب الخيمة فنادى البحار قائلاً :

— ويحك أسرع بنا الى البر .

وقد فتح ستائر الخيمة فمزقها ولم يكند يرى البحار واقفاً في وجهه على

نور القمر حق صاح صيحة هائلة وقال :

— ماذا أرى ؟

أهذا سكالابرينو أم خياله ؟

فقال له سكالابرينو : بل هو بعينه ايها الفاجر الفادر ثم طعنه بخنجره

طعنة هائلة فاخترق الخنجر صدره وتركه مغمداً به فهو على ظهره قتيلاً

وباتت قبضة خنجره في صدره تشبه شكل الصليب .

وقد رأت امباريا هذا المنظر الهائل والدعر ملء قلبها فلم يغمى عليها

ولم تستطع ان تصيح صيحة اذا كان مثلها مثل من يصاب في حلمه بالكابوس .

وعند ذلك رأت سكالابرينو يدنو منها فحلت عقدة لسانها وقالت :

— رباه من هذا .. أوالد بيانكا ؟

قال : نعم أنا هو أيتها الأفعى .
ولم يقل بعد ذلك كلمة بل انه قبض على شعرها فجرها به الى طرف السفينة .
وهناك حملها بيديه القويتين ودفع بها الى البحر فهوت الى الاعماق .
وقد هوت السفينة لهذه الحركة العنيفة التي فعلها سكالابرينو وانقلبت .
وخرج صوت على قيد بضعة أمتار يمزق حجاب السكون .
غير ان سكالابرينو لم يسمع ذلك الصوت فجعل يسمح حتى بلغ الشاطئ وتوارى عن الانظار .

٥٢

قبلة جوانا الأولى

ان ذلك الصوت الذي مزق حجاب الفضاء خرج من قارب صغير كان يقفوا أثر سفينة امباريا .
وذلك ان جوانا كانت واقفة في ذلك القارب وقد رأت كل تلك الحادثة الهائلة التي لم تستمر اكثر من دقيقة دون ان تستطيع إنقاذ ساندريجو فصاحت تلك الصيحة التي لم يسمعها سكالابرينو لفرط اضطرابه .
وكانت قد أتت وهي نفسها لا تعلم ما تعمل ولكنها كانت موقنة من انه ستحدث فاجعة تقضي على رجائها القضاء المبرم فانها جاءت الى فينيسيا وليس لها غير قصد واحد وهو انقاذ ساندريجو ومنعه من الاعتماد على رولاند .
وقد عرف القراء كيف انها عرفت من ساندريجو نفسه انه يحب بيانكا فهربت الى قصر امباريا ليلة الحفلة وعولت على ان تدخل اليه بالسر فتقابل بيانكا .

ولكنها لم تلبث ان رأت سكالابرينو واقفاً عند باب القصر وقفة حملتها على الرية فاضطربت خطتها لوثوقها ان سكالابرينو انما كان كامناً اساندريجو كي يقتله .

وقد وقفت عند ذلك لا تفارق سكالابرينو لحظة وهي تتعذب عذاباً شديداً لغيرتها من بيانكا وخوفها على ساندريجو .
ثم رأت ان سكالابرينو أبعد البحار وأقام مكانه في السفينة فقالت في نفسها :

- لم يبق شك ان امباريا ستنزه في هذه السفينة مع بيانكا وساندريجو ولذلك أسرع إلى قارب صغير فأقامت فيه تنتظر كما كان ينتظر سكالابرينو .

إلى ان انتهت الحفلة ورأت ساندريجو قادماً الى السفينة وامباريا تتوكأ عليه بدلال فاشتد خفقان قلبها وقالت :

- ويح له انه يحب الأم ويحب البنات ويحب كل حياء تبدو له الا أنا وما ذلك إلا لأني صادقة في حبه .

وجعلت السفينة تسير ببطء وجوانا في اثرها وهي تسكاد تجن لاضطرابها فانها كانت تارة تهم أن تنادي ساندريجو وتحذره وتارة تعقد الغيرة لسانها فتثن انين الموجه وتطرق برأسها فتبكي .

الى أن حدثت تلك الحادثة التي تقدمت وبلغ سكالابرينو الشاطئ ساجماً فأسرعت الى تلك السفينة التي انقلبت وهي تهويح والهة فتنادي ساندريجو دون أن يجيبها أحد .

فنسيت من هو ذلك الرجل ولم تعد تذكر غير غرامها به فتقول ويلاه لقد مات قتيلاً فأبي رجاء بقي لي بعد الحياة ؟

وعند ذلك رأت على ضوء القمر ثوب امرأة ابيض عائماً على سطح الماء فأسرعت اليه وجذبتة حتى تمكنت من حمله بين يديه الى السفينة .

وهناك ركعت بجانب امباريا وحاولت أن تخنقها وقد أصيبت بما يشبه الجنون .

وعند ذلك شعرت ان امباريا قد تحركت ثم رأتها فتحت عينيها وقالت :
من أنت ؟

قالت : أنا التي أحبه .

— تحبين من ؟

— ساندريجو .

وقد هاج تأثرها عند ما ذكرت اسمه وعاولدها فكر القتل ولكنها رأت
ان امباريا قد ضحككت ضحكا عصبيا وقالت :

— تحبين ساندريجو .. هذا هو .. انظري .

فنظرت المنكودة الى الجهة التي أشارت اليها فرأت على ضوء القمر جسم
ساندريجو يتمرجح فوق سطح الماء قرب السفينة المنقلبة فالقت بنفسها الى
الماء وبلغت الجثة فطوقت عنق ساندريجو بذراعيها بحيث امتزج الجثمان
ولم يظهر منهما فوق الماء غير الرأسين .

وعند ذلك وضعت فمها على تلك الجثة الباردة بحنو لا يوصف وقبلته تلك
القبلة الاولى فكانت الأخيرة وهوى الجثمان الى الأعماق .

٥٣

امباريا

كان سكالابرينو قدلقى نفسه الى المياه ساعة انقلاّب السفينة وسار
ساجحا حتى بلغ الشاطئ فذهب الى بيت الجزيرة .
وكان رولاند ينتظره فكان أول ما قاله سكالابرينو انه سأل عن بنته .

فأجابه رولاند قائلاً :

- اننا لم نعلم شيئاً بعد عنها فقد بحثنا في منزل الكردينال فلم نجدها فيه .

فاطرق سكالابرينو برأسه اطراق القانطين ولم يقل كلمة فأخذ رولاند يده بين يديه وقال له :

- تشجع ايها الصديق فان بيانكا قوية صادقة العزيمة فلا خوف عليها من ممبو وسنجدتها كما فارقناها والآن قل لي ماذا صنعت بساندريجو ؟
- قتلته .

- امباريا ؟

- اغرقتها .

فجعل رولاند يتمعن بوجه هذا الرجل الذي يخبره بهذه الأسرار الهائلة بل السكينة . كأنه يروي رواية عادية .

أما سكالابرينو اذ كان صادقاً بشأن ساندريجو فقد كان مخطئاً بما رواه عن امباريا فانها لم تغرق كما توهم وقد رأينا جواثا انقذتها .

فلما غرقت جواثا مع ساندريجو بقيت امباريا وحدها في القارب ورأسها بين يديها لا تعي على شيء ولا تفكر بهذه المرأة وجعلت الأمواج تقذف القارب وتعيده الى الشاطئ من تلقاء نفسه .

ولما انتهت من سبات غفلتها كان الصبح قد أشرق والقارب قد بلغ الشاطئ فانتبهت ونظرت الى ما حولها فرأت بعض الناس ينظرون اليها من الشاطئ نظرات الاندهال فبدلت جهداً عنيقاً حتى نسيت ما مر بها وتمكنت من تسكين اضطرابها .

وعند ذلك دنت منها أحد النساء اللواتي كن على الشاطئ فقالت لها :
هل السيدة سقطت في الماء ؟

قالت : نعم هل يوجد بحار يستطيع ايصالي الى منزلي ؟

فأسرع رجل الى قاربها وقال لها ، اني لست بحاراً يا سيدتي ولكني
استطيع ايصالك فالى اين تريدان ان تذهبي ؟
قالت : الى قصر امباريا .

وجعل القارب يسير بهبطه وجزعها يشتد فقالت الرجل : ارجوك ان
تسرع السير وهناك اكافئك خير مكافأة .

قال : ان مشاهدتي ذلك الجمال الذي تعجب به ايطاليا بأسرها خير
جزاء لي .

فنظرت امباريا اليه نظرة الفاحص فرأته لابساً ملابس تدل على الفقر
فاثكرت هنيهة بماذا يجب ان تكافئه الى ان خطر لها خاطر فانزعجت
مشطاً من شعرها مرصعاً بالحجارة الكريمة فدفعته اليه وقالت :

- اني لا اكافئك بشيء لكونك اوصلتني ولكني أرجو ان تقبل مني
هذا التذكار مكافأة لك عما قلته لي .

فأخذ الرجل شاكراً واندفع يجذف فجعلت امباريا تنظر الى القصور
التي تمر بها الى ان مرت بقصر التياري فرأت امرأة واقفة في نافذة مفتوحة
تنظر نظرات تشف عن السويداء .

فأسرعت وادارت وجهها وهو يقول :

- ويلاه ... انها هي .. ليونور .. رجاك اعفي عني .

وبعد هنيهة وصلت الى قصرها وهناك غيرت ملابسها وعالجوها بالاستدفاء
ثم نهضت بعد الظهور وهي نشيطة كمادتها وقد نسيت أو تناست كل ما مر
بها فلم تعد تخاف غير أمر واحد .

وهو انها كانت تتوقع في كل لحظة ان ترى رولاند او سكالابرينو
داخلا اليها .

ولم تكن تفتكر بشيء غير هذا فان بنتها كانت تمثل لها كإنسان عرفته
من زمن بعيد ولم تكن تعجب الا لأمر واحد وهو انها كيف تحن على بنتها
هذا الحنان وهي تكاد الآن لا تذكرها وباتت تشبه في قلبها نباتاً غرس في
ارض قاحلة .

وكذلك ببو وساندريجو فقد ذهبوا من مخيلتهما وباتت تذكرهما كما يذكر
المرء حاملاً بعيداً بحيث لم يبق ماثلاً لها غير رولاند كانديانو فجعلت تبكي
بكاء الينا وعرفت انها منذ أتت الى فينيسيا لم تكن تحب حباً خالصاً غير
رولاند وانها لا تزال تمناه .

ومن عجيب امرها كانت تحبه بقدر ما تخافه فهي قد تبذل حياتها في
كلمة غرام تقولها له ولكنها تبذل كل مرتخص وغال كي لا تراه لشدة
ذعرها منه .

وما زاد اضطرابها انها رأت ليونور في النافذة فعدت هذه الرؤيا انذاراً
لها بنكبة عظيمة وأقامت في غرفتها تفتكر بهذه الأمور الهائلة بينما كان
رولاند يعتقد انها ميتة .

ثم خطر لها خاطر كان خلاصة ابحاثها وهي انها لم تجيء الى فينيسيا الا
من أجل رولاند وان رولاند يحترقها ويكرهها دون شك وانه قد يكون
هو الذي سلح سكالابرينو ودفعه الى ما فعل .

وقد تجسم هذا الخاطر في مخيلتها حتى تمكن الرعب في قلبها ورأت انه
لم يبق لها بد من الفرار .

وعند ذلك نادت وكيلها وتداولت وإياه نحو ساعتين حتى اذا انتهت
المداولة نهض وهو يقول :

— سأنفذ كل أوامرك يا سيدتي وسأحضر لك بنفسني ثمن القصر وما فيه
من الأثاث والرسوم .

قالت : ما عدا الرسم الذي أخبرتك عنه .
 قال : دون شك يا سيدتي ولم يبق عليّ الآن إلا ان أعلم الى أية مدينة
 من المدن الايطالية تريد ان أوافيك .
 قالت : الى رومة .

وعند ذلك انصرف الوكيل وجمعت امباريا كل ما كان عندها من الحلي
 الثمينة والذهب وبرحت القصر في ظلام الليل دون ان تصحب معها احداً
 من خدمها فركبت قارباً واجتازت به البحيرات فلقبت وكيلها ينتظرها
 على الشاطئ وقد أعد لها مركبة فركبتها واجتازت بها ايطاليا بسرعة
 وهي تبذل الذهب بسخاء في الطريق كي لا يعيقها عائق عن مواصلة السير
 الى ان وقفت بها المركبة في صباح يوم عند باب احد القصور في رومة
 فتنفست الصعداء وقالت :

- الآن نجوت .

وقد دخلت الى قصرها وجعلت تنفق غرفه بفرح لا يوصف وهو فرح
 أمان بعد الخوف وللحال أمرت بإصلاح ذلك القصر ووزعت رقايع الدعوة
 على فتيان رومة تبشروهم بعودتها اليهم كما كانت تلك الحفلة التي أعدتها في
 فينيسيا حفلة الوداع .

وفي الليل اضطجعت في سريرها وجعلت تناجي نفسها فتقول :

- أف لفينيسيا وترعاتها وشوارعها الموحلة وجواسيسها الأذنياء وخناجر
 رعاها اللامعة وكل ما يرغبني فيها فلتسقط فينيسيا ولتحيا رومة وشمسها
 الذهبية وفتيانها الظرفاء فاني هناك لم اكن غير المحظية الحسناء وأما هنا فاني
 ملكة المحظيات .

وقد نامت تلك الليلة آمنة مطمئنة وقد ماتت في قلبها بيانكا وببجو
 وساندرينو حتى رولاند كانديانو فقد مات الجميع لديها من عشيقها دافيليا
 الذي قتله بيدها الى ساندرينو الذي قتل أمام عينيها .

وكان قصرها من اجمل قصور رومة وهو مبني في شارع لا يقيم فيه غير
النبلاء والكرادلة وكبار السيدات فاحدثت عودتها تأثيراً عظيماً في تلك
العاصمة .

وبعد اربعة ايام اعدت حفلتها الشائنة فكانت حفلة بدعية ظهرت فيها
امباريا يجالها الرائع .

حتى اذا انتهت الحفلة تفرق المدعوون وهم يعجبون بلطف امباريا وهي
لاهية بفوزها فرحة بانتصارها .

ولم يبق من بين جميع اولئك المدعوين غير واحد فدنا منها بعد ان
انصرف جميع الناس ونزع برقمه فصاحت امباريا صيحة رعب قائلة :
- بمبو ؟

فالتحنى الكاردينال امامها وقال : نعم انا هو فما بالك ذعرت مني ؟

فاصفر وجه امباريا وقالت له بصوت يضطرب :

- ماذا اتيت تعمل هنا ابقيت علائق بيننا ؟

قال : دون شك .

قالت : ما هي ؟

قال : ابنتك يا سيدتي .

٥٤

جنون بيانكا

فلندع الآن امباريا مع الكاردينال ولنعد الى فينيسيا بل الى ضواحيها
اي الى تلك الغابة التي تركنا بيانكا فيها .

فلقد تركناها وقد أدر كها بمبو فذعرت ذعراً لا يوصف وتوهمت انه رجل

الغابات بينما كان يعبو ينظر اليها وقد فرح فرح الوحش الضاري وقد ظفر بالفريسة .

أما بيانكا فأنها التفتت وهي تكاد تجن رعباً فعرفت يعبو ووثبت لفورها بعد ان كانت قد سقطت جاثية على ركبتيهما وقالت له :

— من انت ؟

فقال لها بلهجة المتعطف :

— كيف ذلك ألا تعرفين من أنا ؟

— نعم لقد رأيتك مرة أو مرتين ولكني لم اعرفك فمن أنت ؟

فتنهده يعبو تنهداً عميقاً وقال :

— إذا كنت تريدن معرفة اسمي فقد سمعته مراراً وسمعت الناس يلفظونه بـلاء الاحترام فاني ادعى يعبو وأنا كاردينال وأسقف فينيسيا أي اني رجل عظيم ولا احد لسلطتي في فينيسيا .

وقد جمعت من الذهب والجواهر ما لا يقدر بـشمن ولي قصر يناطح السماء فعندما يمر به الناس ينظرون اليه نظرات تشف عن الرعب والاحترام لأن جميع الناس يعلمون ان الدوج آلة في يدي فاذا اردت قطعت الرؤوس وإذا اردت فتحت ابواب السجون بكلمة تخرج من فمي .

— وماذا تريد مني ؟

— أريد ان اضع هذه السلطة وهذه الثروة تحت قدميك فاصغي إليّ ايها الفتاة إذا قلت لك من أنا وسأقول لك من انت .

انك تدعين بيانكا وامك تدعي امباريا فانت ابنة الصدفة والإتفاق إذ ليس لك أب يعرف أي انك لست شيئاً مذكوراً .

وان أمك تدعي امباريا أتعلمين ما معنى هذا الاسم .. انه يفيد معنى الحب الفاسد والشهوات المنكرة وانه اسم امرأة تكون ملك الغني فهي مثال الحجل والحطة والعار وانت ابنة هذه المرأة فاذا رآك الناس لا يقولون

هوذا فتاة حسناء قد مرت بل يقولون هذه هي امباريا وهذا كاف للدلالة على انك ابنة الخجل ورجائي ان تكونني فهمت قولي فماذا تقولين ؟
فلم تجبه ببيانها بحرف ولكن عيها كانتا تتكلمان عنها بفصح لهجة تدل على الاختقار .

فاضطرب بمو وقال في نفسه : أأكون كردينا لا عظيما وتحتقرني ابنة محظية ولكنها حسن الطالع في قبضة يدي ثم قال لها :

— أما الآن فقد عرفتني وعرفت نفسك وعرفت اني بفضل سلطتي وثروتي اخضع اهل النساء لارادتي وانك أنت لا ينظر اليك رجل نظرة اخلاص على جمالك فانهم لا يحبون بنات المحظيات حبا صادقا بل يشترونهن شراء كما يشترون امهاتهن فكيف تسكتين بعد ذلك وقد قلت لك اني أتيت لأضع سلطتي وثروتي تحت قدميك .

فقال بصوت سمعه بمو :

— يا الله ما أشد هذا القبيح .

ولم تقل هذا القول خصيصا بل أنه خرج من فمها من تلقاء نفسه حتى انها لم تكن تريد أن يسمعه .

فاصططت اسنان بمو ولكنه كظم غيظه وقال :

— نعم اني قبيح ولكن الجمال الحقيقي هو جمال النفس لا جمال الوجه وانك لم تعرفيني بعد حتى العرفان فقد كنت منذ بضعة أعوام أدنى من البهارة في المنزل فاصبحت اليوم وأنا اعظم عظيم في البلاد وكل ذلك بفضل ما أوتيته من الصبر وقوة الارادة وحسن الخيلة فاذا عرفت ما فعلت فاعلمي ما سأفعل وهو قول لم اقله لأحد سواك بل هو قول لم أكس أجسر على ان اتجس به نفسي فاني كنت استطيع بما أنعم به الله علي من الذكاء والرجاء ان اذهب الى رومه وأبلغ فيها ما تشاء مطامعتي ولكني تخلت عن جميع ذلك من أجلك .

وقد سكنت هنية على يسمع كلمة منها فلم تفه بجرف فقال لها :
- ما بالك لم تجيدينني ألم تسمعي ؟

قالت : كلا .

قال : كلا بل سمعتني ولم تفتك كلمة من أقوالي فاصغي الي أيضاً ايتهما
الحسنة واعلمي اني لقيت فيك من العذاب ما لم يلقه بشر منذ رأيك فهل
تعطين علي بنظرة رضى وإذا كان عذابي ودموعي لا يؤثران على قلبك ولا
يجدان فيه ذرة من الرحمة فما انت من النساء .

وبعد فماذا اسأت اليك فكهرتني هذا الكره أني لم أكلّمك مرة وانت لا
تعرفيني فلا يمكن ان تكهريني ولكني اقرأ سطور الكره بين عينيك .

ولماذا هذا الكره وانت تعلمين يقيناً اني أحبك أصدق حب وأنى سأكون
السلم الذين ترقين عليه الى قمة المجد وانى أبذل كل ما لدي من سلطة ونفوذ
ووجاهة ومال في سبيل سعادتك فكيف لا ترحمينني الا يمكن ان اجد في
قلبك القاسي ذرة من الشفاه ؟

قالت : كلا .

فتنهّد عند ذلك تنهّداً عميقاً واحمرت حدقتاه ومد يديه اليها فتراجعت
منذرة ولكنها كانت متأهبة للدفاع .

فارتجف ببؤى ورأى بفطرته الفاسدة أنه لم يبق له بد من استعمال العنف
فهبهم عليها وهو يقول :
- ستكونين لي بالرغم عنك .

ولكنه قبل أن يبلغ اليها تراجع وهو يصيح صيحة ألم والدم يقطر
من يده .

ذلك ان بيانكا اسرعت الى امتشاق مديّة كانت قد خبأتها في صدرها
وطعنته بها حين هجم عليها .

ولكنه لم يبال بذلك الجرح وهجم عليها ثانية فتراجع ايضاً وقد أصيب
بجرح آخر في ذراعه .

فان بيانكا كانت واقفة والمديّة في يدها وقد عازمت على ان تدافع عن
نفسها دفاع القناطين فاذا لم تفز بدفاعها قتلت نفسها .

وقد دام هذا الخصام بينهما بضع دقائق وبيانكا على غاية الحذر إذ
كانت تعلم يقيناً انه إذا قبض على يدها تمكن من الفوز عليها .

ولكنه لم يتمكن من الوصول الى يدها فلما أصيب بالجرح الخامس مسح
الدم عن وجهه وابتعد عنها خطوتين فقال :

- كفى فاطمئني فاني لا أمد يدي اليك ولكني لا أعلم ماذا يكون
مصيرك في هذه الغابة المقفرة والى اين تذهبين .

اني لا اسألك شيئاً الآن بل اسألك ان تعودي معي .

فلم تجيبه بيانكا ايضاً وأشارت برأسها إشارة سلب فقال لها :

- الا تريدن ان تعودي معي ؟

فاشارة الإشارة نفسها فقال :

- إذن اصغي الى فلا اكلمك بعد الآن وانصرف وحدي إذا لم اقنعك
واعلمي اني أريد ان أرجعك الى فينيسيا وهذا لا بد منه وثقي اني لا اكلمك
كلمة في الطريق ولا أدنو منك وانك لا تريدن ان تكوني لي فليكن ما
تريدن ولكني لا أريد ان تكوني لسواي .

ولما رآها مصغية اليه مضى في حديثه فقال :

- اني سأدع لك الخيار بعد هنيهة بين أن تعودي معي إلى فينيسيا وبين
ان تذهبي الى حيث تشائين فاذا رضيت ان تعودي معي اقسمت لك اني
احترمك واذا أبديت انتقامك وكان انتقامي هائلا لا يخطر في بال انسان .

وهذا لا بد لي أن أخبرك كيف يكون انتقامي فاعلمي .

اني كلمتك في بدء حديثي عن أمك وأنت ربما تعتقدين انها محظية فقط

ولكنك واهمة في اعتقادك فان لأملك قصرأ في فينيسيا تنفق عليه خمسمائة الف ريال في العام وانت تجهلين كما يحفل جميع الناس كيف كان استيلاؤها على هذا القصر .

فاعلمي اذن ان صاحب هذا القصر كان يدعي جان دافيليا وهو من اعضاء مجلس العشرة ومن كبار النبلاء .

أما هذا الرجل فقد مات قتيلا بعد ان كتب وصيته بيومين وقد ترك في وصيته هذا القصر للمحظية امباريا .
انك لم تفهمي بعد فافهمي فان الذي قتل جان دان دافيليا كان املك .
فذعرت الفتاة وقالت : يا للهول .

قال : يظهر ان حديثي بدأ يؤثر عليك والآن فاعلمي ان لدي أدلة وشهود من كبار النار يشهدون ان أملك القاتلة فماذا تقولين اتسكتين ايضا .
وهنا سكوت قليلا بينما كانت بيانكا تبذل جهداً عنيماً كي تمنع نفسها عن الاغواء فمضى في حديثه فقال :

— انك اذا صحبتني الى فينيسيا ابقيت هذا السر مكتوماً فلا أبوح به لأحد وإذا اضطررت للعودة وحدي وشيت بأملك حين وصولي فقبضوا عليها وقتلوها بعد اسبوع .

ولو كان بمو الح عليها لارتابت في قوله ولكنه قال لها هذا القول وادار ظهره فصار سيرا بطيئاً .

وقد كان موقف بيانكا في تلك الساعة حرجا إذ كان يجب عليها ان تختار بين موتها وبين موت امها .

وقد تمثلت لها أمها بأيدي الجنود وهي مساقة الى ساحة الاعداء فارتعشت فرائصها ومشيت في أثر بمو .

أما الكوردينال فشمع انها تسير وراءه فلم يلتفت وفرح فرحاً لا يوصف وعظم في عيني نفسه إذ تمكن من اخضاع هذا الظبي النفور .

ولبت سائراً ساكتاً ولكنه كان من حين الى حين يشعر بلمهيب الجرح الذي أصابه ويفتكر انه لولا هذه المدينة التي كانت معها لكان فوزه مضموناً فيشن اذن القانطين ويفتكر بطريقة تمكنه من تجريدها من هذا السلاح .

وفيا يفكر بذلك خطر له فكر هائل وهو أن هذه الفناة تسير وراءه وانها قد تطعنه بين كتفيه طعنة تكون القاضية فالتفت فجأة فرآها تسير على قيد بضع خطوات منه والمدينة مشهورة بيدها فعماد الى المسير .

وما زالا سائرين حتى وصلا الى الشاطيء ورأى البحار لا يزال ينتظر في القارب فأشار اليها أن تصعد اليه .

أما بيانكا فانها ترددت لحظة في البدء ثم تمثلت لها أمها يسرون بها الى ساحة الاعدام فارتعشت واسرعت بالصعود الى القارب .

٥٥

العداء

عرف القراء ان ارتين الشاعر كان من اشد الناس جبناً في حين انه كان يفاخر الناس بجراته وانه لم يعترف بهذا الخوف الا لرولاندا .

وهم يذكران ايضاً انه هو الذي دعا امباريا الى محادثته بأمر خطير فلما وصل وإياها الى الغرفة دخلت قبله ودخل رولاندا مكانه في اثرها واقفل الباب في وجهه .

وقد عاد ارتين عند ذلك الى القاعات وهو راض عن نفسه لأنه خدم رولاندا خدمة كان حليفها الفوز .

ولكنه ما لبث ان هلع قلبه من الخوف إذ قال في نفسه :

— ان امباريا عدوة رولاندا اللدودة وانه لا يد من حدوث خصام بينهما

يكون الفوز فيه لرولان لا محالة وان امباريا سوف تذكر انه هو الذي
 خدعها هذه الخدعة فترسل احد أعوانها فيقتله شر قتل .
 ولم يكذب يخطر له هذا الخاطر حتى هرب مسرعاً الى منزله فاقفل الابواب
 وتحصن به كأنه في حصن يهاجمه الاعداء .
 وعند ذلك رأى أنه لا يستطيع الرقاد لشدة خوفه فجمع نساءه وجعل
 يعاقر وياهن المدام ويروي لهن النوادر المختلفة عن شجاعته النادرة المثال
 حتى اقبل الصباح وهو على ما هو فيه .
 وفيما هو على ذلك قرع الباب الخارجي بعنف فملع قلبه وأرسل أحد
 خدمه يستطلع فعماد وهو يقول :
 - ان الطارق الكاردينال يهبو يصحبه امرأة .
 فأمره أن يسرع بفتح الباب وهرع لاستقباله فلما قظاها بالدهشة
 وقال له :
 - ما هذا الاصفرار الذي يتولاك وما هذه الجراح التي بيديك ؟
 فجلس يهبو على كرسي وهو خائر القوى وقال له :
 - اني مؤتمنك على سر تقسم لي بشرفك على كتمانها فان هذه الفتاة التي
 تراها أريد ان تختبئ عندك بضعة أيام فانها لا تكون في مأمن الا إذا كانت
 عندك ورجائي أن يعاملها نساؤك بما تستحقه من العناية والاكرام .
 فانحنى ارتين أمام بيانكا المنكودة وقد ظهرت عليه عـلائم الشقاق
 الأكيد وقال :
 - انها تكون عندي كما لو كانت في منزل ابوها .
 ثم قرع المائدة وفادى امرأة من نساؤه تدعى بيريتا فقال لها : اني اعهد
 اليك بحراسة هذه الفتاة فاعتبري انها اختك .
 فدنت بيريتا منها وهي تبتسم لها الطف ابتسام فتأبطت ذراعها وهي
 تقول لها بلهجة اشفاق :

- ثقي ايتها السيدة اني ما زلت بقربك فلا سبيل الى الخوف .
وقد عرف القراء كيف ان بيانكا رضيت ان تعود الى فينيسيا مع ميمو
فلما صعدت الى القارب وسار بها يخرق الامواج اصببت بئس شديد .
وذلك انها خطر لها انها ستعود الى قصر امها وهناك تعود الى سلطة
ساندريجو اذ تكرر لها امها على الزواج به وفي هذا الفكر وحده ما يدعوها
الى اليأس ذلك فوق ما تجده من النفور من عيشة امها .

ولكنها كانت امها ولا سبيل الى مجافاتها ولا الى مجافاة هذا الكاردينال
الهائل فان الاعداء يتهدد تلك الأم .
وقد اضطربت في أمرها وقنل لها الموت ففضلته على العودة الى منزل
أسمها ولكن ساذا تصنع وإلى اين تذهب .
وما زالت هذه الافكار تتنازعها حتى رأت ان القارب قد وقف عند قصر
لم تكن تعرفه .

ولم يكذ الكاردينال قد كلمها كلمة على الطريق وفاء بوعده فلما وقف
القارب قال لها بلاء السكينة:

- أصغي الي فاني سأوجز القول وعليك ان تختاري .
انك لا تريد ان تكوني لي فليكن ما تريد ولكني اقسم بالله انك
لا تكونين لسواي .

وهذا منزل صديق امين سأقيمك فيه فاذا وافقت علي اقترحي فلا
خوف على أمك وإذا أبيت وأردت ان تذهبي وأنا لا أمنعك فلا تقضي ساعة
حتى تكون أمك بيد الجلاد وهي متهمة بقتل جان دافيليا .

والآن فاختراري بين ان تلبيعيني وبين تذهبي الى حيث تشائين .
وعند ذلك فعل كما فعل حين كان في الغابة أي أنه أدار ظهره ومشى دون
ان يلتظر جوابها .

فتبعته بيانكا كما تبعته هناك وهي ترجو ان تتمكن من إيجاد طريقة

سرية تخبر بها أمها عن تلك التهمة التي يتهمها بها الكاردينال فوق هربت أمها
تطمئن هي عليها وتهرب بدورها .

فلما ذهبت بيريتا بها بقي بمبو وارتين فقال له الكاردينال :

- هذه هي الفتاة التي حدثتك عنها .

قال : أهذه هي التي ...

- نعم هذه هي التي يجب ان يفسد نساؤك اخلاقها .

فأطرق ارتين برأسه الى الأرض ولم يجب .

فقال له بمبو بلمهجة المتوعد :

- ما هذا ؟

قال : من هي هذه الفتاة ؟

- ألم اقل لك انها ابنة المحظية امباريا ويجب ان يكون في عروقتها دماء
محظية ولكنها لم تختلط بعد بالناس ولم تعلم شيئاً من سير امها أي لا تزال
على القرية التي تعلمتها في المدارس على انها إذا عاشرت نساءك عشرة أيام
تصبح كما أريد ان تكون فما تقول ؟

- اقول أني اشفق عليها .

- ولكني سأقتل هذه الشفقة بكلمة اكتبها فهات معدات الكتابة فانه
لا يزال لك خمسة الاف ريال ... هات معدات الكتابة لأكتب لك حوالة بها
على الخزينة .

- لا حاجة الى ذلك .

فذهل بمبو وقال : ماذا تقول ؟

- أقول أني أؤثر ان تبقي مالك لك .

- اهذا انت الذي أسمعه ام اني من الحالمين ؟

فتنهذ ارتين وقال : كلا بل انت في يقظة .

فقيد بمبو هذا التنهد بحساب الخمسة آلاف ريال .

وقد كان مصيباً فان ارتين كان من عشاق المال وقد تنهد حقيقة لخسارته هذا المبلغ الجسيم .

ولكنه رأى تلك الفتاة فرأى الطهارة ماثلة في جبينها واليأس يبدو في عينيها فاشفق عليها اشفاقاً اكيداً .

ثم أنه كان من أهل الغنون الجميلة . وقد قابل بين جمال بيانكا وقبح بمبو فانف من أن يدفعها اليه وفضل خسارة المال .

وفوق ذلك فانه كان لا يزال خائفاً من ان تبحث عنه امباريا وترسل له من يقبض عليه ويقتله لأنه خدعها بادخال رولاند اليها فما يكون مبلغ حقدتها متى علمت ان بنتها عنده .

ولذلك قال لبمبو :

- انك غير حالم وأني ارفض ذلك المال الذي تعرضه علي .

غير ان الكاردينال لم يكثر لقوله فقام لنفسه فاحضر دواة وقلماً وكتب الحوالة على ورقة فامضاها ودفعها اليه قائلاً :

- خذ ايها الصديق .

قال : كلا . ولكنه نظر الى الحوالة نظرة كثيفة فقال له الكاردينال :

- اذن انت تريد ايها الصديق ان تضطرنني الى ان أعمق البحث في شأن

سفارتك الى جان مدسيس .

وقد قال الكاردينال هذا القول من قبيل الالهام فانه لم يكن يعلم شيئاً

من اتفاق ارتين ورولاند ولكن الريب كان يخامر قلبه .

أما ارتين فانه بعد ان سمع هذا القول اضطرب ووثق ان الكاردينال

عالم بالحقيقة وانه قد يشي به الى الدوج فيرسله الى سجون الابار حيث يموت

فيها شر موت فرعب رعباً عظيماً .

وكان الكاردينال لا يزال باسطاً اليه يده بالورقة فأخذها وهو يقول :

- أي دخل لي بهذه الشؤون ؟

فقال له الكاردينال : إذن لقد بقينا ايها الصديق على اتفاقنا القديم ؟

قال : نعم ولا انكر اني اشفقت هنيئة على هذه الفتاة .

كلا لا يجب ان تشفق عليها بل يجب ان تكون هذه الشفقة علي وبعد فلما تشفق عليها وهي ابنة محظية احببتها حباً قاتلاً وسأجعلها من اسعد النساء وارفعهن شأناً وأبعدهن نفوذاً في حين انها معرضة لغرام اقل الفتيان شأناً فيعيبث بها ويجعلها من عامة الناس وعند ذلك الا تشفق عليها ؟

فاعتذر ارتين عما بدر منه وبعد هنيئة فارقه الكاردينال وهو يقول :

— اذكر اني معتمد عليك وعلى نساءك في تقويم اودها .

قال : انك لا تذكر ناسياً وقام فودعه الى الباب ثم عاد وهو مطرق

يفكر الى ان قال :

— ويح لي ما هذا الجنون الذي اصابني وما هذا الاشفاق على هذه الفتاة فقد رأيت كثيرات مثلها مع جان مدسيس فليحدث لبيانكا ما كتب لها وليفعل بعبو ما يشاء أما انا فخير ما اعمله الآن ان أدخل الى مخدعي وانسى هذه السفاسف بالرقاد .

٥٦

الكاردينال

عندما عاد الكاردينال الى منزله كان النهار قد طلع فلما وصل اليه وجد أحد خدمه واقفاً عند الباب الخارجي فأسرع الخادم اليه حين رآه وقال له :

— مولاي ما هذه الليلة الهائلة التي قضيناها ؟

فأسكنته الكاردينال إذ رأى رجلاً يسيران بالقرب منه ودخل معه الى المنزل فقال له :

— قل الآن ما جرى وأوجز في القول .

قال : انهم دخلوا القصر في هذه الليلة دخول المغتصب .

فقطب حاجبيه وقال : ألعلمهم لصوص ؟

— كلا يا مولاي فانهم لم يمسوا شيئاً من ريش القصر كما تبينت بعد رحيلهم .

فاصفر وجه الكاردينال حين أيقن انهم غير لصوص ونظر الى الخادم كأنه يأمره ان يمضي في حديثه فقال الخادم :

— لقد كانت الساعة الخامسة بعد انتصاف الليل وجميع الخدم نيام إلا أنا فقد لبثت ساهراً بأمرك .

عند ذلك سمعت قرع الباب الخارجي وعلمت انك لست انت الطارق لأن القرع لم يكن بالشكل الذي اصطليحت عليه فلم افتح .

ثم تكرر الطرق ولما لم افتح الباب كسروا القفل فجعلت أصرخ مستغيثاً فاستفاق جميع الخدم وبادروا الى نجدي .

وعند ذلك ففتح الباب ودخل منه عصابة كأنهم من مرده الجن فقبض بعضهم علينا وأثار بعضهم المصابيح .

ثم جاء رئيسهم وسألنا قائلاً : أيكم خادم غرفة الكاردينال ؟

فقلت له : أنا هو قدنا مني ووضع غدارته على صدري وقال لي :

— سر بي الى غرفة مولاك .

فلم أجد بداً من الإمتثال وغدارته منصوبة الى رأسي وذهبت به الى غرفتك لعلمي انك لست فيها وهناك سألني قائلاً :

— أين هو مولاك ؟

قلت : انه مسافر .

— انك كاذب .

— بل اقسم بالعدراء .

— إذن سر أمامي فاني اريد ان أرى جميع غرف القصر .

وعند ذلك تفرق جميع رجال تلك العصابة في القصر ففتشوه أدق فتتبعون حق انهم كانوا يفتشون تحت الأسرة ووراء الستائر فلما لم يجدوا انصرفوا دون ان يسيثوا الى أحد منا بشيء .

فقال يمي في نفسه والذعر ملء قلبه : إنه رولاند دون شك .

ثم قال للخادم : دعني الآن وحدي فاني محتاج الى الراحة وعد إلي بعد ثلاث ساعات .

— حسناً يا مولاي .

— وأقبل كل شيء وذهب الى السنيور جينارو رئيس البوليس فأورد ما حدث وقل له ان يأتي لمقابلتي ثم سله بلساني ان يرسل عشرين جندياً لحراستي فأننا في زمن لم يبق فيه أمان حق لأمر الكنييسة . فامتل الخادم وذهب مسرعاً لتنفيذ الأمر .

وخلا يمي الى نفسه فقال : نعم ان رولاند يتعقبني وانه مقيم في فينيسيا لا يراه احد فيها على كثرة الرقباء والجواسيس وكلما نصبوا له فخاً نجأ منه كأنه من الأبالسة .

أما أنا فلا سبيل لي الى النجاة منه بغير الفرار فأنه قد ضيق الحلقة علي وإذا لم أسرع بالفرار قضى علي القضاء المبرم .

وقد تقدم لنا بيان خطة الكاردينال فانه كان يحاول ان يبرح فينيسيا ببيانكا بعد ان يتم نساء ارتين تدرييها على ما يريد في مدة اسبوعين .

أما الآن فقد رأى انه لم يبق له سبيل الى البقاء اسبوعين بعد ان أيقن ان رولاند يتبعه ولذلك عزم عزم أكيداً علي ان يبارح فينيسيا في الغد مع بيانكا ونام .

- وبعد ثلاث ساعات استفاق واستقبل رئيس البوليس فقال له :
- قد أخبرك خادمي بما اتفق لي ليلة امس وإنما دعوتك إليّ لأستطلع
ك في هذه الحادثة .
- قال : أرى ان هذه الحادثة متفقة مع حادثة خطيرة ايضاً تجهلها دون
ومع حادثة سوف تحدث .
- ماذا تعني بما تقول ؟
- انهم وجدوا في التربة الآن جثتين جثة رجل وجثة امرأة أما المرأة
ا تدعى جوانا ولا شك ان نيافتكم لا تعرفونها .
- كلا .
- إننا راقبنا هذه المرأة مدة طويلة ثم توارت عن أنظارنا وإنما كنا
بها لوثوقنا انها كانت تخدم ابن الدوج السابق خدمة سرية .
- رولاند كانديانو ؟
- نعم فان نيافتكم لا تجهلون انه لا يزال يطمع بأن يخلف أباه .
- أما جثة الرجل فهي جثة لص قديم تعين أخيراً بين قواد الجيش دون
علم احد سبب هذا التعيين .
- ساندريجو ؟
- فابتسم رئيس البوليس وقال : ألع نيافتكم تعرفون هذا اللص ؟
- أعرف انه خدم الجمهورية خدمة جلييلة .
- وبعد ان تمن هنيهة قال : إذن لقد قتل ساندريجو ؟
- اني لم أقل لنيافتكم انه قتل ولكنكم عرفتم الحقيقة كما يظهر فانه
ب بخنجر في صدره .
- ماذا تظنون بهذه الجريمة ؟
- أظن ان جوانا قد قادت ساندريجو الى كهين وان رولاند قتله .
- ولكن هي ماتت ايضاً ؟

- ربما قتلوها لأنها ارتكبت خيانة ولكنني أرى اني أوثر على نيافتكم بهذه الرواية .
- كلا كلا فامض في حديثك فقد قلت لي انه يوجد حادثة اخرى .
- نعم وهي ان الجثتين وجدتا في التربة كما قلت لكم ولكن وجدوا أمامهما سفينة منقلبة وهي بديعة الاتقان .
- انها دون شك سفينة ذينك المنكودين .
- ربما .. أمـا أنا فقد عرفت السفينة لفوري وهي سفينة امرأة ولا بد ان تكون نيافتكم سمعت بذكرها ولكنني لا أجسر على التصريح باسمها في هذا المكان المقدس .
- لا بأس فاذكر لي اسمها .
- إنها محظية شهيرة تدعى امباريا .
- ماذا تقول ألعل هذه المحظية قتلت ايضاً ؟
- وقد اضطرب الكاردينال في نفسه اضطراباً شديداً فقال في نفسه : لقد قتل ساندريجو وقتلت امباريا فجاء دوري لا محالة .
- أما رئيس البوليس فقد قال له :
- كلا يا سيدي فان كان أمر هذه المرأة يهمكم فاعلموا انها لم تقتل وانها مقيمة في قصرها وقد تأكدت ذلك اذ خطر لي البدء في انها هي القاتلة على انها إذا لم يكن لها يد في القتل فان لها دخلاً في الحادثة دون شك بدليل انها تتأهب للسفر وانها ستبحر فيلبيسيا غداً الى رومة .
- وأية علاقة ترى بين هذه الحوادث وبين قتل ساندريجو وسفر المحظية والهجوم على منزلي ؟
- لا أجد علاقة ولكن خطر لي ان أولئك الناس الذين قتلوا ساندريجو واكروها امباريا على الفرار قد يكونون نفس الذين هجموا على قصركم .
- ترى ماذا يقصدون ؟

- لا أدري غرباً كان ذلك انتقاماً عن حقد شخصي .
- أظن ان رولاند كانديانو حاقداً عليّ وأنه يريد الانتقام مني .
- وقد قال الكاردينال هذا القول وندم عليه إذ رأى رئيس البوليس يبتسم ابتساماً دله على انه يعرف كثيراً من الاسرار .
- أما الرئيس فانه قال له :
- مهما يكن من الأمر يا سيدي فلا يمضي زمن قليل حتى أقف على الحقيقة بشأن الهجوم على قصركم ولكن إذا أذن لي سيدي أسديته نصيحة .
- قل .
- نصيحتي الى سيدي ان لا ينام في قصره مدة شهر .
- فوقف بمبو وقال :
- إنك مخطيء فيما تقول فان الأسقف لا يجب ان يفارق أسقفيته والله يتولى حمايته ولذلك لا اخرج من منزلي ويفعل الله يشاء .
- إني أعجب بشجاعة نيافتكم ومع ذلك فلا بد لي من ان أقوم بواجباتي وأتولى حمايتكم ولذلك أرسلت لكم عشرين جندياً كي يحرسوا القصر حتى يزول كل خطر .
- اني أقبل ذلك مع الشكر .
- وعند ذلك فارقه رئيس البوليس وهو يقول في نفسه :
- نعم ان جنودي ستحرسك وتراقبك أشد المراقبة فاني أريد ان اعلم قبل سفرك اذا كنت نخلصاً لألتيماري وإذا كنت من المؤتمرين فان اسمك غير مقيم في قاعتي .
- أما بمبو فقد بقي وحده فجعل يجمع ما لديه من الاحجار الكريمة وهي ثروة عظيمة فانه كان يجمع هذه الحجارة الكريمة توقعاً للسفر الفجائي فوضعا جميعها في منطقة وعقدها في وسطه .
- ثم أحرق كثيراً من الاوراق التي يخشى مغبتها وخرج من قصره من باب

سري بحيث لم يره أحد من الجنود فسار تواء الى الشاطئ فاجتمع ببهار وحادثه ملياً ثم اعطاه مبلغاً من المال وعاد الى منزل ارتين .

فلم يعجب ارتين لقدمه وقال له : اني سأجلس على المائدة وستتغدى معي فاسمح لي ان ادعو الخادمة كي تعد لك مكاناً معي .

قال : لا تدعو احداً فاني أتغدى معك بشرط ان لا يعلم احد بوجودي عندك .

- ولكنهم رأوك دخلت ؟

- لم يرني غير خادمك واريد ان تخبئه في مكان فلا يخرج منه إلا في صباح غد .

- ولكن ماذا حدث ؟

- افعل ما قلته لك وستحدث على المائدة .

فخرج ارتين من تلك الغرفة وعاد بعد هنيهة فقال :

- اني لا استطيع سجن الخادم حذراً من ان يصيح ولكني ارسلته بمهمة الى تريفيز وهو لا يعود منها قبل يومين .

- حسناً فعلت والآن فمر ان يمدوا لك الطعام في هذه الغرفة وان لا يدخل اليك أحد .

ثم قام فاختمها في غرفة قاذية حتى إذا احضروا الطعام وتغدى جلس بمبو على كرسي قرب المستوقد وأطبق جفنيه .

فقال ارتين في نفسه : انه ينام فهل خطر له ان يقيم عندي ؟

غير ان الكاردينال لم يكن نائماً بل انه كان يفتكر في طريقة لإقناع بيانكا على السفر معه .

أما ارتين فقد تشاغل عنه بالكتابة حيناً الى ان شعر بهجوم الظلام وذهب الى المصباح كي يشعله فقال له الكاردينال : لا تفعل .

فاضطرب ارتين وقال له : لماذا ؟

- قال : لا فائدة من ذلك فاجلس يجاني واصنع إليّ .
- فامتثل ارتين وهو معجب لأمره وبدأ الكاردينال الحديث فقال :
- اني سألتك أمرين أحدهما ان تبقى الفتاة عندك مدة اسبوعين والثاني انك وعدتني بإخراج بيانكا من فينيسيا .
- هذا أكيد .
- إذن اني أعفيك من هذين القيدين اللذين دفعت لك ثمنهما مقدماً .
- ماذا تقصد بذلك أتريد ان تسترجع المال بعد ان دفعت معظمه للمدائنين ؟
- كلا فاطمئن فانك لا ترد إليّ شيئاً ولكن بشرط .
- ما هو ؟
- هو اني عزمت على ان ابرح فينيسيا هذه الليلة وأريد ان تصحبني فان سبقتني تنظرني على قيد بضع خطوات من قصرك ومتى بلغت بها البعيريات فقد نجوت .
- نجوت ؟
- أريد ان اقول ان بقية السفر لا يهم .
- إذن ما هو الشرط ؟
- ماذا تدعى تلك المرأة التي عهدت اليها بيانكا ؟
- بيريتا .
- إذن يجب ان تناديا بحيث تبقى بيانكا وحدها ثم تدلني على غرفة بيانكا إذ لا بد لي من إقناعها .
- فذعر ارقين وقال : رباة ماذا تقول أمها ؟
- لا تقول شيئاً فافنا ذاهبان اليها .
- إن المال الذي دفعته لي يكلف غالياً .
- فهن ببنو كتفه وقال :

— إنك ستدعو بيريتا ثم تدلني على غرفة ببيانكا ثم تخرجنا من هذا المنزل دون ان يراها أحد .

— حسناً فابق هنيهة الى ان اعود .

وبعد هنيهة عاد ارقين فذهب بالكاردينال من غرفة الى غرفة حتى انتهى الى غرفة بيانكا فقال له : هذه هي .

٥٧

ابنة المحظية

لقد عرف القراء من الفصل السابق ان ارقين ابعد خادمه بأمر الكاردينال .

وكان الكاردينال قد طلب اليه ان يسجن ذلك الخادم الوحيد الذي رآه الى الصباح فارقاً ارقين ان يبعده عن فينيسيا وكلا الأمرين واحد .

وقد رأى ارقين ذلك الخادم يركب قارباً ليجتاز به البحيرات فاطمان وعاد الى بيو .

غير ان الخادم لم يتجاوز في قاربه بضعة امتار حتى عاد الى شاطئ آخر بعيد عن القصر فوثب الى البر وأسرع الى بيت جزيرة اوليفو .

وهناك دخل الى المنزل دون تردد كأنه قد تعود ان يدخل اليه مراراً فلما رآه الخادم المعجوز احسن استقباله فانه كان جاسوساً وضعه رولاند في منزل ارقين .

وقد سأل الجاسوس الخادم المعجوز قائلاً :

— هل الرئيس في المنزل ؟

تقال : كلا فقد سافر هذه الليلة .

— أيعود ؟

— ربما عاد في المساء .

— إذن سأنتظره .

وقد اقام الجاسوس كل ذلك اليوم في المنزل .

فلننعه الآن ينتظر رولاند ولنعد الى بمبو الذي تركناه عند باب غرفة بيانكا فانه فتح تلك الغرفة ودخل اليها فوجد بيانكا جالسة حول مائدة .

فلما رآته وقفت لفورها وراء المائدة بحيث جعلتها حاجزاً بينهما .

أما بمبو فانه اقفل باب الغرفة من الداخل ووضع المفتاح في جيبه وذهب الى النافذة الوحيدة التي كانت في تلك الغرفة فتفقدتها دون ان ينظر الى الفتاة كأنها غير موجودة .

ولم تكن هذه الغرفة تطل على التربة بل على شارع ضيق وهي لا تعمل أكثر من خمس أذرع عن سطح الأرض .

فلما تفقدتها عاد الى بيانكا فوجدتها مسلحة بمديتها الصغيرة فابتسم ابتسامة هائلة وقد عول هذه المرة على ان لا يتوقف بسبب جراح .

أما الفتاة فانها اجابتة على ابتسامه بنظرة كانت تنفذ منها المرأة .
فابتسم بمبو ابتسامه الأول وقال لها :

— أرى ان هذا الخنجر الجميل لا يفارق يدك فكأنك قد تعلمت القتل من أمك التي قتلت جان دافيليا الشهير الذي لا يزال مجلس العشرة يبحث عن قاتله .

فارتعدت بيانكا وعلمت انه لا يقوى عليها إلا بمثل هذا البحث .

وعند ذلك جلس بمبو بعيداً عنها وقال لها :

— انك ترين بأنه لا سبيل الى الخوف بأن اجنح الى القوة كما فعلت في

الغابة فاصغني بسكينة الى كل ما اقله لك واعلمي اني سأبرح فينيسيا في هذه الليلة نفسها ولكنني عزمت عزماً أكيداً على ان تكوني لي قبل سفري ولا بد ان تكوني لي .

فمزت الفتاة رأسها وأرقت الخنجر فقال لها :
- لقد قلت لك ستكونين لي وسأظفر بك برضائك فانك فكرهينني بقدر ما أحبك ولا بد من ان امزج الحب بالبغض ، نعم ايتها الشقية فانك ستكونين لي برضائك كما قلت وكفى الآن خداعاً ورياء فاعلمي اني نختيرك بين أمرين إما ان تلقي نفسك بين ذراعي أو أسلم أمك الى الحكومة بعد ساعة فاختراري .

فصاحت بيانكا صيحة يأس تمزق لها صدرها وتراجعت منزعرة الى آخر الغرفة .

فقال لها : بورك فيك من فتاة تدفع بأمنها الى يد الجلاد .
فصاحت بيانكا صيحة يأس أخرى بحيث وثق ببؤ ان الفوزات له وتقدم منها خطوتين .

فصاحت بيانكا قائلة :
- أماء لنمت معاً ما زلنا لا ملجأ لنا الا الموت .

وعند ذلك رفعت يدها بخنجرها وقد انقادت عيناها ببارق غريب وطعنت صدرها بذلك الخنجر طعنة هائلة فتدفق الدم من ذلك الصدر وسقطت تلك الفتاة النقية الطاهرة على ظهرها وقضت شهيدة الطهر والعفاف ضحية ذلك الوحش المفترس .

فصاح ببؤ صيحة منكرة واسرع اليها فركع أمامها ورفع يديه المضطربتين رأسها الجميل المصفر ففتحت عينيها ونظرت الى ذلك الكاسر نظرة تدل على السلامة والاطمئنان الى ذلك الموت الذي كان لها خير ملجأ .
قال ببؤ : كلا انك لا تموتين ... اني لا أريد ان تموتي .

وعند ذلك تحركت شففتا الفتاة فأصغى ببو ليسمع ما تقول فسمعها تتمتم بصوت خافت قائلة :

— الوداع يا أمي ... الوداع يا رولاند .

وعند ذلك أسلمت الروح بين يدي ذلك الفاجر .

فوقف الكاردينال يتمعن في وجهها ويقول :

— أحق انها ماتت ونجت مني .. كلا ليس ذلك ممكناً .. كلا انها لم تمت وهي نائمة .

وقد اضطرب عقله في تلك اللحظة حتى انه كان يعتقد انها نائمة وجههـل يقول اقوالاً تبدل على الجنون وهو يحاذر ان تستفيق من رقادها كي لا يزعجها .

ثم زاد اختلاط عقله حتى اضطجع بجانبها وتوهم انها حية تسكمه فحاول ان يضمها الى صدره وان يدنس شفتيها الطاهرتين بشفتيه .

ولكنه سمع عند ذلك اصواتاً مختلفة في القصر فعاد اليه رشده فجأة وذهب من مكانه مندعراً فأصغى الى تلك الأصوات وقال :

— رباه ماذا اسمع .. من هذا الذي يتكلم .. انه صوته .. رباه لقد قضى علي .

ثم سمع ذلك الصوت يقول : اين بيانكا؟

فأجابه صوت امرأة قائلة :

— تعال الى هنا .

وبعد لحظة سمع انهم يطرقون باب الغرفة طرقةً عنيفاً فضحك ضحك المجانين واسرع الى النافذة فوثب منها الى الشارع فسقط واقفاً وجعل يسير هائماً مضطرباً الى القارب الذي كان ينتظره .

حق إذا بلغه صعد اليه وأمر البحار ان يسرع السير ما استطاع فاندفع به يسابق الرياح .

ولم يطمئن قلبه الا حين بلغ الشاطئ في آخر البحيرات فكافأ البحار خير مكافأة وسار في الرمال حق توارى عن الانظار .

* * *

٥٨

السير المغتصب

كان بمبو يعرف ضواحي فينيسيا حق العرفان فجعل يسير بطريق معوجة حذراً من ان يراه البحار ويعرف الطريق التي سلكها حق اذا ايقن انه لم يعد يراه سار في طريق آخر وهو لا يعلم الى اين يسير لشدة ما تولاه من الرعب .

وقد نسي في موقفه الحالي بيانكا وموتها فلم يفكر الا بنفسه وما يتهدده من الاخطار فلم يكن يتمثل له وجه بيانكا وهي صريمة بل وجه رولاند ولم يكن يسمع كلماتها الاخيرة التي فاضت بها روحها بل كان يسمع ذلك الصوت الهائل الذي اضل صوابه من الرعب ويقول في نفسه :

— لا شك ان رولاند سيطاردني ولكن اين له ان يحيدني فان ايطاليا متسعة نائية الاطراف فكيف يخطر له اني لجأت الى رومة دون سواها .

وفوق ذلك فلو اني في رومة فاية فائدة له من ان يتبعني اليها وما عساه يريد الا ان يتخلص مني لأنني اتبعه في فينيسيا وأنا لا اتبعه ما زلت بعيداً عنها .

ثم أنه لو أراد ان يتبعني لينتقم مني فان روما غير فينيسيا واني اكون فيها قويا فان البابا نفسه يتولى حمايتي .

وقد حاول بهذه المناجاة ان يطمئن نفسه ويأمن خوفه ولكن الرعب كان لا يزال مستولياً عليه لاعتقاده ان رولاند لا بد ان يقفوا أثره .

وقد كان أول ما عمله أنه اشترى جواداً نشيطاً وغير ملابسه وسار ينهب الأرض بجواده حتى وصل عند هجوم الليل الى فندق في قرية فريزنزلا ولم يكن يوجد غيره في تلك القرية فتعشى في ذلك الفندق وفادى الخادم فقال له :

— أرى ان هذا الفندق لا يتردد عليه كثير من الناس :

قال : نعم يا سيدي وأسفاه فاذا لم يردني من حين الى حين نبيل مثلك لا قفلته من عهد بعيد .

— اذن لا يوجد احد الآن في الفندق .

— لا يوجد سواك يا مولاي .

— حسناً اني أحب ان أقيم هذه الليلة هنا .

— ان الأسرة عندنا على غاية من الاتقان والنظافة .

— هذا كل ما أرجوه فارني هذه الأسرة .

فأخذ صاحب الفندق مصباحه فتبعه الكاردينال الى غرفة صغيرة لم يكن فيها غير سرير ضيق فقال له الكاردينال :

— لقد اعجبته في هذه الغرفة وسأبيت فيها .

وعند ذلك تركه صاحب الفندق فاضطجع على السرير بملابسه ونام .

وفيا هو بين اليقظة والنوم سمع ضجيجاً في القاعة العمومية فنهض وجعل يصغي فسمع صوت اثنين من المسافرين حتى اذا قبين لهجتهما اصططكت اسنانه من الرعب فنزل عن السرير وجعل يزحف زحفاً الى الباب كي لا تسمع خطواته فوصل بعد بضع ثوان خالها ايماً ووضع اذنه على قفل الباب .

وهناك جعل العرق يسيل من وجهه فأخذ يتراجع زاحفاً على ركبتيه
الى نافذة كان يعلم انها تشرف على بستان ووثب منها اليه ثم تسلق الجدار
وهبط منه الى الارض وهو يقول :

— أني سأسير ماشياً علي قدمي إذ لا سبيل للوصول الى جوادي .
وعند ذلك جعل يركض في الحقول وغدارته مشهورة بيده وهو يلتفت
الى وراه من حين الى حين .

وما زال يسير راكضاً حتى اشرق الصباح وقد خارت قواه .
وعند ذلك لقي أحد الرعاة فنفعه بدينار واستدل منه على مدخل
القرية ثم ذهب اليها فاشترى جواداً وسار به ينهب الأرض حتى وصل الى
آخر قرية قبل رومه فاقام في فندقها وقصد عزم على ان يدخل رومه في
الليل .

وعند الغروب امتطى جواده وسار في طريق رومه .

* * *

وبعد ربع ساعة من مفارقتها هذا الفندق قدم اليه فارسان كان أحدهما
يشبه العملاقة بضخامة جثته وعلائم الحزن بادية عليه فدخل ذلك الفندق .

* * *

٥٩

جينارو يدفع دينه

لندع الآن ذينك الفارسين في الفندق ولنندع ببو يسير هارباً الى رومة
لنجتمع بامباريا ولنعد باذهان القراء الى تلك الحلقة التي أعدتها امباريا في تلك

الليلة التي كانت ليلة حب وجنون وقبل تلك الليلة التي دفعت الغيرة فيها
امباريا الى تسليم بنتها .
ويذكر القراء ان سكالابرينو كان قد اخبر رولاند انه قتل ساندريجو
واغرق امباريا .

وكان اجتماعهما في بيت الجزيرة فأرسل رولاند سكالابرينو الى مكان
آخر للبحث عن ميمو بحيث لم يبق في البيت غير فيليب العجوز فلما جاء
جاسوس ارتين للبحث عنه لم يجده .

وقد برح رولاند المنزل وحده وهو قلق البال لاختفاء بيانكا كما انه
كان شديد القلق على جوانا بعد ان علم بقتل ساندريجو فأشفق عليها اشفاقاً
عظيماً وعزم على ان يردّها الى منزلها كي يعزيها عما هي فيه .

وكان قد عين لها رقيباً منذ حضورها الى فينيسيا بحيث كان يعلم اين
تقيم وقد ذهب منذ الفجر الى منزلها لهذا الغرض .

وفيا هو يسير على الرصيف رأى كثير من الناس مجتمعين ينظرون الى
قارب صغير فيه امرأة مبتلة الثياب فنظر الى هذه المرأة فعرف انها امباريا .
فوقف مطرقاً مفكراً وقد ساء له ان الجريمة انتصرت على العقاب وحاول
ان ينقض عليها .

ولكنه رجع فجأة عن هذا الفكر فتنهد تنهداً عميقاً وسار مواصلاً سيره .
وعند ذلك شعر بيد قد لمست كتفه فالتفت فرأى رجلاً فقال له :
من أنت ؟

قال : إذا اردت ان تتبعني اخبرتك من أنا .

قال : لا حاجة لذلك إذ عرفتك فأنت جينارو رئيس البوليس وقد نظر
رولاند الى ميمو حاليه نظرة الحذر ، فقال له جينارو : ارجو ان تطمئن
يا مولاي فانك تذكر الاصوات ما زلت قد عرفتني مرتين من صوتي وأما
أنا فاني أذكر الأعمال .

- ماذا تعني بذلك ؟
- أعني انه لا يجب ان تخاف ما زلت مديناً لك .
- أوضح ما تقول .
- لقد التمس منك يا مولاي ان تتبعمني فلا يحمل الحديث هنا .
- الى أين تريد ان اتبعك ؟
- الى أي محل شئت بشرط ان لا يسمع حديثنا احد فاذا شئت دخلنا الى هذه الكنيسة .
- فنظر رولاند نظرة الفاحص فانحنى جينارو أمامه وقال له :
- أقسم لك بشرفي انه لا يوجد في هذه الكنيسة رقيب او جند ومع ذلك فاذا أحببت ان تسير الى أي مكان غيره تبعتك الى حيث تريد .
- قال : إذن لندخل الى هذه الكنيسة .
- ودخل الاثنان فجلس كل منهما على كرسي يجانب الآخر وبدأ رولاند الحديث فقال له : اني مصغ اليك .
- قال : ابدأ يا سيدي فأقول انه كان بوسعي ان اقبض عليك هذه الليلة في قصر المحظية امباريا ولكنني لم افعل .
- قال : بل كان يجب ان تفعل عملاً بواجبات مهنتك .
- قال : نعم وكنت واثقاً من الفوز بالرغم عن تلك القوارب التي جمعتها لغرض لم اعلمه .
- أرى انك واقف على حقيقة الامر .
- هذه هي مهنتي يا سيدي .
- إذن لماذا تأخرت ؟
- لأنك عفوت عني فباتت حياقتك مقدسة لدي .
- فنظر رولاند اليه باندهال فقال له جينارو :
- ان حياقتك تبقى مقدسة لدي الى ان اخدمك خدمة تعادل خدمتك لي .

- أي الى اليوم الذي تنقذني فيه .
- او ما يشبه ذلك من إنقاذ شخص تحبه فوق ما تحب نفسك .
- من هذا الذي تعنيه ؟
- اصبر يا مولاي ودعني في البدء أتمم ما كنت اقله فقد قلت لك اني لا اقبض عليك ما زلت مديناً لك ولكنني حين أفي هذا الدين لا يكون لي شاغل غير القبض عليك إذ ليس ذلك من واجباتي فقط بل من فائدتني.
- فقال له رولاند بلمهجة الاستكبار : ومتى تحسب انك تتخلص من قيود الامتنان ؟
- بعد عشرة دقائق يا مولاي .
- أي انك بعد ربع ساعة تحاول القبض عليّ .
- كلا يا مولاي فاني لا احاول شيئاً من هذا قبل ثلاثة ايام فاني أحب ان اكون عادلاً معك حتى إذا لم يوفقني الحظ وفزت عليّ تكون عادلاً معي .
- كن مطمئناً فلست من اهل الظلم .
- أشكرك يا سيدي فلقد قلت لك منذ هنيهة ان مهنتي تقضي بأن اعرف كل شيء وقد تولعت بهذه المهنة ولعناً عظيماً حتى اني لم اقتصر علي معرفة ما يعمل المرء بل تجاوزت ذلك الى معرفة ما يفتكر ولذلك ارجو ان ابلغ يوماً الى منصب رئاسة ديوان التفتيش إذا وفقت فيزيسيا الى اختيار حاكم ذكي ولكن لندع هذا البحث الآن فأنت تعلم يا سيدي انه منذ قرر لي ان اهتم بك ، أي منذ فرارك من الآبار ونيلك هذه الشهرة العظيمة في فيزيسيا ، لم يكن لي همّ إلا ان اعلم ماذا تعمل وماذا تفتكر .
- اما اعمالك فقد عرفت منها انك رجل شديد فقد مضى شهر و انت تعبت ببوليسنا وهو احدق بوليس في ايطاليا بل في العالم بأسره .
- فاسمح لي يا مولاي ان اظهر لك اعجابي بك في هذا المقام واني اقول لك بأنني سأكون اسعد إنسان يوم يذاع بانني أنا الذي قبضت عليك .

على اني إذا لم أقف على كل اعمالك بالتفصيل فقد عرفت ان يدك كانت
تدير جميع تلك الحوادث الكبيرة التي حدثت في قصور التياري وامباريا
والكاردينال وفي قصر رئيس ديوان التفتيش حتى في قصر الدوج نفسه فقد
رأيت فوسكاري من حين الى حين ينظر الى ما حواله كأنه يخشى ان تنقض
يدك الهائلة عليه ورأيت دندولو والتياري يرتجفان رعباً حين يذكر
اسمك ورأيت الكاردينال يضطرب خوفاً كورق الخريف ويتأهب للفرار
فعلمت عند ذلك شدة هذه الحرب الهائلة التي تثيرها على هؤلاء الأقوياء .

ولقد كان التياري وفوسكاري شبه اخوين وكان بمبو شبه حاكم وكان
دندولو لا يشغله إلا إظهار مجده فمهما دندولو الآن بات سجين بيته وهما
بمبو يحاول العزلة وهما التياري يأتمر على الدوج ، ومن فعل كل ذلك
يا مولاي ؟

اني أعرف ذلك الفاعل الذي أثار الرعب في القلوب واوحى بدهائه الى
التياري هذه المؤامرة واعلم انه سينقض قريباً على فينيسيا انقضاض الصاعقة
ويبلغ منها ما أراد .. إلا إذا ..

وهنا سكنت فقال له رولاند : أتم حديثك .

فانحنى جينارو وقال :

— إلا إذا قبضت على رولاند يا مولاي .

فابتسم رولاند وترجم جينارو معنى هذه الابتسامة بقوله : لقد فات
الأوان .

وعند ذلك دخل رجل الى الكنيسة فوقف على مسافة بضع خطوات
وسملاً سملاً معنوياً يراد به تنبيه الأذهان فالتفت رئيس البوليس وذهب
مسرعاً اليه .

فجرد رولاند خنجره وخبأه تحت رداءه وأقام ينتظر .

أما هذا الرجل فإنه جعل يكلم جينارو همساً كأنه يقدم له تقريراً حق
إذا أتم حديثه اطلق سراحه بإشارة وعاد الى رولاند وهو يقول في نفسه :

— إذن لقد قتل ساندريجو . . يجب ان اعلم حقيقة السبب في مقتله .
وقد عاد الى مجلسه بجانب رولاند وقال له :

— لا يشغلك يا مولاي اني حدثت هذا الرجل فهو من اعياني وقد جاء
يخبرني انهم وجدوا في التربة جثة رجل تعرفه وقد مات مطعوناً بخنجر
فاسمح لي ان أحقق في أمره ثم اعود اليك فإنه على الرصيف .

قال : لا حاجة الى إزعاج نفسك بهذا الشأن فان القتل لص يدعى
ساندريجو وقد عيّن أخيراً قائداً في الجندرية مكافأة عن خيانة ارتكبتها .
— إذا كنت عارفاً بذلك يا سيدي فقد يمكنك أيضاً ان تقول لي
اسم المرأة .

— أية امرأة ؟

— امرأة وجدت جثتها بجانب جثة ساندريجو .

فاضطرب رولاند اضطراباً عظيماً وخرج لفوره من الكنيسة الى الرصيف
فوجد انهم يخرجون جثة امرأة من قارب وقد وضعوها على محل بجانب
جثة ساندريجو .

ففرق رولاند الناس عن هذا المشهد وأسرع الى تلك المرأة وقد عرفها
فجعل يفحص قلبها كأنه لا يزال لديه رجاء حتى إذا أيقن انها ماتت سالت
الدموع من عينيه وجعل يندب جوانا بأشجى الألفاظ وينعتها بأشرف
النعوت والناس من حوله ينظرون اليه فيتوجعون لمصابه ويحترمون حزنه .
وبعد ذلك دنا من تلك الجثة فقبّل جبينها والتفت كأنه يبحث عن
رئيس البوليس فرآه وذهب اليه فقال له :

— أتريد ان تفني دينك وتخلص من قيود الامتنان ؟
قال : دون شك .

قال : هوذا الفرصة قد دنت فاني كثير الشواغل اليوم وعلي ان اهتم بالاحياء فاذا توليت عني دفن هذه الفتاة أصبحت في حل من قيودك .

ثم أخرج من جيبه قبضة من الذهب ودفعها الى رئيس البوليس لشفقات الدفن .

فأبى جينارو أخذها ولكن رولاند قال له بلمهجة الأمر : فأني أنا الذي أردت دفنها وأنا الذي يجب أن أدفع النفقات .

فأخذ جينارو المال وقال : سأنفذ أوامرك وسأدفن هذه الفتاة كما تدفن بنات النبلاء .

- اشكرك والآن دعني .

- مولاي .

- ماذا ؟

- أقسم لك ان ما أريد قوله لك يبلنغ اقصى درجات الخطورة فهذه فتاة قد ماتت ولكن توجد غيرها يجب انقاذها .

- اذن تعال .

وعند ذلك دنا الجاسوس الذي كان قد دخل الى الكنيسة فقال لرئيسه همساً : هل تعرفه ؟
قال : كلا .

فأبرقت اسرة الجاسوس بأشعة الفرح وقال : أما أنا فاني أعرفه فهو رولاند كانديانو .

فالتفت جينارو الى جماعة من الجواسيس كانوا يتبعوه على مسافة قصيرة فأشار اليهم ان يدنوا منه وأمرهم ان يقبضوا على الجاسوس قائلاً : انه من المؤتمرين فخذوه وضعوه في محل خفي وراقبوه أشد المراقبة .

فأسرع الجواسيس الى القبض عليه بينما كان يرجو حسن الجزاء .

أما جينارو فإنه تبنع رولاند الى الكنيسة وهو يقول في نفسه مشيراً الى الجاسوس :

- ويح لك ايها الأبله انك كدت تفسد علي أمري .
ثم دخل الى الكنيسة وجلس بجانب رولاند فقال له :

- لقد قلت لك يا مولاي اني إذا لم أكن واقفاً على جميع اعمالك فاني عالم بجميع مقاصدك واعتقد ان هذه الحادثة الأخيرة أي قتل ساندريجو داخلة في خطتك وان كنت لم أعلم السبب في موت الفتاة .

فاضطرب وجه رولاند حين ذكر جوانا وقال له : امض في حديثك .

قال : ساقول لك النتيجة يا مولاي انك تحوم في جميع اعمالك ونواياك وإرادتك حول امرأة لا اسمها ولكنك تعرفها دون شك .

قال رولاند في نفسه : ليونور .. نعم لا يدفعني الى ما عمله غير ليونور .

فقال جينارو : واني على اليقين يا مولاي من ان هذه المرأة الشهيرة قد ملكت شغافك فاذا ارشدتك الى طريقة لانقاذ حياتها أكون كأنني قد انقذت حياتك .

وقد كان اضطراب رولاند عظيماً حين سمع هذا القول اذا ايقن بأن جينارو يعلم ان حياة ليونور في خطر ولكنه قال في نفسه :

- ترى ايجب علي؟ ولماذا انقذها وكيف تستحق مني هذا الاهتمام بعد ان خانتني .. نعم اني قد أغفر لها خيانتها ولكني لا أدافع عنها إذ يجب علي أن أنسى انها في الوجود .

وعند ذلك تنهد تنهداً كاد يمزق صدره وغرس أظافره في باطن كفه وقال في نفسه انها في خطر .. ولكن كيف أنقذها أنقذت هي أمي وقد كانت في أشد حالات الشقاء .. أحاولت انقاذه وأنا اتعذب في الآبار ..

نعم انها حاولت دون القبض علي في بيت الجزيرة ولكن كل انسان

سواها ينقذني لو استطاع . وهي الآن في خطر الا يمكن ان يكون ذلك عقابا لها .

وكان ينادي نفسه بسرعة التصور ويحاول ان يقنع نفسه بوجود التخلي عنها ولكنه شعر فجأة أن قلبه كاد يخرج من صدره فقال في ضميره :
- وبع لنفسي اني لا ازال احبها وأنا أرتعد خوفا عليها مع اني لم أعرف الخوف .

وعند ذلك أجاب جينارو بصوت المنكسر قائلا :
- قل ما هذا الخطر الذي يتهدد ابنة دندولو .

قال : حين ذهبت بي يا مولاي الى تلك القبور التي كان يجتمع بها المؤتمرون وسمعت حديثهم بشأن دندولو خطر لي أنهم لا بد ان يجتمعوا ايضا بطريقة سرية دون ان يحضر التباري اجتماعهم فذهبت في اليوم التالي واختبأت في أحد القبور فرأيت نحو عشرة منهم قد جاؤا الى محل الاجتماع واقفوا على قتل دندولو بالسر لأنهم كانوا يخشون أن يباح بأمرهم .

وبعد أن اتفقوا على ذلك قال واحد منهم : لقد عرفت من ثقة ان ابنة دندولو مقيمة مع أبيها في غرفة واحدة في قصر التباري وأنها واقفة على سر مؤامرتنا وانها هددت زوجها بفضح السر .

فأثر هذا القول على الحاضرين واتفقوا في الحال على قتلها وقتل أبيها وعند ذلك نظر إلى وجه رولاند كي يرى تأثير هذا القول عليه فرأى أن وجهه قد اصفر وأنه قد عض شفته كي لا يصيح حتى أدمها فقال له الرئيس :

- أتريد يا مولاي أن تعرف اسم الرجل الذي اختاروه لقتل دندولو ؟
قال : كلا .

قال : واسم الذين عينوه لقتل ابنته .
فاتقدت عينا رولاند وقال : من هو ؟

قال : هو الفتى كريماني وهذا بيان الحطة التي سيجري عليها فان السيدة ليونور تخرج للنزهة مرتين في الاسبوع في سفينتها .
- اني عارف بذلك .

- وهي تتمزه في يومين معينين من كل اسبوع فتصل بسفينتها الى جسر التهنيدات وهناك تقف هنيهة ثم تعود الى القصر .
وانى عارف بذلك .

- اذن فقد تقرر ان كريماني يغتنم هذه الفرصة وهذا كل ما أردت قوله لك يا مولاي فهل نعتبر بعد ذلك اني وفيت ديني ؟
- نعم .

فانحنى جينارو وقال : اذن فاعلم يا مولاي اني سأصبر ثلاثة أيام وبعد ذلك يجب أن تحذر سني فأني سأبذل كل جهدي للقبض عليك .

واسمح لي أن انبهك يا مولاي ان هذا اليوم أحد اليومين الذين تتمزه فيها للسيدة ليونور .
- نعم اذكر فاذهب الآن في شأنك فانك خدمتني خدمة توازي خدمتي لك .

فانصرف رئيس البوليس عند ذلك وقد لاحظ القراء انه في كل حديثه معه كان يناديه « مولاي » وأنه لمح له مرة بل مرتين أنه سيغدو في وقت قريب دوجاً وأنه يطمع ان ينال في خدمته منصب رئاسة ديوان التفتيش ولكن رولاند لم يكن يحببه بشيء فلما خرج من الكنيسة سار وهو يحدث نفسه فيقول :

- نعم لقد وفيت دينه وبات مديناً لي والآن فاني أرى اعمالى سائرة على محور النجاح فاني واقف على سر المؤامرة وجميع المؤتمرين مطمئنون وقد عين الدوج يوم الحفلة وهو ذلك اليوم الذي يضرب المؤتمرون فيه ضربتهم الكبرى .

أما أنا فأنني اتخذت احتياطي من الآن الى ذلك اليوم فاذا فشل رولاند
تقبضت عليه واذهبت سر المؤامرة وكافاني فوسكاري دون شك بتعميني في
منصب دندولو وإذا كان الفوز في جانب رولاند ادع المؤتمرين يخبطون في
ظلماتهم واكتهم سر رولاند فيكافاني نفس المكافاة .

وعلى الجملة فان الفوز مضمون لي من الجانبين وسواء كان فوسكاري أو
رولاند حاكما على فينيسيا فاني سأكون فيها رئيس ديوان التفتيش وهذا
كل ما أرجوه .

ولما خرج من الكنيسة رأى أحد جواسيسه قريبا منها فناداه وقال له:
يوجد رجل في الكنيسة ؟
قال : لقد رأيته .

— أعرفته ؟

— كلا .

— لا يجب ان تعرفه .

— إذن ماذا يجب ان أعمل ؟

— يجب أن تتبع هذا الرجل كظله فلا تفارقه لحظة وتعود الي في المساء
فتخبرني بما فعل .

— حسناً يا سيمدي .

— إذا رأيته يختصم مع أحد أبناء المدينة ...

— مع من ؟

— مع أحد من أبناء الأعيان كابن كريماتي مثلاً فاذا قتل احد المتخاصمين
فلا يبق الى المراقبة لزوم فتعود الي في الحال وتخبرني بما اتفق .

وعند ذلك افترقا فذهب رئيس البوليس في شأنه ووقف الجاسوس قرب
باب الكنيسة ينتظر خروج رولاند بذلك الصبر الذي امتاز به الرقباء في
كل مكان .

أما رئيس البوليس فأنه حين عاد الى منزله وجد فيه رسول الكاردينال
بمبو يدعوه الى زيارته وأخبره بالهجوم على منزل مولاه في الليل فقال في
نفسه : أرى ان نطاق الحصار أخذ بالتضييق وهو ما قلته لحاكم فينيسيا
القادم .

وعند ذلك نزع البرقع الذي كان متنكراً به وذهب الى الكاردينال .

وقد عرف القراء ما كان بين هذين الرجلين فان بمبو كان يحاول ان
يخفي مقصده عن رئيس البوليس ويوهمه ان لانية له على الإطلاق بمبارحة
فينيسيا وكذلك جينارو فانه كان يحاول ان يضبط على افكار الكاردينال
كي يفهم منه شيئاً وقد فاز كل بما كان يبغيه فان الكاردينال برح فينيسيا
دون ان يعلم به جينارو .

وكذلك جينارو فقد وثق ان رولاند قضى قضاءه المبرم على بمبو ولم
يشكل عليه غير أمر واحد وهو كيف ان رولاند لم يدخل الكاردينال في
سلك هذه المؤامرة الهائلة إلا إذا كان يريد ان ينتقم منه انتقاماً أشد هولاً .

٦٠

جسر التهنيدات

خرج رولاند من الكنيسة دون ان يرى ذلك الرقيب الذي وضعه
جينارو لمراقبته على افه لو رآه لما اكترث له فقد كان في حالة من الاضطراب
جملت كل فكره منحصراً في أمر واحد وهو ذلك الخطر الذي يتهدد
ليونور .

ولم يكن يذهله إلا انه بينما كان يعتقد انه سلاها ولم تعد تخطر له ببال
وجد انه لا يزال يحبها كما كان في عهد خطبته وقد علم لأول مرة ان حبها

كان دفيناً في قلبه وان هذا الخطر احياء وانه إذا كان لا يزال حياً الى الآن على ما اصابه من القنوط فما ذلك إلا لأن ليونور لا تزال في قيد الحياة .

وقد أقام ذلك اليوم قائماً هائماً في فينسيا لا يعلم الى اين يسير فكان تارة يقف أمام قصر التياري وقارة يرود حول قصر كريمانى الى ان غابت الشمس فذهب الى جسر التمهيدات وقد وضع برقعاً اسود على وجهه واقام ينتظر في قارب صغير .

وبعد هنيهة رأى قارباً قادمًا وليس فيه غير رجل واحد فوقف قرب السجن وكان فيه كريمانى .

وبعد ذلك بقليل سمع صوت المجاذيف فالتفت وارتعشت اعضاؤه ارتعاشاً ظاهراً إذ رأى ليونور جالسة وحدها تحت خيمة السفينة وقال في نفسه :

— عجباً ما الذي يدفعها الى هذه النزهة المطردة ولماذا اختارت نزعتها جسر التمهيدات ؟

وكان اضطرابه عظيماً لمراها ولكنه تجلد وضبط نفسه ودفع بقاربه حتى التصق بسفينتها .

أما ليونور فانها رأت عرفتته وكان موقف الاثنين هائلاً عظيماً امتزج فيه الهناء بالخوف واللذة بالاضطراب ولم يستطيعا هذه المرة ايضاً ان يفوها بكلمة بالرغم عن ذلك الحب الذي كان يجذب كلا منهما الى الآخر .

غير ان رولاند بذل جهداً عميقاً كي يتمكن من ضبط نفسه فقال لها بصوت متهدج :

— اهربي .. عودي الى قصر .. ومهما حدث فلا تخرجي منه قبل شهر .
ان ليونور سمعت ذلك الصوت فهل فهمت ما قال ؟ ذلك غير مرجح ولكن بحار سفينتها أدار مقدمها في الحال الى جهة القصر واندفعت تسير ببلء السرعة .

ذلك ان البحار عرف رولاند وسمع ما قاله فنظر اليه نظرة امتزج فيها الخوف بالإمتنان والإشفاق وعاد بسيدته الى القصر .

فلما توارت السفينة عن نظر رولاند تنهد تنهداً خرج من صدره كالانين ثم تقدم بقاربه الى حيث كان قارب كريماني .

أما كريماني فانه رأى سفينة ليونور قد دنت من الجسر ولكنها بدلاً من أن تتقدم بها الى حيث كانت ترسو عادة عادت بها ادراجها مسرعة فتقال في نفسه : لم يبق سبيل لقتلها هذه الليلة ولا بد من تأجيله الى يوم آخر .

وعند ذلك رأى قارب رولاند قد التصق بقاربه وان فيه رجلاً لا يعرفه فأوجس منه شراً وقال له :

— اذهب من هنا ولا تقف يجاني .

أما رولاند فانه ابتسم واجابه قائلاً :

— فينيسيا وسانت مارك .

وكانت هذه الجملة جملة التعارف بين المؤتمرين فاطمأن كريماني وصعد رولاند الى قارب الفقى ورفس قاربه برجله فاندفع كما تشاء الامواج ثم جلس بجانب كريماني وقال له بملء السكينة :

— تفضل واجلس يا سيدي فاني قادم اليك لأحدثك .

فجلس كريماني وهو آمن مطمئن لاعتقاده انه يحادث شريكاً له بالمؤامرة وقال له :

— من انت يا سيدي ؟

فانتزع رولاند برقعته وجعل ينظر اليه .

أما كريماني فانه ذعر ذعراً عظيماً لأنه لم يعرف هذا الرجل ولم يره مرة بين المؤتمرين ولكنه ما لبث ان اطمأن إذ اعتقد بأن احد الزعماء ارسله اليه وقال له :

— اني تمنعت في وجهك يا سيدي فوجدت اني لا أعرفك ومع ذلك فقد قلت جملة .. وهي تبهن لي انك من المؤثرين .
فانحنى كريمانى ولم يجب فقال له رولاند :

— كلا يا سيدي اني لست من المؤثرين أي لست منكم وإذا كنت قد لفظت جملة السر فما ذلك إلا لأنني كنت اريد الوصول اليك بسهولة لأنني اريد ان احديثك .

فاصفر وجه كريمانى وشتم شتماً قبيحاً وجرّد خنجره .

ولكنه لم يستطع ان يأتي بحركة فان رولاند قبض على يده وضغط عليها ضغطاً عنيفاً حتى صاح الفتى صيحة ألم وسقط الخنجر من يده فالتقط رولاند الخنجر ورده اليه .

أما كريمانى فانه أخذ الخنجر وقد ظهر الاندهال العظيم في عينيه فقال له : إذن ماذا تريد ؟

قال : اصنع لي بسكينة تعلم ماذا اريد واجلس فان وقوفك في القارب يفسد موازنته فينقلب .

فامتلل كريمانى وقال : اني مصنع اليك .

قال : أرى يا سيدي انك لا تعرفني ولا بد من التعارف بيننا اذكر اننا كنا في حفلة المحظية امباريا حين أهنت الشاعر ارتين فقبض عليك احد الخدم وألقاك خارج القصر ؟

فاصطكت اسنان كريمانى من هذه الذكرى وقال له رولاند :

— أرى انك تذكر هذه الحادثة فانك حاولت بعدها ثلاث مرات ان تنتقم من هذا الشاعر المسكين لاعتقادك انه اهانك بتلك الالهانة وفي كل مرة كان يحبط مسعاك .

فجعل كريمانى ينظر اليه نظرات الإندهال ومضى رولاند في حديثه فقال :

- أنا هو الذي كنت أحول دون انتقامك فاني كنت اكره ان يظلم الشاعر وإنما أقول يظلم لأنك لم تطرد من حفلة امباريا بأمره بل بأمرنا .
- من أنت ؟

- سوف تعلم فقل لي الآن ألم يكن أبوك الشيخ كريماني احد اعضاء مجلس العشرة سنة ١٥٠٩ ثم ألم يكن احد هؤلاء الذين حكموا على الدوج كانديانو بشمل عينيته ؟

اني أخبرك بأمر تجهله فان كانديانو بعد ان أعموه تركوه يتجول في الأسواق مستعطياً وانت ابن احد الذين حكموا عليه اعلم اني أنا ولده .
- رولاند كانديانو ؟

- نعم أنا هو فان أباك ارتكب ذنبا لا يرتكبها من تجول في عروقه دماء إنسان لأنه كان يعلم ان أبي لا ذنب له وإنما فعل ذلك ارضاء للمؤمنين على أبي ليضمن مركزه ويضمن مستقبلك فبينما كنت انت تتجول متنزهاً في كل مكان فسيح كنت أنا سجيناً في الآبار المظلمة العميقة على ان البنين لا يجب ان يواخذوا بذنوب آبائهم وإنما ذكرت لك حكايتي معكم كي تعلم انه يحق لي ان احول بينك وبين التي تحاول قتلها .

فارتعش كريماني وقد علم ما سمعه ان رولاند حاقد عليه حقداً عظيماً وانه عارف بسر المؤامرة .

وكان شجاع القلب ثابت الجنان فخطر له ان يقتل رولاند بضربة دون ان يدع له وقتاً للدفاع فقال له بلم السكينة :

- انك أردت ان تتكلمني يا سيدي وقد رأيت اني أصغيت اليك كل الإصغاء فاذا أردت فافصح الآن عما تريد مني .

قال : اني أتيت اليك لأخبرك بين الموت والحياة فاذا أردت ان تحيا اقترحت عليك ان تغادر فينيسيا الآن فلا تعود اليها إلا بعد شهر .
فأجابه كريماني بلمجة المتهمك قائلاً :

— ولكن أسمح لي ان أبرح فينيسيا في حين اني مضطر الى الإقامة فيها ؟
 — ذلك لأنه لا يجب ان تكون سافلاً كأبيك فترتكب جريمة افطع من
 جريمته ويجب ان تعلم انه لا فرق عندي بين ان لصاً او سفاكاً او خائناً
 فكن كيف شئت بشرط ان لا اجدك في طريقي .

وكان كريمانى يسمع حديثه وهو يتأهب لاغتيااله فقال له :
 — من أنبأك اني أريد ان اكون لصاً سفاكاً خائناً ؟

— إذا لم يكن ذلك فماذا تصنع هنا ألسنت كامناً لتلك الفتاة لتفتك بها
 واني على شدة كرهى لأبيك اشفق على شبابك ومستقبلك ويسوءني ان
 أراك كامناً لإمرأة تريد ان تقتلها وهي دون دفاع فاذهب يا كريمانى واني
 أعاهدك على نسياني كل ما كان من أبيك وكل ما بدر منك بشرط ان تقسم
 لي بأنك تبرح فينيسيا منذ الليلة وتعود اليها بعد شهر .

فأجابته كريمانى بضحك عصبي ثم وقف فجأة وطرح رداءه فاهتز القارب
 اهتزازاً عنيفاً وسقط كريمانى الى التربة فشمع بأن يداً من حديد قد ضغطت
 على عنقه .

وذلك ان رولاند كان يراقب كل حركاته وقد ادرك قصده فلما وقف
 كريمانى يحاول الهجوم عليه وقف هو ايضاً دون ان يكثر لحفظ توازن
 القارب وسقط كريمانى الى الماء فسقط رولاند في أثره وقبض بيده القوية
 على عنقه ولم تكن غير لحظة حتى توارى الاثنان في الماء .

وبعد هنيهة ظهر رولاند وحده على سطح الماء فتوكل على القارب واقام
 ينتظر حتى إذا مضت عدة دقائق ظهر كريمانى على مسافة عشرين ذراعاً
 وهو جثة هامدة لا حراك فيها .

المطاردة

وعند ذلك خرج رولاند من التربة دون ان يندم على قتل كريمانى
وسار الى بيت الجزيرة وقبل ان يصل اليها لقي سكالا برينو فقال له : ما
وراءك من الأخبار ؟

قال : أسوأها .

- كيف ذلك ؟

- ذلك انه ليس لدينا انباء وهذا الذي يدعوني الى القنوط من لقاء
جيو وبيانكا .

- لا بأس فاذا لم يكن لدينا ما نعمله في فينيسيا فلنذهب الى الضواحي
فانى ارجو ان اهتدي الى المكان الذي لجأ اليه الكاردينال وسنضع الرقباء
حول قصره ونذهب الى الضواحي فنبحث عنه وقد أرسلت نحو مائتي فارس
في أثره فاذا لم نعثر به فلا بد ان يحدوه .

وعند ذلك وصلا الى المنزل فرأى رولاند الجاسوس الذي كان أقامه في
خدمة الشاعر ارتين فقال في نفسه :

- ترى ماذا حدث عند ارتين ؟

ثم دنا من الخادم وسأله عن السبب في قدومه فقال له :

- ان السيد ارتين يا مولاي حاول ان يرسلني الى تربيزا .

- لماذا ؟

- ليعبثني دون شك فقد رأيت الكاردينال عنده .

فصاح رولاند وسكالابرينو قائلين :

— بمبو ؟

قال : نعم فانا الذي ادخلته .

فقال سكالابرينو : هلم يا مولاي التسرع .

فقال الخادم: تمهل الى أن تسمع كل حديثي فان الكاردينال جاء وكانت تصحبه امرأة وفتاة .

فنظر كل من رولاند وسكالابرينو الى الآخر نظرة سرور وانفدعا الى خارج المنزل دون ان ينتظرا سماع تمة اقوال الخادم حتى بلغا الشاطئ فركبا قاربا وسارا به .

وكان سكالابرينو ساكتا لا يتكلم ولكن علائم الاضطراب الشديد كانت يادية في عينيه .

فادرك رولاند سبب اضطرابه فقال له :

— اني أعرف بمانسكا حق العرفان فثق انها كانت أقوى من بمبو .

قال : ولكن قلبي يخفق خفوقا عظيما ويحدثني بمصاب ألم فعمسى ان نصل قبل فوات الأوان .

وبعد هنيهة وصلا الى منزل ارتين وطرقا بابه فلم يفتح لهما أحد .

فكررا الطرق مرارا وكانا يسمعان وقع اقدام الخدم وصوت ذهابهم وإيابهم مما يدل على فرط اضطرابهم فان ارتين كان لا يزان معتقدا أن امباريا ستسزل له من يقتله .

فلما رأى رولاند ما كان من ترددهم في فتح الباب صاح بملء صوته مناديا أرتين فسمع ارتين الصوت وعرف أنه صوت رولاند فأمر خدمه ان يسرعوا بفتح الباب وسار معهم فلما دخله رولاند قال له : أرتين أهذا أنت أيها الرئيس ؟

فأجابه رولاند بصوت ارتجت له اعضاؤه قائلا :

- اين ببو؟
 فتلعثم لسانه وقال :
 - ببو .. الكردينال .. ولكن ..
 - ويحك قل اين هو أو انتزعت انيابك من فمك وعذبتك عذاباً لا يخطر
 في بال الابلاسة .
 فارتعد ارتين خوفاً وقال : تعال وشهد الله اني اخفيتهما عندي ولم يخطر
 لي ان ذلك يغضبك .
 ثم سار مسرعاً وروланд وسكالابرينو في أثره الى أن أوصلها الى الغرفة
 التي كانت فيها بيانكا فحاول سكالابرينو فتحها فوجدها مقفلة فدفع الباب
 بكفه فتحطم ودخل الاثنان الى تلك الغرفة .
 وقد عرف القراء ما لقياه في تلك الساعة الهائلة وقد نظر رولاند الى
 النافذة فوجدها مفتوحة وعلم أنه فر .
 وعند ذلك سمع انين سكالابرينو فالتفت اليه فلقبي بيانكا ملقاة على
 الارض وسكالابرينو راكم أمامها لا يحسر أن يقول كلمة بل أن صوته قد
 اختنق في حلقه .
 فاسرع رولاند ونظر الى بيانكا فاذا هي قتيلة فظم قبضتيه ورفع نظره
 الى العلى كأنه يتهدد القدر ثم سألت دمعتان من عينيه .
 وعند ذلك لمس سكالابرينو بلطف فالتفت سكالابرينو اليه وقال :
 انها لم تمت اليس كذلك .. مولاي قل لي انها لم تمت .. بيانكا .. ابنتي ..
 الا تسمعيني .. هذا أنا .. أبوك نعم أنا هو أبوك فانظري الي واقتحي
 عينيك فقط فاذا رأيت اني غير جدير أن أكون أباك انصرفت عنك ولكن
 افتحي عينيك .
 فهز رولاند كتف ذلك الاب المنكود وقال له : قف ايها الصديق ..
 قف ايها الأخ .

- انها ميتة فلم يبق لي الا أن أموت بقربها .
- بل انك تعيش .
- أية فائدة لي من الحياة ؟
- فائدة الانتقام لها .
- الانتقام لها ؟

وقد اتقدت عيناه ببارق هائل ولكن هذا البارق ما لبث ان انطفأ فقال رولاند :

- نعم يجب ان نظفر بهذا الشقي الذي قتل بنتك ونجزيه موتاً بموت وعذاباً بعذاب .. تعال .

ثم أخذ سكالابرينو بيده وسار به وهو يتبعه دون مقاومة كالاطفال فقال له :

- أتريد أن ينجو بمبو من ايدينا وإذا كنا تأخرنا عن إنقاذ بنتك أتريد أن نتأخر عن الانتقام ؟

فضم سكالابرينو قبضتيه بشكل هائل واندفع وهو لا يعي الى خارج القصر مع رولاند .

* * *

عندما كان سكالابرينو خارج القصر ذهب عنه ذلك الذهول الذي كان يتولاه فغضب غضباً عظيماً وجعل يعاتب الاقدار بكلام لا يفهم وسحاول ان يعود الى بيانكا ليرأها مرة أخرى ولكن رولاند منعه وسار معه الى جهة النافذة التي نجا بمبو منها فرآها تطل على شارع ضيق يشرف على التربة وكان الظلام قد اقبل واصطففت القوارب فالتصق بعضها ببعض عند الشاطئ ففسار رولاند على الرصيف وهو يراقبها فوجد مكاناً فارغاً بينهما وايقن أنه هرب فوثب الى قارب مجاور كان فيه بحار فجرد خنجره وقال :

- اني بخيرك بين طعمنة خنجر تبعث بروحك الى الابدية وبين مائة ريال
تقبضها للفور .

قال : اني أوثر المال دون شك .

- قال : إذن اصدقني في المقال فحق برح القارب الذي كان مجاور قاربك
موضعه .

- منذ عشر دقائق .

- من الذي سافر فيه ؟

- رجل بلباس الفرسان وعليه وشاح أسود .

- من اين أتى هذا الرجل ؟

- من هنا وقد أشار الى قصر ارتين .

- أكانت تبدو على الرجل علائم السكينة ؟

- بل كان كالخنزير البري الذي يطاردونه فإنه كان يلتفت في كل لحظة
الى ورائه كأنما جمع جواسيس فينيسيا في أثره .

- الى اين ذهب به القارب ؟

- الى البحيرات .

- هل تستطيع إدراكه ؟

فنادى رولاند سكالابرينو وسأله ان يصعد الى القارب وأمر البحار
ان يسير .

وقد جلس بجانب سكالابرينو وجعل يعزيه أجمل عزاء .

وبعد هنيهة تبين لهم البر فقال رولاند : عجباً كيف لم نعاثر بالقارب
وهو لم يبتعد عنا إلا بعشر دقائق كما تقول .

- ذلك لان البحيرات عريضة يا سيدي فقد يكون سار بغير الطريق
التي نسير فيها .. ولكن كلا .. انظر .

- اسكت فقد نظرت .

وقد نظر رولاند على مسافد بعيدة نور أحمر عند الشاطئ فأمر البحار بالاسراع حق وصلوا الى ذلك الشاطئ فوثب رولاند الى البر ووجد هناك ثلاثة من البحارة فقال لهم بلمهجة الأمر .
ماذا تصنعون هنا ؟

فأجابه أحدهم أننا بحارة فلتنظر انقلاب الهواء لترجع الى فينيسيا .
— وماذا جرى لهذا الرجل الذي جئتم به أي ذلك الرجل الذي كان يلبس ملابس فرسان وعليه وشاح اسود ؟

فتشاور البحارة بالنظر ورأوا انهم لا يستطيعون المقاومة فأجابه صاحب السفينة قائلا :

— ان هذا الرجل دفع لنا مكافأة حسنة لنجتاز به البحيرات ولكنه لم ينقدا شيئا من اجل سكوتنا .

فأخرج رولاند من جيبه ديناراً فالقاه اليه وقال له : أما انا فاني ادفع لمن يتكلم فقل اين ذهب الرجل .
— انه ذهب من هذا الطريق القديم .

— متى ؟

— منذ خمسة دقائق .

— أعرفته ؟

— كلا يا سيدي .

فعلم رولاند ان هذا كل ما يعلمه البحارة فنادى البحار الذي جاء به وقال له :

— هل تستطيع ان تأتيني بمعدات الكتابة ؟

قال : نعم يوجد ورق وخبز في القارب .

فعاد رولاند الى القارب فكتب رسالة ثم طواها دون ان يستطيع ختمها لعدم وجود شمع وقال للبحار :

— هل تعرف القراءة ؟
 فهمز البحار رأسه وقال : كلا وأسفاه .
 فاطمأن بال رولاند من انه لا يفهم معنى الرسالة وقال له :
 — اني كتبت هذه الرسالة لأنني لا اعود الى فينيسيا وقد وعدتك بمائة
 ريال وفي هذه الرسالة التي كتبتها حوالة بالقيمة فتذهب بها الى قصر ارتين
 وتعطيه إياها فيدفع لك المال أتعرف ارتين الشاعر ؟
 — نعم أعرفه فقد طالما نظم اشعاره في قاربي وأنا لم اضع معدات
 الكتابة في قاربي إلا من أجله .
 قال : حسناً فاسرع الآن بالذهاب .
 فامتلأ البحار وافرغ وعاد رولاند الى البحارة الذين أتوا ببعبو وفهم
 منهم ما أراد ان يفهمه ثم أخذ بيد سكالابرينو وسار في طريق ببو .
 أما ما كتبه رولاند الى ارتين فسيقف عليه القراء في حينه .
 أما رولاند وسكالابرينو فما زالا يتعقبان الكاردينال وما كل ما بلغا الى
 قرية يعلمان انه قد سبقهما بزمان وجيز حتى بلغا الى آخر قرية قبل رومة
 وعلموا انه يتقدمهما منذ ربع ساعة فسارا لفرورهما فدخلوا الى تلك العاصمة في
 الساعة التاسعة من المساء .
 وقد ذهبوا الى أحد فنادقها فلما اختلوا فيه قال سكالابرينو : أتعلم يا مولاي
 ان هذا السفاك يستحق مثل ذلك العقاب الذي اخترعه الشاعر دانتي ؟
 فقال له رولاند : ان دانتي نفسه يذعر لحوال العقاب الذي اعدده لهذا
 الكاردينال .
 فتنهده سكالابرينو وقال له وهو يضم قبضتيه :
 — لا أظن انه يوجد عقاب في الارض ينطبق علي جرائمه فهو الذي
 أعمى أباك وجعله يتسول في الطرقات وهو الذي قتل أمك ياساً وهو الذي
 سجنك ستة أعوام في أعماق الآبار وهو الذي طارد ابني كما يطارد النمر الإبل
 وسفك دمها الطاهر وقد قبضت عليه فهو سيموت الليلة بيدي .

فقال له رولاند : كلا فان هذا الرجل لا يجب ان يموت موتاً عادياً
ويجب ان أعاقبه عقاباً وحشياً ينطبق على نفسه الوحشية .
— وما هذا العقاب ؟
قابلتسم رولاند ابتساماً هائلاً وقال له :
— انتظرني هنا ساعة او ساعتين واستأجر مركبة قوية مستعدة للسفر .
فأخنى سكالابرينو رأسه اشارة للامتثال والتف رولاند بردائه وبرح
الفندق .

٦٢

انذار القتاتل بالقتل

لما برح رولاند الفندق سار في أول طريق رأها كأنه لا يريد مكاناً
معيناً .
وكان رولاند يعرف رومة حق العرفان إذ جاء اليها منذ تسعة اعوام
سفيراً من لدن مجلس العشرة الى البابا فكانت امباريا يومئذ في رومة وقد
عرفته منذ ذلك العهد في قصرها وولعت به ذلك الولوع الذي قضى عليها
بهاجرة رومة الى فينيسيا .
وفيا هو سائر لقي جماعة من الفتيان واقفين في وسط الطريق فدنا منهم
وقال لهم بظرف :
— أأذنون أيها الأسياد لرجل غريب ان يسألكم إذا كانت امباريا الشهيرة
بجبالها قد عادت الى رومة .
فأجابهم سناً وكانت الخمرة قد دارت في رأسه : أتسأل عن امباريا
المقدسة والناس لا يتحدثون بغير حديثها فمن أين انت قادم ؟
— إذن امباريا في رومة ؟

— ونحن ذاهبون الآن الى الحفلة التي تعدها الليلة .

فشكروهم رولاند وانصرف فذهب توأ الى قصر امباريا فاختلط بين
جماهير المدعوين واقام هناك ساعة ثم عاد الى الفندق الذي ترك فيه
سكالابرينو فوجده واقفاً عند الباب فقال له :

— أوجدت المركبة ؟

قال : نعم وهذه هي .

قال : حسناً فتمال معي الآن .

فسار سكالابرينو معه حتى اذا اقتربا من قصر امباريا سارا في شارع
ضيق وراء القصر ووقفا عند باب واطيء كان فيه رجل ينتظر فقال له
رولاند :

— ألا تزال على عزمك ؟

قال : نعم يا مولاي ما زلنا متفقين على القيمة .

قال : نعم وهي الف ريال .

— وسأقبضها في فينيسيا .

— إذن ستوصلنا ثم تعود الى المركبة فتنتظروا فيها ؟

— حسناً فتفضلا .

وكان هذا الرجل أحد الخدم في قصر امباريا فصعد سلماً وتبعه رولاند
وسكالابرينو حتى انتهوا منه الى رواق طويل ثم نزلوا على سلم صغير دخلوا
منه الى غرفة كان فيها مصباح يضيء .

وكان لهذه الغرفة ثلاثة ابواب فقال الخادم لرولاند :

— هذا الباب الذي من الجهة اليمنى يشرف على قصر امباريا والباب
الأيسر يشرف على أحد القاعات أما الباب الثالث فهو الذي دخلنا منه .

قال : حسناً فاذهب الآن الى المركبة وانتظروا فيها .

فانصرف الخادم واطفاً رولاند المصباح .

ولم يكونا يسمعان حساً من الجهة اليسرى أما من الجهة اليمنى فقد كان رولاند يسمع صوت امباريا تودع زائريها .
ثم ساد السكوت فقال سكالابرينو لرولاند : أدنا الوقت ؟
قال : كلا فاصبر .

وعاد الإثنان الى الإصغاء فسمع سكالابرينو عند ذلك صوتاً ارتعش وجعل العرق البارد ينصب من جبينه وقال : ألعلي حالم ؟
فقال له رولاند بصوت هامس : ماذا ؟
قال : هذا الصوت .

قال : صوت امباريا فقد توهمت انك اغرقتها ولكنها لا تزال حية تسمى .
— كلا كلا بل اني حالم .
فوضع رولاند يده على فم سكالابرينو وقال له : اسكت وانتظر .

لقد عرف القراء ان امباريا حين وضوها الى رومة ذهبت الى قصرها
وجعلت تعد معدات الحفلة الشائقة بمناسبة عودتها الى رومة .
وقد عرفوا ايضاً انه بعد ان انصرف جميع المدعويين بقي رجل فرد في
القاعة فكشف البرقع عن وجهه وعرفت انه الكاردينال بيبو .
وقد اضطربت اضطراباً عظيماً لمراه إذ كانت تعتقد انها بهربها من
فينييسيا تركت وراءها كل ماضيها الهائل .
ولكنها ملكت نفسها وقالت له :
— ماذا أتيت تعمل هنا وأية علاقة بقيت بيني وبينك ؟
فأجابها بسكينة رجف لها قلب الحظية قائلاً :
— ابنتك يا سيدتي .
— ابنتي ؟

— قد كنت أحسب انه يسرك ان تعلمي ما جرى لإبنتك فأتيت خصيصاً
لأخبرك بأنباءها .

وكان يقول هذا القول بلمجة المتهمك فقالت له :

— ولكذك تعلم انها لم تعد ابنتي فقد كانت مثال الفضيلة وكانت فضيلتها
هذه تؤنبني والله يعلم اني كنت أحبها ولكن لماذا لم تكن تنظر إليّ إلا
نظرات الإحتقار ؟

فقال لها : بل لماذا كانت تحب نفس الرجل الذي تحبينه ؟
فوقفت امباريا وقالت له :

— اسكت ولا تقل كلمة عن هذا الرجل .
قال : ان من يسمعك يحسب انك خفت .

— سواء كان ذلك عن خوف او عن سواء فلا تذكره أمامي وقل ماذا
تريد ان تخبرني .

فأنتبه الى ما ظهر من اضطرابها حين ذكر رولاند فقال لها :
— ارجعي يا سيدتي بذكراك الى تلك الحفلة التي اعدتها في فينيسيا حين
قلت لي ان بيانكا قد هربت فاتبعها في طريق مستر .
قالت : نعم فماذا جرى ؟

قال : اني لقيتها في تلك الطريق وحملتها على الرجوع معي الى فينيسيا
وعند ذلك ..

فقالت له بهرود : وعند ذلك ؟

قال : طعنت نفسها بخنجر أمامي فكانت الطعنة القاضية .

ومن غريب شراسة هذا الرجل المكاسر انه حل الى أم نبأ قتل بنتها كما
ينقلون الأنباء العادية دون ان يختلج له قلب او يضطرب له لسان .

بل الأغرب من ذلك ان امباريا تلقت هذا النبأ دون ان يظهر عليها
شيء من التأثير سوى انها اصغرت قليلا وقالت :

— إذن لقد ماتت بيانكا ؟

قال : نعم ماتت .

وساد السكوت هنيئة بين الاثنين ربما عاد فيه الى ذلك القلب الوحشي شيء من عواطف الأمومة ولكنها لم تلبث ان قاومت هذه العاطفة فقالت :
— ربما كان ذلك خيراً لها .

وقد كانت هذا كل ما رثت به بنتها تلك الفتاة التي قتلت نفسها لإنقاذ أمها .

وعند ذلك قال لها بيبو :

— والآن أرى يا سيدتي انه يجب ان نتفق فان لدي كثير من المشروعات أريد عرضها عليك وستوافقين عليها دون شك اذا اردت ان تحفظي مكانتك في رومة و ..

فقاطعت أمباريا بجلء العظيمة قائلة :

— كفى إنذاراً فقد مضى زمن الوعيد ولم أعد أخافك بعد مغادرتي فينيسيا .

— ولكني ما أتيت لأخيفك وفي كل حال فقد خيّل لي انك نسيت الجريمة التي أوثقت عرى الاتفاق بيننا بل نسيت اتفاقاً على الدفاع ومن الذي يحميك سواي ؟

— ممن تريد ان تحميني ؟

— انك تعرفين اسمه فلا حاجة الى ذكره ومن يعلم فانه قد يأتي يوماً الي رومة .

— اسكت .. اسكت .

— بل ان رولاند كانديانو الذي القيته في ظلمة الآبار قد يطاردك ليشفي غليله من الانتقام وقد يكون في رومة بل قد يكون الآن هنا في هذا القصر .. ولكن ما أصابك ؟

ذلك ان امباريا ارتعشت حدقتها وجدت عيناها من الرعب ولم تكن تنظر الى يمينها بل كانت تنظر الى جهة لا ينظر اليها الكاردينال فالتفت الى تلك الجهة مقتدياً بها فرأى رولاند كانديانو .

وقد رعب الكاردينال رعباً لا يوصف وقد بذل جهداً عنيفاً كي يحاول النهوض ليمرّب فلم يستطع .

أما رولاند فانه كان يتقدم ببطء فدنا من امباريا كأنه لا يرى الكاردينال حتى خيّل لذلك الرجل ان رولاند غير قسام اليه ودخل قلبه شيء من الرجاء .

ولكنه لم يلبث ان ارتعش ارتعاشاً عظيماً فان يد هائلة قبضت على كتفه فالتفت فرأى سكالابرينو فسقط على الارض لرعبه وأوثق سكالابرينو يديه ورجليه ووضع كامة في فمه دون ان يبدي شيئاً من المقاومة . وعند ذلك حمله وخرج به .

أما امباريا فقد رأت كل ذلك وأصيبت برعب لا تصفه الاقلام ثم تمعنت بوجه رولاند فرأت عليه علائم الكتابة لا علائم القسوة والانتقام فابتسمت ابتساماً مغتصباً وقالت :

— لا أنكر اني خفت في البدء . . وستضحك مني فقد توهمت انك تريد الإساءة إلي . . أليس كذلك ؟ نعم فانك لا تسيء الي امرأة . . وانك رجل عظيم القلب كريم الأخلاق لا تقتل امرأة لا تستطيع الدفاع . فقال لها رولاند :

— سيدتي انك ستموتين .

فتراجعت امباريا منذرة واضطربت عيناها كأنها قد أصيبت بالجنون فقالت :

— أموت . . لماذا . . لماذا يجب ان اموت ؟
فوضع رولاند زجاجة صغيرة على المائدة وقال لها :

— اني احضرت سماً يقتل للغور دون اوجاع فانك قتلت دافيليا وليس ذلك من شأني ولكنك قتلت ابنتك فيجب ان تموتي .

فاصتكت اسنانها وقالت :

— أنا اموت حين ارى الحياة تبسم لي الطف ابتسام انك لا شك من المجانين .

— ان الحياة كانت تبسم ايضاً لليونور التي قضيت على سعادتها وابيانكا التي سفكت دمها ولي الذي قضيت علي بالشقاء الأبدي ألا ترين ان الارض قد ضجت من جرائمك وان في حياتك موت جميع الذين يقربون منك .. تأهي للموت فلا أمهلك غير دقيقة .

فتفتت شعرها من اليأس وقالت :

— كلا لا أريد ان اموت .. اقتلني إذا شئت .. اقتلني إذا استطعت .

وعند ذلك دخل سكالابرينو فزادها منظره ذعراً على ذعر وقالت :

— إنك من القتل السفاكين .. ولكن لا تحسب اني أموت دفاع ..

الى .. الى ..

غير ان رولاند أسرع للقبض عليها فجرها الى المائدة التي كانت عليها الزجاجة وقال :

— اختاري بين ان تنتحري بشرب السم وبين ان تموتي بسيف الجلاد في فينيسيا .

— الجلاد ؟

— نعم فاني لا أعلم من الذي وشى بك فاني حين برحت فينيسيا كانت الحكومة عينت جائزة ألف ريال لمن يهدي مجلس العشرة الى المحظية امباريا قائلة دافيليا .

— الجلاد .. الجلاد .. كلا .. كلا .. اني أؤثر الانتحار .

نعم اني انتحر ولكن دعني أعيش ساعة بعد .

- يوجد مركبة قمتظرونا عند الباب فـإذا أحببت أن تـعيش شهراً ايضاً
فـتـعالـي .
- كلا كلا رولاند اعف عني.. رولاند أذكر اني أحببتك .. رولاند اني
لا أزال أحبك.

وهنا جعلت تتأوه وتتنهد وتقول اقوالاً تحزن القلوب القاسية بحيث
اضطرب وجه رولاند وربما كان يحاول العفو عنها .
غير أن سكالابرينو كان يراقبه وقد أدرك ما يحول في نفسه .

فلما رأى امباريا قد ركعت أمام رولاند وبسطت يديها له تتوسل وتطلب
العفو أسرع سكالابرينو فأخذ زجاجة السم عن المائدة ووثب الى امباريا
فقبض على شعرها وألقى رأسها الى الوراء .

وبينما كانت امباريا تفتح فمها لتستغيث صب سكالابرينو السم في فمها .
وكان ذلك السم هائلاً فانه لم يلبث أن يبلغ الى جوفها حتى اضطربت
اضطراباً عظيماً ثم سكنت ولم تعد تتحرك فكان سكونها سكوت الموت .
وعند ذلك مسح سكالابرينو العرق عن وجهه المضطرب وقال :

هلم بنا الآن الى الآخر .

٦٣

رسالة رولاند الى ارتين

حضر رولاند هذا القتل الذريع دون أن تبدو منه إشارة تسدل على
الرغبة بالمدخله.

ولكنه حين رأى امباريا راكعة تتوسل اليه مرت على قلبه الرقيق

عاطفة الاشفاق ولو لم يدرك سكالابرينو قصده وأسرع الى اعدامها لكان عفا عنها .

أما سكالابرينو فان من ذكر ماضيه وعرف انه عاش كل شبابه دون أن يدرك معنى الحنو ثم ملاحنوه على بيانكا فجاءه فراغ قلبه كما تملأ أشعة الشمس الأثناء الفارغ فلما أحبها هذا الحب ورأى ان امباريا قد سلمتها تسليما الى بيبو . أن من عرف ذلك لا يكر عليه قتل تلك المرأة بل يعد عمله قضاء عادلا .

على اننا لسنا في حاجة الى تبرئة ابطال هذه الرواية أو الى لومهم فاننا نقص ما حدث لهم وهذا الذي حدث فليحكم عليهم القارىء بما يشاء .
أما امباريا فقد ماتت في تلك القاعة التي كان يحرق فيها عشاقها بها منذ ساعة .

وقد وجدوها في اليوم التالي ميتة في نفس ذلك المكان فاحتفل بها أهل رومة احتفالا عظيما ولبس بعض الفتيان عليها ملابس الحداد ونصبوا لها تمثالا في محل عمومي .

أما رولاند فانه برح تلك القاعة لفوره يتبعه سكالابرينو الى تلك المركبة التي نقل اليها بيبو .

فصعد رولاند الى المركبة وأقام فيها بجانب الكردينال وهو موثق اليدين والرجلين مكوم الغم وصعد سكالابرينو الى جانب السائق وخرجت تلك المركبة بهم من رومة تنهب الارض وتسير في طريق فلورنسا وفييفيسيا .

أما بيبو فانه حين حمله سكالابرينا الى المركبة دعر ذعرا شديدا وقال : لقد دنت ساعتي الأخيرة وقد اغمي عليه في المركبة .

فلما عاد اليه رشده وشعر أن تلك المركبة المقفلة تسير به ذهل في البدء لوجوده في سجن متحرك ثم لما رأى انهم لا يسيثون اليه أخذت السكينة تعود الى نفسه تباعا .

غير أنه كان مضطرباً حائراً إذ لم يكن يعلم الى اين يذهبون به ولكنه
كان يرى هذا الرجل الجالس بجانبه وهو رولاند لا يظهر أنه يريد به سوء .
وقد تمنى به ملياً وفحصه فحصاً دقيقاً فأنتهى بقوله :

— ان هذا الرجل يستحيل ان يكون يريد قتلي ولكن ما عساه
يريد مني ؟

وعند ذلك عاودته ذكرى المغارى ولكني قد اوفى الى الخروج منها في
هذه المرة كما توقفت في المرة الأولى .
وقد مضت الليلة الأولى دون ان يفوه الكردينال بكلمة .

وكانوا قد نزعوا الكمامة عن فمه حين اغيائه حتى انهم فكوا قيود يديه
ورجليه ففحص بمبو بالنظر باي المركبة وقد طمع بالفرار من أحدهما فرأى
انها محكما الأقفال .

وفي اليوم التالي وقفت المركبة عند الظهر فرأى بمبو انها وقفت في سهل
متسع ثم رأى سكالابرينو قد دنا منه وقال له :

— أتريد ان تأكل ؟

فشكره وقال له : كلا وهو يرجو بهذا الامتناع ان يحمله على الإشفاق
عليه .

وبعد منسية عادة المركبة الى السير ففرح بمبو فرحاً عظيماً إذ بدأ يشق
بانهم لا يريدون قتله .

وقد حاول في ذلك اليوم ان يقف على الحقيقة فنادى رولاند قائلاً
بلمهجة المتوسل :

— سيدي .

ولكن رولاند لم يجبه ولم يلتفت اليه .

وعند المساء وقفت المركبة ايضاً وجاءه سكالابرينو فسأله إذا كان يريد
ان يأكل فأجابه بنعم .

ولما سارت المركبة جعل يحدث نفسه فيقول :
أنه ظفر بي الآن وسيضعني في سجن .. حسناً ولكني سأخرج من هذا
السجن بعد ستة أشهر او بعد عام وعند ذلك يأتي دورك ولكني لا اسجنه
هذه المرة في الآبار .

وكانت كل تصوراته منصرفة الى ساعة فراره والانتقام من رولاند وكان
يسلي نعره باختراع آلات التعذيب التي يعذب بها حين الافلات منه والظفر
به فاذا خطرت له وسيلة ارضته ابتسم ابتسام الرضى ونسى كل ما هو فيه .
وقد اجتازوا المسافة من رومة الى بادو بثمانية أيام لم ينبس رولاند في
خلالها بكلمة .

وعندما وصلوا الى بادو لم تسر المركبة في طريق البحيرات المؤدية الى
فينيسيا بل سارت في طريق مستر حتى إذا وصلت اليها وقفت فيها وخرج
رولاند من المركبة فحل محله سكالابرينو وجلس بجانب الكاردينال .
ثم واصلت المركبة سيرها دون أن يعود رولاند .

ولم يكن بمو يرى شيئاً ولكنه كان يسمع فسمع وقع حوافر خيل كثيرة
علم منها أن كوكبة من الفرسان تحرس المركبة .
أما رولاند فانه ذهب الى ذلك المنزل الذي كانت تقيم فيه جواثا مع
أبيه وبيانكا .

فدخل الى الحديقة عند هجوم الظلام، وطرق الباب بشكل اصطلاحي
ففتح الباب فظهر منه ارتين الشاعر .

وقد تنهد ارتين تنهداً عميقاً حين رأى رولاند وحاول أن يظهر ما لقيه
من الضجر في هذه الأيام .

ولكنه لم يصنع الى حديثه وسأله قائلاً :

— هل فعلت ما أوصيتك ان تفعله .

قال : نعم ففعلت وانظر .

فسار في أثره وفتح ارتين باب غرفة فرأى رولاند منظرأ غريباً .
وهو أنه رأى مائدة عليها صندوق مستطيل يشبه الناقوس وقد اوقدت
شمعة عند أوله وشمعة عند آخره وغطى هذا الصندوق بقطعة من الجوخ
الأبيض .

وقرب هذا الصندوق امرأة جالسة تبدو عليها علائم الكتابة .
فقال ارتين بصوت منخفض ، انها بترينا وقد صحبتني بالرغم عني مع
انك أمرتني ان أكون وحدي ولكنني لم استطع مخالفتها لشدة الحاحها .
فقاطع رولاند الشاعر بإشارة ومشى الى ذلك الصندوق فأزاح عنه الغطاء
وظهر عند ذلك انه تابوت .
وقد كان هذا التابوت من خشب السنديان وقد كتب عليه بمسامير
رؤوسها سوداء ما يأتي هذه الصورة .

بيانكا

ابنة امباريا

ماتت في السادسة عشرة من عمرها

قتيلة

بيد الكاردينال والاسقف

بمبو

فأعاد رولاند الغطاء الى ما كان عليه وعند ذلك قال له ارتين :
— اني وضعت بيانكا كما امرتني في صندوق من خشب الارز ثم وضعته
في صندوق من الزنك ثم وضعتها في صندوق ثالث من السنديان .

وقد لقيت عناء شديداً لاضطراري الى تنفيذ اوامرك وحدي ولا سيما حين نقلته الى هنا .

فقال له رولاند : ألم يعلم الرجال الذين نقلوه الى هنا ما كان فيه ؟
- كلا فلم يعلم به أحد .

- حسناً فعد الآن الى فينيسيا ثم التفت الى بتريتا وقال لها :
- ألسنت انت يا ابنتي التي ارشدتني الى الغرفة التي كانت فيها بيانكا ؟
قالت : نعم يا سيدي .

- لماذا ألححت بمرافقة جثة هذه المنكودة ؟
- لأنني كنت احبها حباً شديداً مع اني لم أرها إلا بضع ساعات .
- قولي الحقيقة يا ابنتي فاذا لم تكوفي سعيدة في منزل سيدك تسكفت
باسمادك بموافقة ارتين .

فاصفر وجه ارتين وقال : انها حرة .
فنظرت بتريتا الى ارتين نظرة المشفق وقالت :
- من عسى يريجه إذا فارقته ومن يعتني به حين يمرض ومن يمسح دموعه
حين يبكي ؟

فأجابها ارتين بصوت متهرج من التأثر : أحق يا بتريتا انك لا تفارقيني
ولكن هذا السيد رجل عظيم قادر ان يكفل سعادتك كما قال وهو لا يعرف
الكذب .

فقالت له : هلم يا سيدي فان سعادتي بأن ارضيك .

فبكي ارتين نحيواً وقال :

- إذن انت تحبينني يا بتريتا فاعلمي اني لا أنسىحنوك وانا الذي يكفل
سعادتك الآن فلهي بنسا فانك لا تكونين خادمتي بعد الآن بل ستكونين
زوجتي .

فقال له رولاند :

— وعندما تفعل ذلك فاحضر إليّ لتقبض ثلاثين ألف ريال عينتها مهراً
لهذه الفتاة والآن فاذهبيا .
فودعاه وانصرفا فباتا تلك الليلة في فندق وفي مساء اليوم التالي دخلا الى
قصر ارتين وسيجدهما القراء فيه قريباً .

٦٤

قبر بيانكا

إن المركبة التي سارت بالكاردينال وسكالابرينو ذهبت بطريق قريبين
فكان يخفهما إثنا عشر فارساً ساروا بها الى مغاور بيانكا ثم وقفوا عند
المغارة السوداء .
وكان الكاردينال في خلال هذه الأيام التسعة قد اطمأن بعد الاطمئنان
فانه افترس ملياً وانتهى بقوله :
— لأعلم الآن اين يريد ان يضعني وبعد ذلك نرى ما يكون .
ولم يكن حقه قد زاد على رولاند إذ كان ماثلاً قلبه فلم يتسع لمزيد .
وقد أخذ في خلال السير ينتقد عليه ويسفه اعماله فيقول :
— إنني لو كنت مكانه وقبضت على بعبولسا أبقيت عليه لحظة ولما
سجنته فانه قد هرب من سجنه .
ولكن الأبله لم يقتلني وقد كان يجب ان يقتلني حين رأيته وسيرى
كيف يعرض اصابعه ندماً وبأساً .
وعندما وقفت المركبة وأنزلوه منها نظر نظرة الى ما حواليه وعرف
من اشتداد الظلام انهم اوقفوه قرب المغارة السوداء .
وقد أخذ سكالابرينو بيده وسار به الى ان بلغا باباً ففتح أمامهما .

فدعر بمبو إذ ذكر هذا السجن وذكر ما لقيه فيه في المرة الأولى من العناء وحاول ان يمتنع عن الدخول ولكن سكالابرينو دفعه الى الداخل ودخل في أثره .

غير ان الكاردينال لم يلبث ان دخل حتى ذهل إذ لم يرَ ذلك السجن الرهيب الذي كان فيه بل وجد نفسه في غرفة مفروشة فرشاً جميلاً . أما سكالابرينو فانه أقفل الباب من الداخل إقفالاً محكماً وجلس على كرسي دون ان ينبس بكلمة .

وكان يحتب ارت ينظر الى الكاردينال كأنه كان يخشى ان يخالف الأوامر الصادرة اليه ويبطش به ولكن عروقه كانت تنتفخ من حين الى حين وكانت عيناه تتقدان وينتفض انتفاضاً ظاهراً بما يدل على انه كان يميل الى عصيان أوامر رولاند وقتل هذا الرجل كما كان عليه حقه وبفضة الهائلان .

وقد جلس الكاردينال ايضاً على كرسي في تلك الغرفة المضاءة وقال في نفسه :

— ترى أريد رولاند ان يجعل هذه الغرفة سجنى ؟

وقد توالى الساعات والسكوت سائد حواليه الى ان خيل له ان سكالابرينو قد قام فنهض ومشى الى جهة الباب وقلبه يخفق خفوق اجنحه الطائر .

غير ان سكالابرينو كان قد أسند كرسيه الى ذلك الباب وجلس عليها فتراجع الكاردينال خائباً وهو يقول في نفسه :

— لا سبيل الى الخروج من هنا الآن ولكني لا أعدم وسيلة للفرار . وقد انتهى به الأمر الى انه نام نوماً متقطعاً .

ثم استيقظ فجأة لوقع اقدام سمعها ونظر الى الباب فوجده مفتوحاً ولم يجد سكالابرينو في الغرفة .

وكان المصباح لا يزال على المائدة يضيء تلك الغرفة فرأى رولاند واقفاً أمامه فذعر لمنظره حتى انه لم يستطع النهوض .
اما رولاند فانه قال له : تعال .

ثم برج الغرفة وترك بابها مفتوحاً فلبث الكاردينال في موضعه وقد جمد في مكانه من الرعب الى ان سرى الى قلبه الرجاء فجاء فنهض وخرج من ذلك الباب الى رواق مقفر .

وقد نظر الى يمينه فلم يرَ غير الظلام الخالك فنظر الى يساره فرأى نوراً ضعيفاً فارتعش سروراً ومشى في الظلام وهو يرجو ان يجد منفذاً وان يتوارى في ذلك الظلام عن عيون المراقبين .

ولكنه لم يكذب يسير عشر خطوات حتى لقي ثلاثة رجال لم يكلموه كلمة ولكنهم جعلوا يدفعونه بحرايمهم الى المكان الذي جاء منه .

فتراجع ذليلاً حقيراً وما زالوا يدفعونه حتى انتهوا به الى مكان تألفت فيه انوار المشاعل بما يبهـر البصر ورأى والذعر ملء قلبه انه بات ضمن دائرة غصت بالرجال والخناجر مجردة بأيديهم .

فأيقن بمبو انه قضى عليه لا محالة وأصيب لرعبه بما يشبه الدوار فسقط بجائياً على ركبتيه ولكنه بذل جهداً عنيفاً فتمكن من النهوض ثم شدد نفسه قهراً فنظر الى اولئك الرجال المهدقين به نظرات دموية وقال :

— ماذا تريدون مني ؟

فانبرى من بينهم رجل وقال له بصوت هلع له قلب الكاردينال من الخوف :

— أنا سأخبرك بماذا يريدون منك .

وكان هذا الرجل رولاند فدنا منه ووضع يده على كتفه وقال له بصوت جهوري كان يسمعه الجميع :

— انك في سابق الزمان لم تكن شيئاً مذكوراً بل كنت رجلاً مكروهاً

يحترقك الناس ويحتنبونك ويسيدون بك الظنون فلم تجدد بينهم غير رجل واحد تأثر لشقائقك واشفق عليك ورآك ذكي الفؤاد قوي الارادة فجعلك في عداد اصدقائه وفتح لك ابواب منزله وأغدق عليك النعم فهد لك سبيل المستقبل بحيث بلغت بفضلها ما بلغت .

أما هذا الرجل فهو أنا فانظر الآن بماذا كافأتني فأعفيت أبي وقتلت أمي وقضيت عليّ ان أموت في الآبار .

فضحك ببو ضحكاً هائلاً وقال :

— لقد كنت ابغضك اكثر مما كنت ابغض اولئك الذين كانوا يحترقونني ولا أزال ابغضك بلء جوارحي .

— ليكن . وقد قبضت عليك اول مرة وسجنتك هنا وأنا ارجو ان تعزل وتعينك العزلة على التفكير والندم على إساءتك إليّ بحيث يأتي يوم اصفح فيه عنك .

فلما نجوت من سجنك عدت الى جرائمك بقتلك فتاة بريئة فقل بماذا اساءت اليك هذه الفتاة ؟

— لقد كنت احبها واقسمت ان تكون لي .. لي وحدي فلو لم تمت .. أو اه انها لو كانت حية .

— أكنت تقتلها ايضاً ؟

— كلا ولكنني كنت اكون اشد براعة من قبل فأتمكن من القبض عليها قبل ان تنتحر كما فعلت .

فاصفر وجه رولاند لهذا الخبر الفجائي وأيقن ان تلك المنكودة قتلت نفسها بيدها تخلصاً من عار الفضيحة .

وقد سمع عند ذلك أنيداً من ورائه فقال : صبراً يا والد بيانكا .

أما ببو فانه ضحك كما ضحك اول مرة وقال وقد هدد السوء بقبضتيه : — انك تنتصر ولكنني اذا مت فقد انتقمتم لنفسي قبل الموت بموت

التي تحميمها انت . . تلك التي لم يقتلها غير حي فافتانني إذا اردت اموت .
 قرير العين بهذا الانتقام فان تلك التي تحبها لم تمت لولاى فيها ايتها السماء
 واقمارها اشهدي بأني أموت آمناً مسروراً أما هو فيعيش ليتعذب فانه ليس
 من الذين يذسون وانت يا رولاند اني اكرهك فاعلم انه لو كانت بيانكا
 نفسها لي واعطيت معها كنوز الارض لتخلت عن بيانكا وعن الكنوز
 مقابل ساعة استطيع تعذيبك فيها فاضرب الآن فقد قرأت بين عينيك
 انك قضيت علي .

فالتفت رولاند الى المحيطين به وقال :

— ماذا تريدون ايها الاخوان أيستحق هذا الرجل ان يحيا ؟

فصاحوا جميعهم بصوت واحد قائلين :

— ليقتل .

قال : أيستحق هذا الرجل ان يموت من دون تعذيب ؟

قالوا : كلا فليعذب .

وعند ذلك قبض إثنين على الكاردينال وسارا به على مسافة بضع
 خطوات من ذلك المكان الى مكان كان فيه صخر كبير حفروه حتى بات
 يشبه الكهف .

وكان نعيش بيانكا موضوعاً عند مدخل هذا الكهف فراه بمبو وقرأ
 ما كان مكتوباً عليه فاهتز اهتزازاً عنيفاً وتراجع منذعراً ولكن الرجلين
 كانا قابضين عليه .

وهناك تمثلت له حوادث تشبه احلام النائمين فانه رأى نحو عشرين رجلاً
 حملوا النعش ونقلوه الى الكهف في قلب الصخرة فيجعد الدم في عروق بمبو
 وحوّل نظره عن ذلك النعش .

وعند ذلك سمع صوت رولاند يقول هذا القول الغريب :

— ايها الكاردينال اني ووالد بيانكا نغفر لك ذنبك ما زلت قد
 اصبحت من اهل القبور .

فاصطكت اسنان بمبو وقال :

— أنا الآن من اهل القبور .. ما معنى هذا الهزل .. اني اشعر بأث صوابي قد ضل أنا ميت .. من الذي يقول هذا القول .. كلا .. دعوني .. الى اين تذهبون بي ايها .. وقد اختلطت بقية كلامه بأنيته فلم يفهم منها شيء وهذا الذي حدث .

أما رولاند لم يكذب يتم كلامه حتى دفع الرجال بمبو الى ذلك الكهف أي الى قبر بمبر وأخذ البناءون بالفور يسدون بالطين باب القبر .

أما بمبو فقد بات في حالة لا تستطيع وصفها الأقلام إذ كان يشب في ذلك القبر وثوب المجانين وكانوا يسمعون صوته من الخارج فيرتعشون رعباً لتصوهم هذا المشهد .

وقد اشتغل البناءون ساعة في سد باب القبر فلما اوشكوا ان ينتهوا من سده ضحك بمبو ضحكاً هائلاً اصفرت له وجوه الحاضرين .

وقبل ان يضعوا الحجر الأخير خطر لأحد البنائين ان ينظر الى داخل القبر فرأى بمبو منظره تحت الشمس وقد فارق الحياة .

ولما تم سد الباب ألقوا فوق تلك الصخرة كثيراً من الحجارة الصغيرة والتراب .

وقد زرعوا فوقها نباتاً من نبات تلك الجبال السريع النمو فلم تمض بضعة ايام حتى نبت الزرع فوق تلك الصخرة بحيث لم يعد يخطر لأحد ان ذلك النبات يوجد تحته قبر بيانكا ابنة المحظية امباريا وقبر الكاردينال اسقف فينيسيا .

أما رولاند فانه عين عشرين رجلاً لحراسة الصخر شهراً كاملاً ثم عاد

مع سكالابرينو الى مستر فذهب منها الى البحيرات وفي الساعة العاشرة من المساء دخل الى بيت الجزيرة .

٦٥

قبر آخر

كان أول ما اهتم به رولاند حين وصوله الى بيت الجزيرة انه تفقد أباه الشيخ كي يطمئن بأنه لم يحدث له ما يكدره أثناء غيابه .
وكان الدوج الشيخ قائماً نوم الاطفال فوق رولاند هنيئة يتمعن في وجهه وهو مضطرب ذلك الاضطراب الذي يحدث عادة لمن يلتقي بمن يحبه بعد فراق كان خائفاً فيه عليه .

أي ان ذلك الاضطراب لم يكن ناشئاً عن تقرير الضمير بعد ذلك القضاء الذي قضى به على الكاردينال .

ونعم ان ذلك القضاء كان هائلاً وأي قضاء أشد وافطع من ان تسجن رجلاً في قبر مع جثة الذي قتلها وتسدد عليه باب القبر بالطين والحجارة وتدفنه في قيد الحياة ولكن الأخلاق والمعادن تختلف باختلاف العصور والأزمان فقد كانت إيطاليا في ذلك العهد مسرحاً للأعمال الهائلة وساحة للمعارك الدموية لا تنار إلا بنيران الحرائق ولا يلقي فيها غير العصابات تنهب الارض وتسفك الدماء ولا يسود بين قومها غير الجرائم بحيث تولدت القسوة في القلوب وبات الانتقام من أخص مطالب الناس .

على اننا لا نبحث في أخلاق ابطال هذه الرواية كما تقدم لنا القول في احد الفصول السابقة بل نروي حديث اعمالهم وعلى الجملة فان انتقام رولاند لو حدث في هذه الأيام لكان مماساً تقشعر له الأبدان ويندى منه جبين الإنسانية خجلاً واما في ذلك العصر فقد كان أمراً محموداً .

ومهما يكن من الأمر فان رولاند على شدة اشفاقه وميله الى العفو عند المقدرة لم يجد في قلبه أية رحمة حين قضى على بئبو هذا القضاء ولذلك لم يشفق عليه ولم يعف عنه ولا سيما وان الكاردينال لم يستعطفه بكلمة بل كان يهيج في صدره البغضاء بما كان يقوله مما يدل على توطين الحقد في قلبه .

وبعد ان اقام رولاند هنيئة يتمعن في وجه أبيه فارقه ونزل الى حيث ينتظره سكالابرينو فأقام معه يتحدثان بأحاديث مختلفة دون ان يذكر بيانكا ان بئبو بحرف وبعد ذلك تركه رولاند فخرج سكالابرينو من المنزل وذهب الى الأرصفة القديمة في ليودو وهناك جعل يسير ببطء وهو يفكر في مشروع لا بد ان يكون شخصياً لأنه لم يطلع عليه رولاند .

وقد كانت السكينة بادية في وجهه في حين ان النار تتأجج في قلبه . وما زال يسير حتى وقف عند منزل كان مكتوباً على بابه بحروف كبيرة « خماره مرسى الذهب » .

وهناك وقف يراقب فرأى ان الباب مقفل ولكن النور ينبعث من خلال شقوقه فقال في نفسه : ان زبائن هذه الخماره مجتمعون ووقف ينتظر .

ويذكر القراء ان لهذه الخماره بابين يدخل من إحدهما الى رواق فصير سكالابرينو نصف ساعة ثم رأى ذلك الباب قد فتح فدفعه وخرج منه رجلان فعرف سكالابرينو ان احدهما برتولو صاحب الخماره ولم يعرف الثاني لأنه كان ملتفأ برداء كبير .

وقد خرجا وتركوا الباب مفتوحاً فسارا بضع خطوات وهما يتحدثان كأنهما يتمهان حديثاً قديماً .

أما سكالابرينو فانه اغتم هذه الفرصة ودخل الى الرواق من الباب المفتوح فدخل الى الخماره وذهب بملء السكينة الى قاعة الاجتماع فأقام ينتظر . ولا بد لنا هنا ان نذكر للقراء ذلك الرجل الذي كان مع برتولو ولم يعرفه سكالابرينو ولذلك نعود قبل ساعة الى تلك الخماره فنقول .

دخل هذا الرجل الى الخمار وجلس على مائدة قرب الشاربين كرجل تعود زيارة هذا المكان .

وكان برتولو قد عرفه دون شك فصرف جميع زبائنه حتى اذا لم يبق فيها احد كشف الرجل القناع عن وجهه فظهر جينارو رئيس البوليس .
وعند ذلك قال له برتولو : اذا كان يريد سيدي ان يشرب فان لدي خمرأ معتقة من افضل الخمر الفرنسية .

فوافق الرئيس على ذلك وبعد ان شرب كأساً سأل قائلاً : ما وراءك من الأخبار ؟

قال : لدي انباء خطيرة .

— ما هي ؟

— أولها ان رولاند قد برح فينيسيا .

— أتعلم الى أين ذهب ؟

— ان اخصاءه يؤكدون انه ذهب الى ميلانو .

— حسناً فليس هذا الذي أريد ان اعرفه فقل لي بماذا يتحدثون في الميناء ؟

— انهم لا يتحدثون يا سيدي إلا برولاند فانه منذ ظهر للبحارة وقال لبعضهم انه ستحدث قريباً حوادث عظيمة في فينيسيا لم يعد لهم شاغل إلا حديثه وكلهم معجبون به حتى انهم كانوا يتحدثون الآن في هذه الخمارة فيطعنون بالدوج فوسكارى أقبح طعن ويرجون ان ينقذ رولاند الجمهورية من قبضته .

— أظن حقيقة ان شعب فينيسيا ينتصر لرولاند ؟

— أأأذن لي يا سيدي ان اتكلم بجلاء ؟

— بل أمرك .

— إذن فاعلم ان معتقدي هو ان رولاند كانديانو لا يلبث ان يظهر الشعب فينيسيا حتى يهبوا هبة واحدة لنهرته ولكن جيشنا وبوليسنا قويان لحسن الحظ .

- نعم هو ذاك ولكنك ستتبع تعليماتي في انتظار هذه الحوادث .
- معاذ الله ان أخل منها بحرف فاني حين اجتمع بأولئك البحارة أظهر لهم اني اشد منهم حقداً على فوسكاري وعندما يذكرون والد رولاند الأعمى انظاها بالبكاء إشفافاً عليه .
- حسناً تفعل والآن أظن ان رولاند غير موجود في فينيسيا ؟
- بل أظن انكم تعرفون من ذلك فوق ما أعرف .
- ورفيقه ؟
- أي رفيق ؟
- ذلك الرفيق الذي لا يفارقه لحظة أي سكالابرينو .
- فابتسم برتولو وقال : سكالابرينو ؟
- قال : نعم وأظن انه يدعى بهذا الاسم .
- إذن لا يجب يا سيدي ان تهتم لهذا الرجل .
- كيف لا أهتم وهو خصم شديد ؟
- لقد كان كذلك .
- ماذا تعني ؟
- اعني انه إذا كان رولاند في ميلانو كما يقولون فان سكالابرينو قد سافر سافراً شاسعاً لا يعود منه وأنا الذي قتلتته .
- بورك فيك فاني حين لقيت هذا الرجل آخر مرة أي منذ عشرين يوماً ..
- فوثب برتولو من موضعه كأنه قد تهرب وقد اصفر وجهه فقال :
- أقول يا سيدي انك رأيت سكالابرينو منذ عشرين يوماً ؟
- رأيتته بعيني ولكن لنبحث الآن في المهم وهو اني اريد منك ان تشاير على تحميس رفاقك وتجعل لهم ثقة لا حد لها برولاند كانديانو .

ثم نهض وخرج من تلك الحجرة فتبعه برتولو الى الخارج وهناك ألق عليه
بوجوب اتباع تعليماته وقال له :

— يجب على الأخص في أول شباط ان تبذل كل ما لديك من الجهد .
قال : لماذا خصصت هذا اليوم يا سيدي ؟

قال : لأنه اليوم الذي يحتفل فيه الدوج حفلته الكبرى وبقدر ما يزيد
التهافت لرولانديز يد الخطر عليه .
وهنا أقول لك أنه إذا سألك رفاقك عن الأوامر التي أصدرتها إليك
بشأن تلك الحفلة فقل الحقيقة بتمامها .

وعند ذلك فارقه الرئيس فوقف برتولو هنيهة حائراً مبهوراً إذ لم يدرك
شيئاً من مقاصد رئيس البوليس .

وكان برتولو هذا من أخص رجال البوليس وله نفوذ عظيم بين أهل الميناء
فلم تكن تخفاه خافية من أمورهم بحيث كان أعظم جاسوس لدى جينارو .
فلما توارى رئيس البوليس عنه لم يعد يفكر بأوامره وخفايا مقاصده
بل جعل يفكر بسكالابرينو وبذلك النبأ الغريب الذي نقله اليه الرئيس إذ
قال له أنه رآه بعينه وهو أمر لا يحتمل التصديق لقربته فبعد ان افترس
ملياً قال في نفسه :

لا شك ان الرئيس قد اخطأ إلا إذا كان قد رأى الشيطان يتمثل له بشكل
سكالابرينو .

ولم يكن يقول هذا القول عن سبيل المزاح بل كان يعتقد اعتقاداً راسخاً
ان الشيطان قد تمثل له بهذه الصورة لاعتقاده ايضاً ان مثل رئيس البوليس
لا يمكن أن يخطئ .

وإنما خطر له الشيطان إذ لم يكن يخطر في باله ان سكالابرينو يحبس بعد
الموت ويستطيع الخروج من ذلك القبر بعد أن ابتلعه الأمواج فيه .

ولذلك عاد آمناً الى الخمارة فاقفل بابها ودخل فجعل يحسب نقوده وايراد
 الليلة حسب عادته كل يوم .
 ولما أتم عد نقوده ذهب الى باب ذلك القبو الهائل فوقف عنده موقف
 الحائر المبهوت وجعل يقول :
 ترى أيمكن ذلك ان يكون ؟
 تم فتح ذلك الباب وأطل منه باحثاً عن الجنة وكان الماء قد فرغ من
 القبو .
 فلما لم ير شيئاً لاشتداد الظلام عزم على أن يحضر مصباحاً وينزل الى القبو
 فيبحث عن الجنة .
 وقد دخل الى القاعة العمومية فلم يكدر يثأ عتبة بابها حتى وقف والذعر
 ملء قلبه إذ رأى سكالابرينو جالساً على مائدة وقد أسند رأسه الى يده
 وجعل ينظر اليه .
 فلما رأى سكالابرينو ما كان من جموده وانحباس لسانه قال له :
 - أهكذا تستقبل اصحابك القدماء يا برتولو ؟
 فطاش رأس برتولو ولم يصدق ما رآه فقال :
 - ولكني أرى وجهه واسمع صوته وما أنا بحالم فكيف هذا ؟
 أنا هو برتولو الواقف أمامه .. أهو هو سكالابرينو الناظر إلي ؟ !
 فقال له سكالابرينو : اني عالم يقيناً بانك ستقدم لي من تلك الخمرة
 المعلقة في ذلك القبو الشهير .
 ثم نهض ومشى اليه فجعل برتولو يتراجع وسكالابرينو يتقدم وهو
 يقول له :
 - ان باب القبو مفتوح وما عليك الا ان تنزل اليه فان صديقك ساندريجو
 ينتظرك وقد سأم صبراً .
 وكان التهمك ظاهراً في أقوال سكالابرينو ولكنه لم يكن يريد التهمك .

وما زال برتولو يتراجع حتى التصق بالجدار ومسد يده على خنجره وهم يقتله ولكنه انف من قتله وهو على هذه الحال .

أما برتولو فانه كان قد تشجع قليلاً وحلت عقدة لسانه فقال له :
— أتريد أن تشرب ايها الصديق ؟

فضحك سكالا برينو ضحكاً هائلاً وقال :

— لقد ملأت جوفي من مياه قبوك فاشكررك .

— اقسم لك بأني لست انا الذي القاك في القبو بل اني لم أكن أريد لك هذا ولكن ساندريجو كان صاحب هذه الفعلة هذه المنكرة وقد حذرته كثيراً ومنعته مراراً عن هذا القصد وأعلم يقيناً ايها الصديق اني لا أريد لك سوءاً .

— وأنا كذلك .

— إذن ماذا تريد مني وماذا أتيت تعمل هنا ؟

— اني أتيت لأقتلك يا برتولو .

— كلا انك لا ترتكب هذه الجناية وما انت إلا مازح دون شك وإلا كيف يخطر لك ان تقتلني وأنا لم اسمي اليك بشيء بل كنت اثني عليك منذ ساعة .

— مسكين يا برتولو فلم يخطر لي انك تخاف الموت إلى هذا الحد .

وكانت اسنان برتولو تصطك من الرعب والعرق يسيل من وجهه وقد امتقع حتى بات بلون الأموات فقال لسكالا برينو .

— نعم فقد عرفتكم رقيق الشمور وانك لا تقتلني دون شك فهل قريد

ان الشمس العفو منك جاثياً على ركبتي ؟

وقد ركع عند ذلك فقال له :

— انهض .

وكان في نية سكالابرينو ان يقتله ولكنه حين جاء اليه كان يعتقد انه سيلقي خصماً يدافعه لا ان يبطش به بطش النمر بالتمجة .
أما برتولو فانه تنفس الصعداء ووقف وهو يقول :

— إنك ستصفح عني أليس كذلك ... وحسناً تفعل ايها الصديق فاني اقسم لك بالله ان ساندريجو صاحب تلك الفعلة واني لا بد لي فيها .
فسكت سكالابرينو ولم يجب .
فقال برتولو في نفسه ا

— ترى ما عساه يصنع ايقتلني ولكنني اراه أغمد خنجره العله يريد خنقي ؟
فقال له سكالابرينو :

اصغ الي يا برتولو فانهم يعتقدون انك أشد وابسل رجال فينيسيا واني اردت ان اقتلك لأنك اردت قتلي والآن جميع قلبك المصاعب قد حدث معظمها بسببك فانت لا تستحق الحياة ولكنني اشفقت عليك كما قلت لك ..
— ارأيت انك طيب القلب ؟

— هو ذاك ولذلك اقترح عليك قتلاً منظماً ولا اقاتلك بالخنجر بل بالأيدي فتأهب وهلم بناً .

فاثقت عينا برتولو ببارق من الرجاء وقال :
— اذا كان ذلك فسح لي مكاناً على الأقل .
فتراجع سكالابرينو خطوتين وهو يقول :
— احذر لنفسك ايها الشقي اني سألقيك في القبر .

وعند ذلك هجم برتولو على غرة فانزع الخنجر من منطقتة وطعنه به طعنة نجلاء .

غير ان سكالابرينو تمكن من الوثوب قبل ان يصل الخنجر الى صدره فأصاب ذراعه وأسأل دماغه .

وفي الوقت نفسه أصيب برتولو بضربة هائلة على رأسه كادت تضيق رشاده وسقط الخنجر من يده .

فرفس سكالابرينو الخنجر برجله وهجم عليه فكان القتال شديداً بين الاثنين وكلاهما مشهود له بالقوة البدنية وكلاهما حاقداً على خصمه حقد الموت .

الى ان تمكن سكالابرينو من تطويق ظهر خصمه بيديه وجعل يضغط ضغطاً عنيفاً بينما كان برتولو ينهش وجه سكالابرينو وبعضه .

وما زال على ذلك الى ان تلاشت قواه وانحلت عزيمته وسمع صوت تكسير عظامه فلم تكن غير لحظة بعد ذلك حتى انقلب رأسه الى جهة كتفه الأيسر واسلم الروح .

فاطلقه سكالابرينو عند ذلك فسقط الى الأرض جثة هامدة فرفسه برجله الى القبو وسمع صوت سقوطه فيه فاقفل الباب وعاد ببلء السكينة كأنه لم يفعل شيئاً .

هذه كانت خاتمة تلك المباراة بين الرجلين وقد فقد جينارو رئيس البوليس بموت برتولو اعظم ركن من اركان جواسيسه الذين كان يعتمد عليهم في المهمات ولاسيما في ذلك اليوم العظيم الذي لم يكن يعلم لمن يستتب النصر فيه الفوسكارى أم لرولاندا .

٦٦

صديقان

قبل هذه الحوادث المفجعة ببضعة ايام كان الدوج فوسكارى وجينارو رئيس البوليس جالسين في قاعة الاستقبال في سراي الدوج .

وكان الدرج جالسا في كرسي عظيم ورئيس البوليس واقفاً أمامه وقفة الاحترام .

وكان الدرج يحمل بيده رسالة قد قرأها نحو مائة مرة وهو لا يزال يقرأها وهذه هي :

« صديقي ومولاي .

« حدثت حوادث لم تكن في الحسبان قضت علي أن أبرح فينيسيا دون أن أراك .

« على أني أرجو أن أعود اليك في اقرب حين فأعود اعمالي لديك وما هي إلا الإخلاص والوفاء .

« ولذلك أسألك ان تصفح عني لهذا السفر الفجائي وأن تعلم يقيناً إنني في القرب والبعد صديقك المخلص وخادمك الأمين .

بمبو

« اسقف فينيسيا بحول الله »

حاشية : لا بد لي من أن أوصيك هذه الوصية وهي :

« اسرع بالاجراء ضد الذين تعرفهم .

« أما ذلك الرجل الذي حال دون مخابرتك مع مدسيس فاذا لم يكن بوليسك قادراً على القبض عليه في الحال كان الخطر شديداً فتدبر . »

وكان بمبو قد كتب هذه الرسالة قبل سفره وأوصلها الى الدرج بطريقة مضمونة في نفس ذلك اليوم الذي دخل فيه الى منزل ارتين .

فقرأ الدرج مراراً هذه الرسالة التي حرمته الرقاد لشدة خوفه من عباراتها الأخيرة .

وقد دعا رئيس البوليس اليه وقال له : هل عرفت شيئاً عن الكاردينال ألم تسفر ابجائك عن شيء ؟

قال : أظن يا مولاي أني عرفت المكان الذي ذهب اليه نيافته .

ولكنني سأسألكم قبل كل شيء أن تعملوا بأنني لا أعلم امرأ أن واكدأ ان
جواسيسبي قد انتشروا في كل مكان دون أن يعمثوا بشيء . وكل ما أقوله لكم
مبني على الظن .

— ما الذي تظنه ؟

— أظن ان الكاردينال خاف .

فأجابه بلهجة دلت على العظمة :

— مما يخاف هذا الكاردينال العظيم في ظل الجمهورية :

فأجنى الرئيس بملء الاحترام وقال :

انه وان كان كردينالا فهو رجل ومهما علا مقام الرجل فقد يحدد إذا
فتش في ماضيه خيالاً يزعبه في لياليه .

— هل وجدت هذا الخيال .

— نعم يا مولاي وهو يدعي رولاند كانديانو .

فبذل الدوج جهداً عنيفاً كي يخفي اضطرابه ولكن هذا الاضطراب لم
يخف على رئيس البوليس فقال في نفسه :

— لقد سنحت الفرصة لالقاء ذلك الخطاب الذي طالما رددته عند المرأة
فلا تأهب لتمثيل دوري فان الحياة تمثيل لا يفوز فيها غير البارع فيه .

فقال له الدوج :

— إذن اتحسب ان الكاردينان خاف رولاند ؟

— لا اقول ذلك يا مولاي على سبيل الظن بل على سبيل اليقين ولا
حاجة الى تذكير عظمتمكم بتلك الضربة الهائلة التي اصيبت بها أسرة
كانديانو .

وحاشاي أن أكون أردت بهذه الذكرى تقرير أحد من الناس ولكن
الضربة كانت قاضية على تلك الأسرة قضاء لا يحتمله التصور غير ان رولاند
قد نجا من السجن يا مولاي .

- وماذا تستنتج ؟
- استنتج وذلك على سبيل الظن ان الكاردينال ببو كان أحد الذين أصابوا اسرة كانديانو بتلك الضربة وان رولاند حاقده على الكاردينال حقدًا هائلًا وان الكاردينال يعرف هذا الحقد حق المعرفة فهو لم يسافر إلا لأنه خاف .

فحقد فوسكاري به وقال له :
- أتحسب أنه يوجد أيضًا غير الكاردينال من يخاف رولاند ؟
- كلا يا مولاي لأن أولئك الذين أشترتهم اليهم ليسوا من الذين يهربون حين تشور العاصفة بل انهم يقتحمون الاخطار حتى يفوزوا وأظن أني غير محتاج الى ذكر اسمائهم .

فاطرق الدوج هنيهة مفكرًا ثم ابتسم وقال :
- انك رجل ماهر يا جينارو .
فانحنى وقال : ان سيدي يغمري باحسانه .
- أين ذهب الكاردينال فيما تظن ؟
- أنه هرب إلى رومه .
- لماذا ذهب الى رومة ولم يذهب إلى ميلانو أو فلورنسا مثلاً .
- لا بد أن تكونوا سمعتم بتلك المخطيئة الرومانية التي أقامت عندنا وكان لها شهرة عظيمة .

فاصفر وجه الدوج وقال : امباريا .
- هي بعينها والذي أظنه أنه يوجد بينها وبين الكاردينال علائق سرية تقضي عليه بأن يكون حيث تكون ولما كانت امباريا قد ذهبت الى رومة فقد ذهب هو اليها في نفس ذلك اليوم .

فنهض الدوج وحاول الرئيس أن ينصرف لاعتقاده ان الدوج يريد ذلك .

ولكن الدوج أوقفه بإشارة وقال له : ابق فاني أريد محادثتك واجلس أمامي .

- مولاي ؟

- اني أريد أن تجلس فاجلس فإنك أعظم من أن تلبث واقفاً بحضرتي .
فامتثل الرئيس شاكراً وبدأ الدوج الحديث فقال :

- دع الآن الحديث بشأن الكاردينال فهو يعود حين يريد .

- هذا إذا كان يستطيع .

فارتعد وقال : كيف ذلك ؟

قال : أريد أن أقول يا مولاي أني اعتقد بأن الكاردينال يمو إن يعود الى فينيسيا وأنه يسافر السفر الأكبر الذي لا يعودون منه على الإطلاق واسمح لي يا مولاي ان أتكلم بصفتي رئيساً للبوليس وان كان ذلك من واجبات سواي في هذا المقام .

- واجبات من ؟

- واجبات رئيسي . رئيس ديوان التفتيش .

- ولكنك تعلم يقيناً ان رئيس ديوان التفتيش قد استقال وفوق ذلك فما الذي تنتظره من دندولو وأنت تعلم انه عاجز المهمة عاجز الرأي فقل ما تريد قوله .

فقال جينارو : نعم ان منصب رئاسة ديوان التفتيش خال لنكد الطالع في هذه الايام التي يجب أن يكون فيها رئيس حازم قوي الإرادة .

- أي يكون مثلك ؟

- كلا يا مولاي فاني غير خليق بهذا الشرف .

- وأنا أقول لك أخدمنا في هذه الأحوال بما عرفت به من الاخلاص بل أخدم الجمهورية كما يجب أن يخدمها رئيس ديوان التفتيش ولا تخف ان يذهب املك سدى .

فوقف جينارو وقال :

اذن لنتكلم بحرية وجلاء يا مولاي فاني انتظر من عهد بعيد أن اسمع ما سمعته الآن من عظمتكم وان همي اعظم من أن تتقيد بمنصبي الحاضر .

– أي انك تسألني تعيينك بدلاً من دندولو ؟

– هو ذاك يا مولاي .

– إذن أعذك بهذا المنصب فاجتهد ان تستحقه .

– سأبذل جهدي يا مولاي .

– ولا تحسب اني أعذك دون قصد الوفاء وسأعين لك يوماً محدوداً فعد

إلي في اليوم التالي من شهر شباط وذكّرني بهذا الوعد تجد اني صادق به .

– هذا كل ما أرجوه يا مولاي وقد فهمت شروطكم غير اني اتخذت كل ما

ينبغي اتخذه من وسائل الاحتياط ليوم الحفلة الكبرى قبل ان يتفضل علي مولاي بهذا الوعد .

– حسناً فعلت والآن تقول ان الكاردينال لن يعود إلى فينيسيا .

– اقول يا مولاي ان الكاردينال قد بات الآن في قبضة رولاند فيما

اعتقد .

هذا الذي اريد أن ابحت فيه أي بهذه المؤامرة التي يدبرونها الآن ضدي

فاني قبضت على نحو مائتي رجل ولكفي لم اطمئن بعد .

– ذلك لأنكم لم تقبضوا على الذين يجب القبض عليهم .

– هذا الذي اعتقده ولكن قل لي الآن كيف تمكنت من تعقب أثر

رولاند إلى هذا الحد ولم تتمكن من القبض عليه ابلغ من ضعف بوليسنا ان

رجلاً واحداً يعبت به عدة اشهر :

– يسوءني يا مولاي ان أخوض في هذه المسألة لأنني لا أحب الطعن

بأحد .

– أني كدت أقبض على رولاند ثلاث مرات ولكن ما حيلتي وقد

كانت أوامر دندولو ترد الي في كل مرة مخالفة للخطة التي كنت أضممها .
فيلتوي القصد وتضييع الفرصة .

- وبعد ان استقال دندولو ؟

- برج رولاند فينيسيا .

٧ - أنت واثق مما تقول ؟

- اني لا اخطيء يا مولاي لأنني لا اقول إلا ما أثبتته بنفسى ولاسيا في
الأمور الخطيرة .

- ولكن لا بد من القبض على رولاند ومحاكمته فانه يتولى الآن زعامة
عصابات من اللصوص تشبه الجيش فاذا لم تقبض عليه كان خطراً دائماً على
الجمهورية ولكني أرجو أن لا يطول غياباه عن فينيسيا وان لا ينجو من
عبدل القضاة .

- اسأل مولاي أن يطمنن فان رولاند سيعود .

- إذا كان ذلك فافني مطلق يدك في العمل فتصرف كما تشاء .

- ولكذلك تمنعني يا مولاي سلطة عظيمة ونعم انها مؤقتة ولكني استطيع
بهذه السلطة ان أكره القائد العام نفسه على طاعتي .

- نعم أعرف ذلك وأردد قولي السابق .

وعند ذلك أخذ الدوج ورقة فكتب عليها وامضاها ثم ختمها بختم
الجمهورية وأعطاه الى رئيس البوليس .

فأخذها جينارو وهو يرتعش سروراً وقال :

لنبحث الآن يا مولاي في المؤامرة التي تهتمون بها فقد قلت لكم انكم لم
تقبضوا على الذين يجب القبض عليهم .

وعند ذلك دخل الحاجب وقال :

ان القائد العام على الباب يا مولاي وهو يلتمس الاذن بالدخول .

فأشار الدوج الى الحاجب بادخاله وقام فأزاح ستاراً وقال لجينارو :

... اختفي وراء هذا الستار وانتظر ذهاب التياري لنعود إلى تمة بحثنا.
فامتثل جينارو ودخل التياري بعد هنيهة فقال :
كنت أحسب أنني استطيع استدعاه إذا كنت محتاجاً إليه .
قال : كلا لا فائدة من حضوره وجلس أمام الدوج .
وكان الشيب قد بدأ يظهر في شعر التياري وبدأت علائم التعب في وجهه .
ولكن عينيه كانتا لا تزالان براقنتين تنبعث منهما أشعة تدل على الإرادة
المتأبدة .
وكان القلق بادياً عليه وذلك لأن المؤامرة التي يريد بها بدأت بالوصول إلى
الغاية منها ومع ذلك لم يكن راضياً .
على أن اضطرابه لم يكن من غاية المؤامرة بل من سير المؤامرة نفسها
فإنه دخل في سلوكها مرغماً ثم أصبح بعد قليل رئيساً لها دون أن
يسمى لنيل هذه الرئاسة .. وكان من أهل الطمع وهو يرجو أن يجعل
الجمهورية ملكية ثم يجعل الملكية امبراطورية ويصبح عظيماً كفرنسوا الأول
وشارلسكان .
ولكن الذي كان يخيفه أن جميع أعمال المؤامرة كانت تجري بسهولة لم
يكن يتوقعها وكان يرى كثيرين من القواد يأتون إليه من تلقاء أنفسهم
وينتظمون في سلك المؤامرة بينما كان يحسبهم من أعدائه .
ولذلك كان يحسب أن يداً خفية قادرة تدير شؤونهم وتهييء له أسباب
مجدده . بل أنه توهم مرة أن فوسكاري واقف على أسرار المؤامرة وأنه لم
يعاقبه إلى الآن حتى يدعه في اطمئنان إلى أن يتيسر له أن يضربه الضربة
القاضية .

فكانت هذه الأفكار تتنازع في نفسه مع ليونور ويضطرب لها هذا
الاضطراب فإنه كان لا يزال يهوى ليونور كما كان يهاها قبل الزواج ويرجو
أن يفتنهما بالعظمة متى فاز بمرامه ووضع على رأسها أكليل الدوقية ويقول

في نفسه انها من سليمة الحكام وانها لم تحب رولاند من قبل الا لانه كان ابن
دوج فمق صرت دوجا احبتي دون شك .
هذا الذي كان يرجوه التيماري من المؤامرة وهو أن يغنم قلب ليونور
حين يفوز بالحكم ويتقلد الامارة .

وقد جلس أمام الدوج كما تقدم وهو متأهب لقتله اذ بدرت منه بادرت
تدل على انه واقف على سره .
أما الدوج فانه قال له : حسنا فعلت بقدمك الي لأني اسر برؤياك
ولكن لا بد لي من لومك فانك لا تزورني إلا في القليل النادر .

— ذلك لأني اشتغل لك فأنا مشغول عنك بك .
— لا شك عندي بوفائك ايها الصديق الصادق فقد بت صديقي الوحيد
بعد سفر بيمو .

فلم يجد التيماري في لهجة فوسكاراري اقل دليل يحمله على الشك باخلاصه
فقال :
لقد أتيتك باسماء جديدة .

فانقبض الدوج وقال : في كل يوم تفتح السجون ونلقي في اعماقها
العباد ؟
— ان مجدك لا يؤيد غير هذه السجون ألم تعد رجل العزم الشديد الذي
عرفناه ؟

بل أن الجمهورية قد تجرأت كما أرى فان كثيرين من النبلاء قد هيجروا
البلاد هاربين وغصت السجون بالمتهمين وقد اعدمنا خمسة عشر رجلا في خلال
شهرين وبت إذا خطر لي ان اتجول في فينيسيا لا أبصر من حولي غير الرؤوس
المطرقة والسكون الشامل بينما كنت إذا ظهرت للناس لا يقابلوني إلا بالهتاف
اما الآن فانهم إذا نظروا إلي خلتهم يقولون : كفاك ما سفكت من الدماء
وأسلت من الدموع .

ولكن لم يبق غير القليل فتطمئن نفسك وفي كل حال فانك تستطيع ان تظهر للناس يوم الحفلة الكبرى وأنا على اليقين من أنك لا تسمع منهم غير الهتاف :

فتناول الدوج قائمة الاسماء من يد التياري وجعل يقرأها فيهرز رأسه قارة ويبتسم قارة ويقول : أهذا أيضاً من الخائنين فقد كان بالأمس يظهر لي آيات اخلاصه وهذا ايضاً فقد قال لي أنه يسفك آخر نقطة من دمه في سبيلي إلى ان أتم قراءة الأسماء فقال :

— أرجو ان لا يوجد سواهم فانهم يبلغون الاربعين .

قال : كلا وأما بقية الفنديسين فانهم مخلصون لك أشد الاخلاص وسأعود اليك بعد ثلاثة أيام فإخبرك بطريقة ترتيب الجند يوم الحفلة بحيث يحيطون بك من كل صوب .

وعند ذلك نهض التياري فودعه وانصرف .

وقد شيعه الدوج الى الباب فلما عاد الى القاعة لقي رئيس البوليس فيها فقال له :

لقد سألتني يا مولاي منذ هنيهة بمن يجب ان نبدأ القبض عليه من المتهمين فأجيبك الآن انه يجب ان تبدأ بهذا الرجل الذي خرج من هنا .

فاصفر وجه الدوج وقال : التياري ؟

— نعم القائد العام يا مولاي .

— اسرع بايضاح ما تقول أو احسب انك اصبحت من المجانين .

وقد غضب الدوج غضباً شديداً وقبل ان يبدأ جينارو حديثه قرع جرساً كان أمامه بمنف عظيم فقال له الرئيس ، ماذا تفعل يا مولاي ؟

قال : اريد ان أأمر بالقبض على التياري .

قال : كلا لا تفعل يا مولاي وقد اسرع فوقف عند الباب كي لا يسدع أحداً يدخل .

فقال : الدوج : إذن اقبض عليك أنت ايها الشقي .
وقد مشى اليه مشية المتوعد فقال له جينارو بصوت الهامس ، مولاي
إنك إذا سجننتني أو قتلتنني لا تستفيد شيئاً والكنك إذا قبضت على
التياري اليوم أو جعلته يشك بك خسرت كل شيء فاصغ الي بالله .

فعاد فوسكارى الى مجلسه ويده علي جبينه وعند ذلك اقبل الحراس
وقد سمعوا قرع الجرس فاطلق سراحهم بإشارة ونظر إلى جينارو فقال له :
تكلم الآن .

قال : مولاي اني وقفت على جميع اسرار المؤتمرين وانا عالم ان التياري
زعيمهم وانت تعرف التياري حق العرفان فهو لا يقوم على مثل هذا الأمر
الخطير إلا إذا كان واثقاً من الجند نعم ان الجيش يجمته بخلته له ما خلا
فرقة ضعيفة لا تستطيع مقاومة جيش فاذا قبضت على التياري اليوم لا
تمضي ساعة حتى يثور الجيش ثورة هائلة فينقذونه ويهجمون على قصرك وانت
ادري بعد ذلك بما يكون على ان الأجدد بك في هذا الموقف الخرج ان
تدعه آمناً ومطمئناً وتذهب بالسر لرد كيدهم في نحورهم .

فاتقدت عيننا فوسكارى ببارق خفيف وجعلت شفتاه ترتجفان من الغضب
والخوف معاً فقال له جينارو : تأذن لي يا مولاي ان اسديك نصيحة ؟

فقال : تكلم فقد خدمتني اليوم خدمة تجيز لك ان تشير .
قال : لو كنت في مكانك لبدأت باطلاق سراح جميع المسجونين الذين
وردت لك اسمائهم .

فتردد الدوج هنيهة ثم قال : كلا قليبقوا في السجن ما زالوا فيه فان ذلك
اسلم عاقبة .

ولكن جميع اولئك المنكودين كانوا من المخلصين لك .

وقد اصبحوا اعدائي بعد ان سجنتهم ونكلت بهم فاذا اطلقت
سراحهم انضموا إلى اعدائي للانتقام مني على اني متى انتصرت اطلقت

سراحهم واحداً تلو الآخر كنت محسناً عليهم أما إذا عفوت عنهم اليوم كنت ضعيفاً في عيونهم وعدوا ذلك من قبل الخوف .
فانحني جينارو إخفاء لما ظهر على وجهه وقال : اني أعجب بذكائكم يا مولاي .

— إذن لا بد أن يكون لديك قائمة أسماء الذين انضموا الى التياري .
— ولكن هذه القائمة لم تتم بعد وأنا أعمل على انمامها .
— لا بأس فاقرأ لي أسماء الذين عرفتهم .
فامتثل جينارو وذكر له نحو ثلاثين اسماً كتبها الدوج بخطه حتى إذا أتم كتابتها قال له : ماذا يريد هؤلاء ؟

قال : ما يريد الذين يبتغون قلب الحكومات وهو نيل الرقب والمناصب وما شاكل ذلك .
والتياري ؟

— يريد أن يكون في مكانك .
فاطرق الدوج مفكراً ثم قال : متى عرفت ذلك وكيف ؟
— في هذه الليلة يا مولاي ولهذا لم أقدم لكم تقريري إلا اليوم وقد اهديت الى المؤتمرين بادلة مبهمه فما زلت اقفوا اثارهم حتى حضرت أحد مجتمعاتهم دون أن يروني .

— اين ذلك ؟
— في سفينة الأميرال .
— ومتى تقرر ان يبدأوا العمل ؟
— في اليوم الأول من شهر شباط .
— أي اليوم الذي أشار علي التياري ان اجعله يوم حفلة .
— لا يزال لدينا يا مولاي بضعة أيا تكفيننا لقلب هذه المؤامرة وعلى

أيادي هؤلاء الطامعين وما زلت قد أذنت لي يا مولاي بالكلام فاسمح لي ان أبسط خطتي .

- قل .

- أرى انه يجب في يوم الحفلة ان ترسل فرقة الرماحة الى سفينة الاميرال التي عينت للاحتفال وسيلصق بهذه السفينة سفينتان أضع فيهما كثيرين من رجالي يتهددون سفينة الاميرال عند الاقتضاء أما أنت فانك تذهب الي ليدو ويحيط بك حراسك كي تبجر منها إلى السفينة ولكن عندما تصل الى الرصيف أشير إشارة خاصة فيقبض رجالي على التيارى ومن يحيط بك من المؤتمرين فانهم لا يستطيعون دفاعاً بغير الجند وعند ذلك تعود إلى القصر فتجتمع مجلس العشرة وتحكم على المؤتمرين في الحال أما الآن فيجب ان تكتم الأمر كل الكتمان وتبالغ باظهار السكينة كي تحملهم على الاطمئنان وهذه هي خطتي .

- وأنا أوافق عليها .

- ولكن عندما تقبض عليهم وتعود بهم الى قصرك ويحكم عليهم مجلس العشرة فمن الذى يتلو هذا الحكم ؟

- رئيس ديوان التفتيش .

- ولكنه مستقيل ولم تعينوا سواه .

- سأعين الرئيس في ذلك اليوم يا جينارو وسيكون ذلك أول ما عمله حين القبض عليهم وأنت تعرف الذى اخترته لهذا المنصب دون شك ولا حاجة إلى ذكر اسمه .

فانحنى جينارو بملء الاحترام وقال له الدوج : اذهب الآن في شأنك واعلم انك منذ الآن تستطيع الدخول الى حين تشاء فتذكر للعاجب كلمة « جسر التهديدات » فلا يعترضك فاذهب وتم فائتمك ودقق البحث في أعمال

المؤتمرين وعد الي بكل ما تعلمه من أمورهم ولا تنسى ان سعادتك ومستقبلك موقوفان على نجاحك فتدبر .
ولكن بقي لي سؤال فقد قلت لي ان رولاند كانديانو لا بد ان يعود الى فينيسيا اليس كذلك ؟

فارتعش جينارو وقال : هذا الذى أرتأه .
- اتظن انه يعود قبل اليوم الأول من شهر شباط ؟
- لا أظنه يعود يا مولاي قبل منتصف ذلك الشهر .
- حسناً فاذهب الآن في شأنك .
فانصرف جينارو وهو يقوله في نفسه :

- ويح لهذا الدوج انه يتردد في تقليدى منصب رئاسة ديوان التفتيش وأما أهله الحياة على أن رولاند لا يتردد مثله وعلى الجملة فان فوزى بات مضموناً في الحالين .

وخرج جينارو الى القاعة التي يجتمع فيها من يريد مقابلة الدوج وكان بينهم التياراتى فوقف ينظر اليهم نظرة المنذهل إذ كانوا جميعهم من الذين ذكر اسماءهم للدوج .

أما الدوج فانه سقط على كرسية خائى القوى بعد انصراف جينارو وجعل يقول في نفسه : ان هذه المؤامرة لا تذكر في جانب ما يعده رولاند من وسائل الانتقام فاين هو الآن .. وماذا يصنع .. وهو سيعود فكيف يلتقم مني .

وقد تمكن الرعب من قلبه فالكفه ذكر ان النبلاء يلتظرونه في قاعة الاستقبال فاخفى اضطرابه حتى تمكن من الابتسام وتفقد درعه وخنجره ثم فتح الباب وخرج منه الى القاعة الكبرى .

وهناك رأى التياراتى ورأى أولئك المؤتمرين يدنون منه لأظهار خلوصهم فابرقت عيناه وبحت عن قائد حراسه وقد حاول أن يأمر بالقبض عليهم

جميعهم ولكنه ذكر لفوره نصيحة جينارو فكظم القيط وجمل ببتسم لهم ويرد تحياتهم بأحسن منها .

وعند ذلك دنا منه التماري وقال ، ان الحفلة الكبرى باقت قريبة يا مولاي وقد أعدت جميع المعدات ما خلا مسألة واحدة فانت لا تعلم أية سفينة تريد ان يكون الاحتفال ؟

قال في سفينة الأميرال ايها الصديق أليست هي العادة المتبعة الى الآن ؟ فابتسم التماري ابتسام الظافر وقال جينارو في نفسه : لم يبق فائدة من بقائي في هذا المقام .

أما الدوج فانه مضى في حديثه فقال مخاطباً التماري : وإني بمناسبة هذه الحفلة أحب ايها الصديق العزيز ان تبقى واقفاً بجانبني .

وليس ذلك لأنني أخشى اقل حادثة من حوادث الشعب ولكنني أحب تشريفك في تلك الحفلة وتشريف جميع الحاضرين الآن فاني أريد ان يكونوا جميعهم أيضاً بجانبني .

وعند ذلك مر من بينهم وهو يبتسم لهم ودخل الى قصره .

٦٧

تجارة ارتين الشاعر

وليسمح لنا القراء ان نعود بهم الآن الى تلك الليلة الم حزنة التي انتحرت فيها بيانكا في منزل ارتين وحين سافر بيهو هاربا الى رومة . وطارده رولاند وسكالابرينو .

ويذكر القراء ان امباريا برحت فيلنسيا أيضاً قبل هذه الحوادث ببضع ساعات وأنها أمرت وكيلها ان يبيع جميع فرش قصرها ما خلا تلك الصورة الكبرى ذات الإطار الذهبي أي صورة رولاند .

وكان أرتين قد حضر تلك المفاجعة التي حدثت في منزله وقد دخل الخدم جميعهم إلى الغرفة التي كانت فيها بيانكا بعد انصراف رولاند وسكالا برينو فلما رأى أرتين هذه المفاجعة أمر خدمه ان يحكموا اقفال ابواب القصر وقد هلع قلبه من الرعب وأقام المتاريس وأخذ يحصن الأرض تحصين القلاع بينما كانت بيريتا تشتغل بنقل جثة امباريا الى سرير وقد أخذت كل ما كان في القصر من الأزهار ووضعتها على ذلك السرير .

أما أرتين فانه بعد ان حصن قصره دخل الى غرفته وجعل يمشي فيها مشي المجانين ويحدث نفسه فيقول : قبح هذا السكاردينال ولعن الله تلك الساعة التي خدعت فيها بأقواله ألم يختر ذلك الوحش غير منزلي لقتل تلك الفتاة المنكودة؟

أنه سيلقى من انتقام مطارديه مما تشيب له الرؤوس ولكن ماذا اصنع الآن بهذه الجثة .. قوتل الغرام فانه سبب كل شقاء .
وقد بات تلك الليلة على أحر من الجمر وعند الفجر نادى أحد خدمه وأمره ان يهتم بدفن الفتاة وذلك ان يضعها في كفن ويحملها الى قارب ثم يلقها الى المياه كما يدفنون المجرمين والفقراء فان الفقر كان يعد من كل عصر من الذنوب .

وفما هو يتأهب الى ذلك جاءه رسول رولاند بتلك الرسالة التي تقدم ذكرها وقد عرف القراء كيف ان أرتين قد امثل لكل ما أمر به رولاند .

وبعد الظهر خرج من قصره كي يتفق مع نجار على صنع التوابيت ولما عاد مر بزورقه بقصر امباريا فرأى الناس مجتمعين عند بابه فسأل البحار عن هذا الاجتماع .

فأجاب البحار قائلا : كيف لم تعرف ذلك يا سيدي فان أهل فينيسيا لا يتحدثون اليوم إلا بسفر امباريا .
— أسافرت امباريا ؟

— هذه الليلة .

— هل انت واثق مما تقول :

— انهم يبيعون أثاث قصرها .. انظر .

فأمره عند ذلك أن ينزل الى البر وبعد هنيهة كان داخل قصر المحظية فوجده غاصاً بالناس على اختلاف طبقاتهم وقد بسطت الامتعة وعرضت للبيع بالمازاد فاشترى ارتين شيئاً من تلك الامتعة وأرسلها إلى منزله وأقام قسمة البيع .

وقد لقي الوكيل وهو يعرفه فقال له . أن البيع لم يحسن في هذا اليوم إلا بفضلتي .

قال : ذلك لا ريب فيه يا سيدي واني لا أجد قولاً أعبر به عن امتناني . ثم أشار بيده الى تلك الرسوم الجميلة وقال : تفضل يا سيدي باختيار ما تستحسنه منها .

وإنما قال ذلك كأنه يريد ان يعطيه جعلاً عن تلك الخدمة .

فلم يتردد ارتين وجعل يتفقد تلك الصور والوكيل يتبعه بمصباحه من قاعة الى قاعة حتى انتهى الى تلك الغرفة التي كانت امباريا قد جعلتها شبه معبد ووضعت فيها صورة رولاند . فوقف فيها ارتين وقال : هو .. أصورته هنا !

وكان ارتين لم يعرف اسم رولاند الا من عهد قريب ولكنه عرف معظم تاريخه بعد ان عرف اسمه فقال للوكيل : اتعرف صاحب هذه الصورة ؟

قال : نعم فهو رولاند كانديانو ابن الدوج السابق .

— إذن لقد كانت تعرفه امباريا ؟

— لا أعلم ولكن الذي أعرفه ان المصور الذي رسمها اقام في صنعها أربعة أشهر وقد جعلت سيدي إطاره من الذهب الخالص .

— ومن يسألك عن الاطار الذهبي فخذہ واعطني الصورة وهذا كل ما
أطلبه مقابل خدمتي .
— اني أعطيك إياها للفور .

فأخذما أرتين وهو يعتبر انه استولى علي كنز لانها كانت من صنع تيتيان
أشهر مصور في ذلك العهد وذهب بها الى منزله وهناك جعل ينظر اليها
معجباً فيتنهد ويقول : ماذا عساي أن اصنع بهذا الرسم البديع فلو كنت من
الأغنياء لحفظته عندي .

وأقام بضعة أيام وهو يفكر في طريقة بيع هذه الصورة الى ان قال في
صباح يوم : لقد وجدت الطريقة ثم وثب إلى سريره فلبس ملابسه وذهب
توآ الى منزل دندولو ومعه الصورة .

وهناك استقبله خادم واخبره ان دندولو يقيم منذ حين في قصر صهره
التياري فذهب توآ الى قصر القائد العام وهناك التمس مقابلة رئيس ديوان
التفتيش وبعد هنيهة كان واقفاً أمامه فأشار اليه بالجلوس وقال له :
انك طلبت مقابلة رئيس ديوان التفتيش ولكني استقلت من منصبي
ومع ذلك ...

قال : اني اتأسف لحرماني فينيسيا من رئيس مثلكم ولكني التمس مقابلة
السيد دندولو لا رئيس ديوان التفتيش .
— إذن تريد مقابلتي مقابلة شخصية ؟

— نعم يا سيدي فقد خطر لي ، ولأ أعلم كيف جاني هذا الخاطر ،
انك أو ان احداً من ذوبك تحفظان أثر صداقة لرجل من اصحابك وهز
رولاند كانديانو .

فلم يكذ ارتين يتم كلامه حتى شعر أنه قد كتب خطأ عظيماً إذ رأى
دندولو قد نهض فجأة وهو مصفر الوجه مضطرب اليدين وذهب إلى الباب
فأقفله ثم عاد الى الشاعر فقال له : ما الذي حملك على أن تظن هذا الظن ..

- وماذا أتيت لتقول لي فهل انت آت من قبله .. قل أهو الذي أرسلك ؟
- كلا يا سيدي فاني آت من تلقاء نفسي وما زال هذا الاسم قد أثر عليك هذا التأثير فانا مخطيء دون شك وسأعود من حيث أتيت .
- بل ابق وقل بحرية وجلاء ما تريد قوله بشأن رولاند كانديانو .
- أظن يا سيدي انه فيما مضى كان معذوداً من عائلتكم .
- كيف ذلك ؟
- ومن يحمله يا سيدي الا تعلم انهم لا يزالون الى اليوم يذكرون ليونور ورولاند ويقولون عشاق فينيسا .
- كلا لا اعلم ولا أريد ان اعلم .
- اني لم اقل هذا القول إلا لأظهر لك بأنني كنت احسب انك لا تزال تحب رولاند وإنه لم يفصله عنكم غير حادثة مؤثرة حدثت بالرغم عنك .
- فزاد اصفرار وجهه وقال : ايقول ذلك ؟
- قال : نعم وربما كانوا مخطئين في كل حال فما هي الا اشاعات تلتفتها من افواه الناس دعني الى فعل ما فعلت وانا غير مسؤول .
- ماذا فعلت ؟
- فابتسم ارتين وقال : ذهبت الى قصر امباريا متنزها وتفقدت قصرها وهم يبيعون ما فيه بأعلى الأثمان لأنه من ابداع الرياش فيكان من جملة ما رأيته هناك رسوم من صنع المصور المشهور تيتيان فأخذت رسماً من بينها وجدته افضلها واشتريته بمائتي دينار وهو رسم رولاند .
- ولم اكن راغباً بشراؤها ولكني كرهت ان تقع هذه الصورة بيد من يحمل قدرها فاشتريتها وخطر لي ان ابيعكم إياها رجوة يحال الصنعة ليس إلا وانظر يا مولاي يتبين لك صدق قولي .
- وعند ذلك كشف الستار عن الصورة فارتعش دذولوا إذ ظهر له رولاند كأنه مائل امامه لا يعوزه غير الكلام .

وكانت الصورة تنظر إلى كل من ينظر إليها فاضطرب دندولو اضطراباً عظيماً وخيل له كأنما رولاند يقول له : ماذا فعلت بي وبماذا أسأت إليك أما أو بقتك فالقيتنا إلى هوة الشقاء .

وبينما ارتين ينظر إلى دندولو مندهلاً لما رآه من اضطرابه لم رأى الصورة رأى باب الغرفة قد فتح وبرزت منه امرأة لم تقع العيون على أجمل منها فدنت من دندولو وقالت له : أبي أريد سراء هذه الصورة .

فانحنى ارتين أمامها وقد أعجب بكلامها نفس إعجابه بجبالها ولكن ليونور لم تنظر إليه ولا إلى الصورة .

أما دندولو فقد علم ما يحول في نفس بنته فلم يبد أقل اعتراض وأشار إلى الشاعر أن يتبعه فتبعه إلى غرفة أخرى وهناك نقده ثمن الصورة .

فقبض ارتين الثمن وقال له : يسرني يا سيدي ان هذا الرسم الجميل لم يقع بيد سواك .

فشكره دندولو وشيعه إلى الباب وقال له : اقسم لي انك أتيت من قلقاء نفسك وأن رولاند لم يرسلك .

فقال له : اقسم لك يا سيدي اني لم أقل إلا الحقيقة وحاشا للشعراء ان يكذبوا إلا بشعرهم .

وخرج وهو مطرق الرأس فادم على ما فعل فانه ايقن بعد ما رآه من ليونور أنه لو طلب ثمن هذا الرسم اربعمائة دينار لقبضها للفقور .

وبعد ذلك بيومين سافر ارتين بجثة بيانكا إلى مستر وانفذ أوامر رولاند بنجاية الضبط كما تقدم لنا بياناه .

الأب والبنت

عندما ذهب ارتين وذهب معه دندولو وخلا المكان لليونور نظرت الى تلك الصورة التي رسمها تيتيان أشهر مصور في ذلك القصر . وهو ذلك المصور نفسه الذي التمس منها مرة يصورها فأجابته قائلة ، ان رسمي وجسمي لا يكونان إلا لخطيبي .

فعاد إلى رومه وهو يقول : لقد عدت من فينيسيا بثلاث قذارات لا يمكن أن انسأها وهي داخل كنيسة سانت مارك وسأء فينيسيا المرسعة بالنجوم ونظرات ليونور دندولو .

وقد نظرت إلى صورة رولاند بتلك النظرات التي فتنت اب المصور وقالت له والدموع تجول من عينيها : أي رولاند أنك لا تزال قريباً مني .. رولاند ايها الحبيب الكريم حبذا لو كنت تسمع كل ما يقوله لك قلبي منذ فراقنا الهائل بل حبذا لو تمكنت ان أدخل إلى قلبك واعرف بماذا حكمت علي . رولاند ان عذابي لا تصفه الاقلام فقد لقيت ما لم يلقيه بشر فيمبقي في قيد الحياة .. رولاند ان رسمك هذا لا يسكن عذابي بل يزيده .. رولاند اني أجد العذاب عذبا في هواك ويسرني أن تكون شقوتي بك ولأجلك . وقد جلست على كرسي وجعلت تتمعن بذلك الرسم فبقيت على ما هي عليه الى ان عاد أبوها ورآها جالسة قرب الصورة فقال لها :

— من يعلم يا ليونور فقد تكونين مخطئة بشراء هذه الصورة .

فهزت ليونور رأسها ولم تجب فقال لها : هل تريدن الاحتفاظ بها ؟

قالت : نعم يا أبي فليس لدي منه تذكار .

— ولكن ضعها على الأقل في موضع خفي بحيث لا ترينها في كل حين .

— بل اني اوثر ان تكون دانغا بقربي .

فجعل دندولو يسير في تلك الغرفة بخطوات مضطربة يتوجس خيفة من هذه الصورة إذ كان يعتقد أن بنته نسيت رولاند فوجد بعد حادثة الصورة انه مخطيء في ما توهم وقد ذكر عند ذلك حقيقة توهمه فان ليونور بعد شقاها كانت تخرج للنزهة مرتين في الاسبوع تختار لذلك يوماً معيناً وساعة معينة لا تخطئها .

وقد كان التياري أرسل مرة أحد خدمه في أثرها وعلم إلى ابن تذهب فلما عادت من النزهة وجدت زوجها واقفاً أمامها فقالت له يجيء : ماذا تريد ؟

فاضطرب لجفاها وقال لها : لا شيء سوى اني أريد ان اقول لك بأنه ليس من الحكمة ان تخرجي وحدك في ظلام الليل وسأرسل معك من يخفرك .

— قالت : اني لا اقنزه بعد الآن .

قال : بل اختاري على الاقل موضعاً آخر للنزهة .

قالت : ان هذا المكان يعجبني إذ لا أجد فيه ما يقرع ضميري .

فخرج التياري وهو يزيد من الغميط وجعل دندولو بعد ذلك اليوم يصحب بنته في نزهتها .

أما هذا الموضع التي كانت تذهب اليه فكان جسر التهنيدات فكانت تسير في زورقها حتى تصل اليه ثم تعود إلى القصر .

وكان دندولو يقود في أكثر الاحيان ذلك الزورق فاتفق ذات يوم أنه حين وصل معها الى جسر التهنيدات رأى زورقاً قد دنا من زورقها وفيه رجل رآه وعرف انه رولاند كانديانو وسمع ما قاله لها .

ويذكر القراء تلك المقابلة حين اراد رولاند انقاذها من ابن كريماني وقال لها : اهربي ولا تخرجي من قصر ك قبل شهر .

فلما سمع أبوها هذا الكلام أسرع الى العودة بها وهو يضطرب اضطراباً شديداً ويقول في نفسه : ان رولاند يراقبها ويحميها .

وقد جعل ينظر الى بنته في الطريق فيجدها ساكنة هادئة بالظاهر وهو لا يعلم ما يشور بقلبها .

فلما وصلا الى المنزل قال لها : رأيته ؟

قالت : نعم يا أبي .

— أعرفته ؟

— نعم .

فلم يسألها أبوها غير هذا السؤال ولكنه كان يرتعش سروراً لما كان يراه من عدم تأثرها .

وقد اطمأن منذ ذلك اليوم لاعتقاده ان بنته قد سلمت رولاند وأنه يستطيع في المستقبل تنفيذ خطته التي قررها بعد اختصاصه مع التباري وهي انه يعيش وإياها في منزل معتزل .

غير انه حين رآها واقفة أمام صورة رولاند تتمعن بها عاوده الشك فقال لها بعد سكوت قصير : اذن لقد عزمتم على الاحتفاظ بهذه الصورة ؟

فأجابته بذلك الایجاز الذي لافته منذ نكبتها قائلة : نعم .

— الا تخشين ان تحزنك يا ابنتي اطالة النظر الى هذا الرسم .

— كيف ذلك يا أبي ؟

— انه يذبه في نفسك تذكارات قديمة .

— اية تذكارات تعني ؟

وقد قالت له ذلك فاحمر وجهه وعلم انه بات يخاف اكثر منها ذكر ذلك الماضي .

وعند ذلك عاد الاثنان الى السكوت وقد نهضت ليونور تحاول الذهاب الى غرفتها فقال لها أبوها : اجلسي يا ابنتي واصنع الي .

فامتثلت لليونور وجلست أمامه فقال لها : اتعلمين يا ليونور انه سيحدث
حوادث خطيرة في فينيسيا فانك تعرفين سر المؤامرة وتعلمين انه لا بد من
حدوث ثورة قريبة .

— ماذا تعني بذلك يا ابي ؟

— ألم يخطر لك ابداً ان فينيسيا هي المدينة التي لقينا فيها أشد العذاب
وان كلمة او حادثة مثل حادثة هذه الصورة تذب فينا جميع تلك الاحزان
الماضية .

— اني افتكرت كثيراً بهذه الأمور .

فلمعت عيناه ببارق من الفرح وقال لها بصوت منخفض : اتعلمين ماذا
فعلت ؟

— كلا يا ابي .

— اذن فاعلمي اني بعث جميع ما امتلكه في فينيسيا حتى ان منزل
دندولو نفسه لم يبق لنا وكذلك كل ما كان لدينا من التحف فاني بعثتها
بالسر بحيث اصبحت ثروتنا ذهباً .

وقد عهدت الى رجل وفي بنقل هذا الذهب الى ميلانو وهو ينتظرنا فيها
ألم تنهي قصدي ؟

— العلك تريد الفرار ؟

— نعم إذا سافرت معي فان زورقاً جميلاً ينتظر امام القصر منذ ثمانية
ايام وفيه ثلاثة بحارة مخلصون لي فاذا شئت هربنا في هذه الليلة .

وقد اتخذت جميع ما ينبغي اتخاذه من الوسائل التي تساعدنا على الخروج
بالسر من هذا المنزل اذ لا نخرج من احد أبوابه بل من أحد نوافذه فاني
اعدت سلكاً من الحبال نعلقه بحديد النافذة ونهبط عليه الى الطريق
أرأيت ؟

— نعم انها سهلة .

- أتوافقين إذن على الفرار في هذه الليلة ؟
- كلا يا أبي .
- كلا إذن ليكن ذلك غداً أو في اليوم الذي تختارينه .
- كلا اني لن أهرب .
- كيف ترفضين الفرار الا تعلمين ... فقاطعته . قائلة : انك إذا أردت الفرار يا أبي خوفاً على نفسك من عاقبة الثورة فافهم وكن موقناً اني استطيع الدفاع عن نفسي أما أنا فاني لا أخاف شيئاً وسواء اقتصر البيتاري أو اتخذل فان حياتي لا تتغير .
- ولكن أنا ماذا أعمل فان المؤتمرين يراقبونني فاذا لم يقتلني البيتاري قتلي فوسكاري :
- لقد أصبت يا أبي ووجب عليك ان تهرب .
- كيف أهرب وأنت هنا ؟
- قلت لك لا تخشى علي واذهب وحدك اذ يستحيل علي ان أبرح هذا القصر أما أنت فان الخطر عليك شديد ولا بد من فرارك .
- معاذ الله ان افترق عنك لحظة .
- ارجوك ان تتمعن في ذلك عساك أن تدعن .
- وأنت ايضاً تمعني يا ابنتي فان حياتك في هذا القصر عذاب .
- وعند ذلك افترقا فدخل دندولو الى غرفته ودخلت هي الى غرفتها ولم يكن يفصل بين الغرفتين غير باب .
- أما ليونور فقد دخلت وهي غير محتاجة الى التمعن فانها كانت مصممة كل التصميم على البقاء في فينيسيا .
- أما دندولو فقد قال في نفسه : لا شك اني لا ابرح فينيسيا إلا إذا برحتها معي ومع ذلك فاذا اكرهتني الحوادث استطيع السفر ببضعة أيام .

لقاء

في اليوم التالي لذلك اليوم الذي عاد فيه رولاند الى فينيسيا بعد موته الكاردينال كان جينارو رئيس البوليس جالسا في غرفته يطالع تقارير جواسيسه الاخصاء .

وكان ذلك اليوم السابع والعشرين من شهر كانون الثاني وقد ظهر القلق على وجه الرئيس فكان يسأل كلا من جواسيسه عن مسألة واحدة فاذا لم يجبه عليها سمع بقية تقريره بملء الضجر واطلق سراحه .

وما زال علي ذلك إلى ان دخل عليه اخدم فقال له : ما وراءك من الأخبار ؟

قال : اني جلست امس حسب أمرك بين خمارات المينا .
— ماذا سمعت ؟

— سمعت حكايات غريبة اخصها ان ابن الدوج كانديانو السابق موجود الآن في فينيسيا وانه يتأهب للاستيلاء على سراي الدوج وانه سينقذ الشعب من مظالم فوسكاري .
— أأنت واثق مما تقول ؟

— كل الثقة بل اني سمعتهم يصبرخون فيقولون ليسقط فوسكاري دوج فينيسيا وليحيى رولاند دوج الشعب .
— ما هذا أحق ما تقول ؟
— نعم يا سيدي .

— حسناً فعد إلى تلك الخمارات وعد الي بكل ما تسمعه وتعلمه .
ثم اطلق سراحه وتادى سواه من الجواسيس فقال له ، اخبرني بما لديك .

قال : كنت امس يا سيدي قرب خماره مرسي الذهب .
فذكر الرئيس انه زار امس تلك الخماره وقال له : ما رأيت ؟
قال : رأيت برتولو خارجاً منها مع رجل .

— من هو هذا الرجل ؟

— لا أعرفه .

— إذا ماذا عرفت ؟

— ليس هذا الذي كنت احاول معرفته يا سيدي فانه بينما كان برتولو
يحدث ذلك الرجل دخل رجل آخر متلصصاً الى الخماره .

— أكان من اللصوص ؟

— كلا فاني اعرف اللصوص من مشيتهم .

— وماذا حدث ؟

— حدث ان برتولوا دخل بعد هنيهة الى الخماره فوقفت عند الباب
اتنصت فسمعت اصواتاً تدل على الخصاص وعرفت صوت ذلك الرجل وبعد
المشاجرة بالكلام سمعت صوت عراك عنيف ثم ساد السكوت وبعد هنيهة
برح الرجل الخماره .

— اتبعته ؟

— دون شك .

— وعرفته ؟

— سوف تعلم يا سيدي فاني قبعته هذا الرجل الذي خيل لي اني عرفته
من صوته ثم من قامته ومشيته فمسا زال يسير وانا في أثره حتى وصل الى
جزيرة اوليفور .

فوقف الرئيس وقال ؟ من هو هذا الرجل ؟

— انه سكالابرينو وأنا أعرف الآن اين يقيم بحيث نستطيع القبض عليه

مقي نشاء .

- احذر ان تقول كلمة من هذا الحديث أفهمت ؟
 - نعم يا سيدي ولكن ليس هذا كل ما أريد قوله فاني بعد أن عرفت المكان الذي ذهب اليه سكالابرينو أحببت ان أعلم غايته من الذهاب الى الخمار ونتيجة ذلك الحصار الذي حدث وأنا عائد الآن من خمار مرمي الذهب .

- ماذا علمت ؟

- عندما وصلت رأيت بابها مقفلاً على غير عادتها وقد اجتمع كثير من الشاربين وقلقوا على صاحب الخمار فنادوا بالبوليس كسروا الباب وبعد البحث وجدوا جثة برتولو في القبو .

- برتولو قتل !!

- فعم وان قاتله سكالابرينو .

وقد سككت الجاسوس واقام ينتظر تهنة الرئيس ومكافأته على هذا الاكتشاف .

أما جينارو فانه جعل يمشي في الغرفة ذهاباً وإياباً ثم وقف فجأة وقال له : لا يجب ان تقول كلمة مما أخبرتني به .

- سأبالغ بالكتان يا سيدي .

- لا شك عندي بحرصك على الكتان وانما أوصيك من قبيل المبالغة بالحد فاحرص على الكتان خمسة أو ستة أيام أي الى يوم الثاني من شهر شباط أفهمت ؟ والآن فاذهب فلا حاجة بي اليك .

فانصرف الجاسوس ودخل بعده جاسوس آخر فجدق به رئيس البوليس ثم قال له : اني اهشك بحسن تشكرك فاني لم اعرفك فمن أنت ؟ فنزع شعره ولحيته المستعارين وقال له : أرجو ان تعرفني الآن .

فوقف جينارو وقد دهش دهشاً عظيماً وقال بصوت ابح : مولاي كاتديانو ؟

- إذا كنت تتكلم بهذا الصوت المرتفع تضطر الى القبض علي إلا اذا اضطررت أنا الى القبض عليك .

- اعذرني يا مولاي فلم يكن يخطر لي في بال أن أراك هنا .

- لماذا اليس لنا فائدة مشتركة تقضي علينا بان نجتمع من أجلها اما أنا فهذا معتقدي ودليل ذلك اني أتيت مساء أمس الى فينيسيا فكانت زيارتي الاولى لك وقد اتيت اسألك إذا كنت تجد الآن الفرصة موافقة للقبض علي وتسليمي الى مجلس العشرة .

وكان جينارو يصغي الى كلامه وهو مندهل لا يعلم ما يريد منه رولاند وقد عرف القراء ان هذا الرئيس كان من أهل العزيمة والادارة السريعة فرأى بسرعة التصور انه إذا قبض علي رولاند انقذ فوسكارى وثال ذلك المنصب الذي يطمع فيه ولكنه رأى ايضاً ان الجول لا يخلو لفوسكارى بعد ذلك وأن فوز رولاند اسرع الى تحقيق اماله فوقف أمامه وقفة الاحترام وقال له : لقد رجعت يا مولاي عن فكر القبض عليك .

قال : يسرني ان اعرف السبب في ذلك .

- السبب بسيط يا مولاي فهو اولاً معرفة الجليل .

- لم يبق لي عليك جميل فقد وفيت دينك فلا تبحث في هذا الموضوع .

- وفوق ذلك فاني أرى الحق في جانبك ما زلت من انصار العدالة

والحق .

- ان هذا السبب غير كاف فان من كان مثلك لا ينظر إلى وجوه العدل

والظلم إلا في آخر اعماله .. كلا ليس هذا بالسبب الاكيد وما زلت تأبى ان

تكون حراً في مقالك فسا قول عنك ما كان يجب ان تقوله فاصح الي انك

إذا قبضت علي يعينك فوسكارى رئيساً لديوان التفتيش بعد ساعتين وهذا

منتهى مطامعك .

- ارأيت إذن يا مولاي ان الحق وحده الذي ...

فقاطعه رولاند قائلاً : كنت احسب انك أشد صبراً مما أراك فانك إذا قبضت علي تصبح رئيساً لديوان التفتيش كما قلت لك وبعد ذلك ماذا يحدث؟ ان يوم أول شباط يأتي وأكون أنا في السجن فينشب القتال بين فوسكاري والتباري أليس كذلك ؟

— دون شك يا مولاي .

— وانت تعلم يقيناً ان الفوز يكاد يكون مضموناً لالتباري ومق فاز يكون أول هله ان يلقي في ابار السجن جميع انصار فوسكاري وانت في مقدمتهم وهذا هو السبب الذي دفعك الى الرجوع عن القبض علي فماذا تقول .

— أقول انك من النوابغ يا مولاي .

— وانا اقول انه كان يجب ان تقول الحقيقة وان لا تحاول إكراهي علي تعيينك في المنصب الذي تطمع فيه وانت لا تظهر لي من الكفاءة ما يحملني على الرضى بهذا التعيين .

— هل فات الاوان ؟

— نعم إلا اذا اسلمت من غير شروط .

— لقد رضيت يا مولاي .

— ارضيت ان تكون لي دون ان تقيمني بقيد ؟

— نعم يا مولاي ولكنني التمس من عظمتكم ان لا تنسى بانني كنت قادراً علي ان أكون حائلاً دون مقاصدكم .

— ذلك يفيد انك تسألني منصب رئيس ديوان التفتيش .

فانحنى جينارو دون ان يجيب .

— يسوءني اخبارك بانني عذمت علي الغاء هذا المنصب .

فاصفر وجه رئيس البوليس وكفاه بهذا النبأ داعياً للاضطراب فانه قضى قضاء مبرماً علي أمانيه .

وعند ذلك أخذت العوامل تتنازعه حتى انه نظر الى الباب كأنه عزم على القبض عليه والميل الى جهة فوسكاري .
على ان رولاند كان يفحص وجهه ويقرأ افكاره حتى رآه مد يده يحاول قرع الجرس .

فوقف رولاند ودنا من النافذة فقال له :

- قبل ان تقرر الجرس تعال وانظر فاني لا أحب ان ترتكب هفوة قد لا اعفوها لك .

فشعر جينارو بان لروланд سلطانا عليه فقال له : مولاي احب اني . .
فقاطعه قائلاً : تعال وانظر .

فامتثل جينارو ودنا من النافذة فقال له رولاند : ماذا ترى ؟

فنظر جينارو الى الرصيف الذي كانت تشرف عليه من النافذة ولم يجب .

فقال له رولاند : كم تستطيع ان تحشد من الرجال للقبض علي ؟
قال : اني اذا ناديت رجالي جاءني منهم مائة رجل على الأقل ولكني لا أريد القبض عليك .

قال : ولكن هؤلاء الذين تراهم يذهبون ويحيثون يزيد عددهم على اربعمائة رجل ويوجد مثلهم في الشوارع المجاورة فاذا أردت ان تشير معركة دموية يا جينارو فافعل .

- لقد قلت لك يا مولاي اني استسلمت اليك .

- دون شروط ؟

- دون شروط ولكن استسلم الى كرمك ومروءتك .

- حسناً فاجلس الآن لنتحدث إذ لدي ما اسألك عنه بشأن الحفلة الكبرى

فقل لي في أية ساعة يخرج الدوج من سراياه في ذلك اليوم ؟

قال : في الساعة التاسعة من الصباح تقريباً .

إذن صف لي بالتدقيق الموكب الذي يسير فيه الدوج الى ليدو فمن اية قرية يتألف الحرس ؟

- من فرقة الرماحة وحملة البنادق فانهم يذهبون الى سفينة الأميرال بحجة انهم يريدون حماية الدوج فيها .

- اين يكون موقف التياراتي القائد العام ؟

- يجانب الدوج وذلك منذ خروجه من السراي .

- أرى يا جينارو انك انت الذي دبرت هذه التدابير والآن فما الذي عرفته من انباء المؤتمرين ؟

- ربما اكون لا اعرف شيئاً يا مولاي لا تعرفه فانت تعرف خطة المؤامرة حق العرفان ولكن الذي عرفته حديثاً ان التياراتي وافق على إرسال الفرق الى سفينة الأميرال والحقيقة انه يريد القبض على الدوج فوسكارى في ساعة الحفلة .

وفي تلك الساعة نفسها تزحف فرقة الى سراي الدوج وهي خالية من الحراس .

وعند ذلك يقرع جرس سانت مارك ووقتئذى به أجراس الكنائس فيحتل الجنود مراكز الدفاع في المدينة .

- هذه خطة التياراتي فقل الآن ما تعرفه عن خطة فوسكارى .

- انها على اتم البساطة فان الموقف سيقف عند رصيف ليدو وعند ذلك يضرب فوسكارى التياراتي الواقف بجانبه الضربة القاضية بدلاً من ان يذهب الى سفينة الأميرال .

وفي الساعة نفسها يطعن كل قائد من قواد فوسكارى زعيماً عن زعماء الثورة وقد عين لكل قائد الزعيم الذي يجب ان يطعنه بحيث يأخذهم على غرة .

أما سفينة الأميرال فسيحيط بها ساعة الحفلة سفينتان عليها جنود
مخلصون للدوج .
— انها خطة بسيطة مثل كل خطة صالحة ولكنك لم تذكر لي شيئاً عن
الجواسيس .

— ان جواسيسي سينتشرون في جميع أنحاء المدينة ويصبحون في كل
مكان ليحيى فوسكاري بحيث يجذبون معهم الشعب ولكنني استطيع ان أدعهم
يهتفون لغير فوسكاري .
— لا فائدة من ذلك فدعهم يهتفون له قدر ما يشاؤون بل اني اؤثر هذا
الاهتاف ولكن لا يجب ان تغير شيئاً من خطة الحفلة وكذلك خطة المؤثرين
فانها لا تغير .
— إذن لا يبقى علي يا مولاي إلا ان انتظر اليوم الاول من شهر شباط .
— نعم يجب ان تصير بملء السكينة كما أنا صابر .

وعند ذلك نهض رولاند يريد الانصراف فلما وصل الى الباب قسال له
جينارو :
— كلمة واحدة يا مولاي .

— ما هي ؟
— إذا حدث حادث لم اكن اتوقعه فاني أجده ؟
فهدق رولاند بجينارو ونظر اليه نظرة اضطربت لها اعضاؤه ثم قال له
دون تردد ، انك تجدني في بيت الجزيرة فاني أكون فيه وحدي كل ليلة .
— لا أرى من الحكمة ان تكون وحديك يا مولاي .

— لا أكون وحدي بل يكون معي ايضاً والدي الأعمى المجنون . وقد
ذكر أباه واتقدت عيناه ببارق خفيف من الانتقام فأنحنى جينارو كأنه أراد
اتقاء هذه البوارق الهائلة وعندما رفع رأسه رأى رولاند يسير في الرواق
بملء السكينة فقال في نفسه :

— وحده مع أبيه الأعمى المجنون !
وبعد أن توارى رولاند عن نظره جلس في كرسیه واطرق مفكراً فجعل
يقول في نفسه :

— ترى لماذا يريد ان يلغى منصب رئاسة ديوان التفتيش .. انه يخطئ
في ذلك خطأ عظيماً .. نعم ولكن أحق ما يقول انه يبیت وحده كل ليلة في
بيت الجزيرة .. صبراً يا جينارو ولا تتسرع فان موقفك خطير .

وقد جعل يتمشي في غرفته وهو يتمعن ويفتكر إلى ان استقر على رأي
فقرع الجرس .

وبعد هنيهة دخل اليه أحد خدمه فحذق به كأنه يريد ان يسبر اعماق
قلبه ويعلم إذا كان يستطيع الركون اليه فقال له :
— أريد ان تذهب ...

ثم توقف عن اتمام الحديث وقد ظهرت عليه علائم التردد فقال :
— كلا لا فائدة من ذلك فعد الى حيث كنت .

فامثل الخادم وانصرف .

أما جينارو فإنه قام الى غرفة ثانية كان يضع فيها ملابس التنكر فتنكر
تنكراً عظيماً بحيث كاد ان لا يعرف ذاته وقال في نفسه :
— ان مثل هذه المهمة لا يجب أن اعهد بها الى سواي .
واليك بيان ما جال في خاطره .

فقد رأى انه إذا ترك الأمور تجري في مجاريها كان النصر مضموناً لرولاند
دون شك .

وأية فائدة له من فوزه فان رولاند نفسه قال له انه سيلغى منصب
رئاسة ديوان التفتيش وهذا المنصب كان كل ما يطمع به رئيس البوليس .

وهو يريد هذا المنصب فإنه لم يكن فاسد الطبع لئيم النفس ولكنه كان
شديد الطمع ميالاً الى مهنته كل الميل بحيث كان يريد ان يبلغ في الترقى بها

إلى أبعد حد أي منصب الرئيس الأكبر وما زال رولاند يريد إلغاء هذا المنصب الذي يطمع فيه وهي إلغاء رولاند نفسه .

وهنا تشعب فكر جينارو الى طريقين فانه إذا كان يريد القضاء على رولاند يجب ان يكون واثقاً من ان ضربته ستكون القاضية واذا فشل بها انتقم منه دون شك وكان انتقامه هائلاً .

ولذلك خطر له ان يقتل رولاند ولكنه لا يقتله بيده بل يرسل له من يقتله فاذا فشل لا يكون مسؤولاً لدى رولاند ولا يكون معرضاً لانتقامه .

ولكن من هذا الذي سيرسله . ان القراء سيعرفونه أما جينارو فانه كان يفكر به فيقول :

— انه اذا نجح بقتل رولاند فزت انا بما ابغيه وإذا لم ينجح لا يعلم رولاند الحقيقة بل سيكون مديناً لي بالامتنان لأنني انا سأتولى انذاره .

اما هذا الرجل الذي اختاره جينارو لقتل رولاند فانه كان التباري القائد العام .

وقد قلنا ان فكره كان متشعباً بطريقين اما الطريق الثانية فهي المؤامرة فانه كان يفكر بها فيقول انه إذا فاز التباري يخبره جينارو بأنه كان يعرف سر هذه المؤامرة من عهد بعيد ولكنه كان يكتم أمرها لميله اليه وفوق ذلك فانه سوف يرشده الى طريقه للتخلص من رولاند وذلك كاف لنيل رضاه .

وإذا فاز فوسكاري كان منصب جينارو مضموناً فانه يعود عودة الظافر الى سراي الدوج بهذا المنصب فهو لا يرجع عن وعده .

فلما فحص جينارو هذه الخطة وقلبها في جميع وجوهها ذهب تواً الى قصر التباري .

وكان متأكراً كما قدمناه فاضطر الى البقاء في قاعة الانتظار الى ان يؤذن له بالدخول .

وقد بقي هناك كثيراً من القواد الذين ينتظرون يوم أول شباط بفارغ الصبر وهم يتحدثون بهذا اليوم بطريق الالغاز ولكنه كان يفهم الغازم وهم لا يشعرون .

وقد صبر الى ان جاء أحد خدم التياري فقال له : اني قادم بمهمة الى مولاي القائد العام .

قال : من قبل من ؟

قال : من قبل رئيسي جينارو رئيس البوليس .

قال : حسناً فانتظر .

وبعد منبهة عاد فادخل جينارو الى القائد العام فقال له التياري : انت قادم من قبل جينارو كما قلت ؟

قال : كلا يا مولاي بل اني جينارو نفسه اتيت متمكراً .

— لقد عرفتك الآن من صوتك ولكن لما تنكرت ؟

— لأن التنكر عادة قديمة عندي وفوق ذلك فاني ما أحببت ان يراني أحد عندك لأنني قادم اليك بمهمة سرية .

فأشار اليه بالجلوس وقال له : اني مصغ اليك .

وفي الوقت نفسه جرد خنجره وجعل يلعب به وهو مصغ اليه .

فقال له جينارو : ماذا تقول يا مولاي إذا قبضت على رولاند كانديانو فارتعد التياري واتقدت عيناه .

فأبتسم جينارو وقال : اني ما أحببت ان اقدم على هذا الشأن الخطير دون ان أخبرك فيه .

— هل أخبرت به الدوج ؟

— كلا فقد خطر لي ان تعلم ذلك قبله .

فنظر التياري اليه نظرة المرتاب لأنه كان يعلم أنه من اخصاء الدوج فاضطرب في أمره وقال في نفسه : ما عسى يريد مني هذا الداهية العله قادم

تجسس احوالي ولما ذكر القبض على رولاند فجأة دون مقدمة .
ثم قال له بصوت مرتفع : لماذا أتيت تحدثني بأمر هذا الرجل دون
سواي أقول اني ادير بوليسة الجمهورية .. نعم اني استغرب ذلك على ان
ادارة البوليس لو كانت بيدي لما تجاسر رولاند ان يعود الى فينيسيا وهو
رئيس العصاة الثائرين بل اني كنت قبضت عليه من عهد بعيد وجازيته بما
يستحقه من الاعدام .

- ومع ذلك فقد تجاسر وعاد الى فينيسيا .
فارتعش التياري ارتعاشاً ظاهراً وقال : ماذا يريد وماذا اتى يعمل ؟
قال : ارأيت يا سيدي انه يملك ان تعلم ما جرى لروланд فانك كلمتني
بلمهجة عنيفة كان يجب بعدها علي استئذائك بالانصراف ولكني صديق لك .
- انت صديقي ؟!

- نعم صديقك ولماذا الافذهال وأنا أعلم كثيراً من الأمور .
فاصفر وجه التياري وقال : بماذا تتعلق هذه الأمور التي تعرفها ؟
- ولكن . . . رولاند كانديانو . . . وأعرف على الأخص ان بينك وبينه
عداء شخصياً هائلاً فلنكلم يا سيدي بحرية وبرهاني علي حريتي في قولي اني
بحاجة اليك وسأبين لك هذه الحاجة في غير هذا المقام .
- متى :

بعد شهر أو بعد نصف شهر فاني مضطر في خلال هذه المدة الى التغيب
عن فينيسيا لأنني احب ان أتجاهل ما سيمجري خلال هذه المدة من الحوادث
فليقبضوا على رولاند ويطلقوا سراحه . . . وايفعلوا غير ذلك فاني لا احب
ان اعرف شيئاً .

- هل لك ان تقول لي لماذا تريد مبارحة فينيسيا ؟
- السبب الوحيد الذي ذكرته لك وهو اني لا احب أن أعلم شيئاً مما
سيمجري في هذه الأيام .

فوقف التياري فجأة وقد ايقن الآن ان رئيس البوليس عارف بسر المؤامرة ودنا منه .

فقال جينارو في نفسه : اني اذا قلت كلمة في غير موضعها كنت من الهالكين .

أما التياري فانه حذق به وقال له ، ماذا تظن أنه سيجري ؟
- لقد قلت لك منذ هنيهة أي انهم سيقبضون على رولاند .
فتنفس الصعداء وعاد إلى مجلسه فقال ، لماذا لا تريد ان تتدخل في شأن القبض عليه ؟

- ذلك لأنني حاولت القبض عليه ولم النجح وبت أخاف إذا حاولت ذلك مرة ثالثة ان لا النجح ايضاً وهو اعتقاد راسخ في لا يتزعزع ولا أعلم إذا كنت تفهم ما أعنيه كما ينبغي .
- امض في حديثك .

- لقد رأيت هذا الرجل الهائل فخفته وأنا لم أعرف الخوف على ما مر بي من الاخطار. لاسيما وقد علمت يقيناً ان أمر القبض على كانديانو لم يعد من أمر البوليس بل أصبح شأنًا عائلياً يفض بالمبارزة فقلت في نفسي أنه يوجد في فينيسيا من يهمه أن يعلم بان رولاند كانديانو يبيت الليلة وحده في المنزل .

فارتعش التياري ولكنه أخفى اضطرابه وقال له : من هذا الذي يهمه ان يعلم ما قلت ؟

- انت يا التياري وقد وعدتك أن أكون حراً في مقالي الى آخره وسأفعل ولو كان قولي يسيئك إلا أعلم أنك كنت ورولانده تحبان امرأة .
ألا أعلم ان حياة هذا الرجل باقت حاجزاً منيعاً دون سعادتك والحقيقة ان القبض على رولاند لا يفيدني شيئاً بشرط ان لا أدعه يسيء الى الجمهورية خلافاً لك ولذلك تخليت لك عنه وأنا اعتقد اني خدمتك أجمل خدمة .

لا تعجب يا سيدي مما اقول فانك ما جفوتني وابعدتني عنك إلا لاعتقادك
بأنني شديد الإخلاص لسواك وأما أنا فاني من أشد المخلصين لك وقد ساءني
أن أراك مسترسلا الى الأحزان وان لا تنال من هناء الحياة ما يستحقه
ذكاؤك وهمتك.

وهنا ساد السكوت هنيئة فكان التيماري يقول في نفسه : ترى من هذا
الذي يخونه منا ؟

ثم تبدى له ان جينارو مخلص في ما قاله فانه لو كان عارفاً بسر المؤامرة
ولو كان مخلصاً لفوسكارى فما الذي يمنعه ان يقبض عليه في سراي الدوج
وهو يذهب اليها في كل يوم .

وعند ذلك نظر اليه التيماري نظرة تدل على الثقة فأدرك جينارو معنى
هذه النظرة وقال : أظن اني قمت بواجبي الأدبي بقدمي اليك وأنا ذاهب
الآن فأرجو ان تعلم مهما حدث بأنني نهجت معك مناهج الاصدقاء .

فلم يحبه التيماري ولكنه شيعه الى الباب وهناك صافحه بيد تضطرب.
وقال له : أتقول ان رولاند كانديالو يبيت هذه الليلة في منزله ؟
- نعم في بيت الجزيرة .

- وسعده ؟

- مع ابيه الشيخ .

وهنا افترقا فاسرع جينارو بالعودة الى منزله فتأدى أحد خدمه وقال
له : اتعرف جزيرة اوليفو ؟

قال : نعم .

قال : اتعرف من يقيم فيها الآن ؟

- ذلك الرجل الذي زارك اليوم بعد الجواسيس .

- لقد عرفته كما يظهر .

فابتسم الخادم دون ان يحيب .

قال : إذن اذهب هذه الليلة واكن في الحديقة طول الليل ومهما حدث في المنزل أو في الحديقة فلا تتداخل بل يجب ان تسمع وترى وتقف على كل ما يجري ثم تعود الي فتخبرني بما يكون فاذا نجحت بمهمتك اعطيتك عشرة ريالات وإذا فشلت فيها جلدتك عشر جلدات .

* * *

٧٠

لقاء ايضاً

أما التياري فقد بقي وحده واقفاً في غرفته يتمن ويفتكر الى ان أقر على الأمر الذي كان يتردد فيه فنادى أحد خدمه وقال له ، ادع لي كاستريشو .

وبعد هنيهة جاءه هذا الرجل وهو شاب في الثلاثين من العمر وعليه ملابس الضباط .

فنظر اليه التياري نظرة ثقة واعجاب وقال له : اريد ان تصحبني هذه الليلة في رحلة خطيرة ؟

قال : انك تعلم يقيناً بانني مستعد لسفك دمائي في سبيلك .
— حسناً فعد الي في الساعة المباشرة من هذا المساء وليكن معك صديقك روماني وجيبرتو .

— سنحضر في الوقت المعين فهل الأمر مقلق ...

وهنا أشار إشارة الضرب .

فقال : نعم .

— حسنًا فمن هذا الذي قضى عليه ؟

— سوف تراه .

— اين ؟

— سوف تعلم .

— حسنًا فسأحضر مع رفاقي كما أمرت .

وانصرف الضابط فابتسم التباري ابتسام الرضى فانه منذ أعوام بعيدة لم يشعر بما كان يشعر به من الاطمئنان فقد وثق بعد الامعان ان جينارو لم يكن ضده وقد كان يخافه كثيراً ولكنه علم بعد ما سمعه من رئيس البوليس وعزمه على مبارحة فينيسيا كي لا يتداخل بما سيجري من الشؤون ان المؤامرة لم يبق شك لنجاحها وانه سيغدو دوجاً بعد ثلاثة أيام .

وفوق ذلك فانه سيفتك بولاند ويرفع عن صدره اثقال هذا الكابوس وأي فوز يدعوه الى الاطمئنان مثل هذا الفوز فانه متى صار دوجاً ومات رولاند فلا بد لليونور ان تحب زوجها فانها أحبت رولاند وحفظت عهده وهو في قيد الحياة ولكن الغرام لا يكون بالاموات .

ولما فازت نفسه بهذه السكينة أخذ يعد وسائل الفتك بولاند حتى رسمت في ذهنه فخرج من غرفته وسار في رواق فصعد سلماً خفياً يؤدي الى المكان الذي تقيم فيه ليونور مع أبيها .

وكان كل رجائه في تلك الساعة ان يرى ليونور فينظر اليها نظرة تشف عن انتصاره وتدل على قرب حوادث عظيمة .

ولكنه لم ير ليونور ولم يجد اباهما فنزل الى القاعة التي كان الضباط مجتمعين فيها وجعل يتحدثهم بلبالبشاشة والارتياح خلافاً لعادته فقد كان دائم التجهم والتقطيب .

وبعد ظهر ذلك اليوم خرج التباري وحده من قصره وجعل يطوف في شوارع فينيسيا حتى أقبل الظلام فذهب الى اقبح شارع في المدينة كان يعيش

فيه البحارة وأولئك الشقييات اللواتي قدر عليهن نكد الطالع وسوء التربية ان يبعن قبلاتهن بقطعة من الخبز .

وهناك المتسولون على اختلافهم وأهل الدعارة والشقاء دخل التياري إلى .
أحد البيوت في ذلك الشارع ، شارع الشقاء .
وقد فتحت له الباب امرأة عجوز فقال لها : هنا يقيم سبارتفنتو ؟
قالت : نعم يا مولاي فتفضل بالدخول .

فدخل التياري واقتلعت العجوز الباب ودنت منه فقالت له : الملك قادم يا مولاي لمقابلة ابني أو لمقابلة بنتي أو لمقابلتي فان لكل منا شأنا خاصاً به مثال ذلك انك اذا أردت ان تعرف ماضيك وحاضرك ومستقبلك ومما يكون من غرامك وإذا أردت ان تكون محبوباً لا يحفوك من تحبه فانما الذي اجيبك . وإذا كنت تريد فتاة حسناء تدرك معاني الغرام وملاذ الصباية فابنتي تحبيبك . وأما إذا أردت ان تتخلص من زوج غيور أو عاشق مزاحم بضربة خنجر فابني يحبيبك فاختر يا سيدي بين الأم والابن والبنت .

فقال التياري : اني أتيت لأرى سبارتفنتو .
— انه هنا كان ينتظرك فقد عهد اليه مهمة يكسب منها عشرة ريات
ولكنه بقي هنا كأنما كان يحدثه ..
— اسكتي ايتها العجوز ونادي ولدك .

فتفتحت العجوز باباً يطل على سلم وقالت : ادخل يا سيدي .
فتردد التياري حين رأى السلم المظلم ثم استوثق من خنجره وصعد
ذلك السلم بقدم ثابتة بينما كانت العجوز قد فرغت السقف بعصاها مرتين .
وقد انتهى من ذلك السلم الى غرفة لم يكن فيها غير سرير ومائدة
عليها زجاجة وبضعة اقداح وكثير من السيوف المختلفة معلقة بالجدار وهناك
رجل طويل القائمة وقف حين دخول التياري فالتحنى أمامه وقال : اني انا
هو سبارتفنتو مستعد لخدمتك في ما تريد .

قال : يسرني ان أراك فقد وصلت شهرتك الي وعلمت انك أمهر من
طعن بالخنجر وضرب بالسيف .
— نعم فاني اقتل بضربة واحدة .
— ومن قال لك اني أريد القتل .

— إذن لماذا انت هنا فهل خدعتك تلك المعجوز الشمطاء ثم مشى الى
الباب وهو مقطب الجبين .

فاستوقفه التياري وقال : قف واصنم الي .
فعماد الرجل ووقف أمامه فقال له التياري : نعم اني أتيت لأني محتاج
اليك في قتل واحد من الناس فهل تفعل ما أريده منك ؟
— وأنت هل تعرف الأجرة التي اتقاضاها ؟

— لا أبالي بالأجرة فاني ادفع لك قدر ما تشاء بشرط ان لا تخطيء
الرجل .

— ان اجرتي عن الرجل العادي عشرة ريات .
— حسناً ولكن الرجل الذي أريد ان تقتله شديد هائل .
— واجرتي عن الرجل الموظف بالحكومة خمسون ريالاً .
— ولكني قلت لك ...
— وشروطي ان النصف يدفع مقدماً .

فمد التياري يده الى جيبه فاخرج قبضة من الذهب ودفعها اليه وقال له :
اتصني الى الآن ؟

— تكلم .
— هل انت مستعد للقتل ؟
— كيف لا والقتل مهنتي .

— ولكني انذرك ان الرجل شديد قوي فيجدر بك ان تصحب بضعة
من رجالك الاشداء .

- اني اكفي وحدي .
- لقد قلت لك ان الرجل شديد الخطر .
- ولكنه سيموت فيزول بموته كل خطر .
- ألم تخف منه ؟
- فنظر اليه نظرة المنذهل وقال : ماذا يفيد معنى الخوف ؟
- وإذا سألتك ان يكون ذلك في هذه الليلة .
- بل في هذه الساعة .
- اوافق من قتله ؟
- كيف لا اكون واثقاً من قتله وانت قدفع اجرتي فقل لي أين أجده .
- في جزيرة أوليفو .
- متى ؟
- الساعة العاشرة فتقتله وتعود في الساعة العاشرة ونصف الى كنيسة سانت مارك فرموز فتجد اربعة رجال واقفين قرب بابها وانا منهم فاعطيك ما تملأه به جيوبك من الذهب .
- حسناً فسأعود اليك في تلك الساعة والان عين لي المكان بالتدقيق .
- في بيت دندولو القديم اتعرفه ؟
- نعم اعرفه .
- وسيكون الرجل فيه مع رجل عجوز فتقتل الفقى افهمت ؟
- دون شك .
- كيف تصنع لتدخل الى المنزل او لتأتي به الى الحديقة ؟
- هذا شأن يتعلق بي .
- إذن لقد تم الاتفاق والآن نستطيع الانصراف .
- اذهب آمناً وسأعود اليك في الساعة العاشرة ونصف بعد ان أقتله .

قالتف التياراتي بردائه وحاول الانصراف فاستوقفه اللص وقال له : لقد نسيت أمراً .

- ما هو ؟

- اسم هذا الرجل .

فارتعش التياراتي وقال : ماذا يفيدك اسمه ؟

- أحب ان اعرف اسم الذي اقتله لأضيفه الى قتلاي .

- إذن لا بد لك ان تعرف اسمه .

- ذلك لا بد منه أو لا اقتله .

- فاطرق التياراتي هنيهةً مفكراً ثم قال : ان الرجل هائل كما قلت لك .

وقد فعل اموراً عظيمة فخرج من ابار وانقم من كثيرين من اعدائه وهو .

يتولى قيادة جميع عصابات السهول والجبال .

- اسمه ؟

- احذر فانه امير الطاعنين بالخنجر .

- اسمه ؟

- اعمل بنصحي واستصعب رجالك .

- اسمه ؟

- رولاند كانديانو .

- ماذا تقول ؟ !

- رولاند كانديانو .

- احق ما تقول .. اتريد ان اقتل في هذه الليلة رولاند كانديانو .

- نعم .

فذهب اللص الى المائدة التي كان قد وضع عليها الذهب فردده اليه وقال :-

- خذ مالك .

- لماذا .. لماذا ؟

- لأنني لا أقتل رولاند .
- فقبض التياراتي على ذراعه بعنف وقال :
- ويحك أيها الشقي اريد ان أقبض عليك غداً وأزجك في اعماق السجن
فاني اطلب اليك ان تقتله بأسم الحكومة .
- وأنا لا أعرف الحكومة واحذر من ان تنذرني الا تسمع انين المياه في
الترعة ان هذا الصوت قد يكون انين الذين توعدونني فاني لا اغفر لمن يحسر
على تهديدي وبعد فهاذا استحق الملام اني أرد لك مالك . هل سرقته فقل
ماذا تريد ؟
- أريد ان ابقى لك هذا المال ولا انذكرك ولكن قل لي على الاقل لماذا
لا تريد ان تقتل رولاند .
- ولكن لماذا اسألك فان السبب ظاهر وهو انك خفت .
- وقد قال ذلك على رجاء أن يشير حماسه .
- انك لو ادعت ذلك لما وجدت من يصدقك فقد قلت لك اني لا
اعرف الخوف .
- بل انك ترتجف لمجرد اسم رولاند .
- ولو افترض صحة ذلك فانه جائز إذ لم يخطر لأحد أن يسيء رولاند
حق ندم الندم الشديد أما أنا فأني لا أخاف الموت الموت .
- إذن لماذا لا تريد قتله ألا تريد ان تتكلم ألا تعلم من أنا ؟
- اني أعرف بأنك القائد العام .
- وإذا كنت تعرفني فلماذا تعانذني ؟
- ولماذا لا اعانذك فاني لا أخافك بل اني استطيع أن اقيك من هذه
النافذة فأجعلك طعماً للأسماك ولكني ادعك تنصرف بأمان .
- فاصفر وجه التياراتي واصططكت اسنانه ولكنه لم يقل كلمة لخوفه من
العاقة .

أما اللص فإنه اذدفع في حديثه فقال :

— ان السبب في اني لا أريد قتل رولاند فهو اني سفاك ولكني لست من الجواسيس ولكل امرى مهنة اشتهر فيها فاني أخدم اولئك الذين لا يعرفون ان يقاتلوا مقابل أجرة اتقاضها ولكن لا شأن لي بأعمال الحكومة فإنه يوجد في فينيسيا دوج ومجلس عشرة وديوان تفتيش ورئيس بوليس وجيش منظم فعليهم ان يقبضوا على رولاند إذا كان من المتمردين أما كونه متمرداً عاصياً فاني لا أعد ذلك له ذنباً يجب ان يقتل له بل اني أعيد عصيانه واجباً مقدساً ولا اتكلم بلساني بل باللسنة جميع جمهور الشعب ما خلا النبلاء فقد قال لهم رولاند أنه سينقذهم من نيركم وهو فاعل ما يقول ولذلك يرى الشعب وأنا منهم ان هذا العصيان لا بد منه فاذا قتله كما تريد أكون قد خنت ذلك الشعب بحملته وما أنا من الخائنين .

فكبر وقع هذا الكلام على التياري وعلم يقيناً أنه لا سبيل إلى اقناعه فخرج من ذلك المنزل وهو يعثر بأذياله وبلغ الى قصره في الساعة التاسعة .

وبعد ذلك بساعة جاءه الضباط الثلاثة الذين وعدهم على اللقاء وكانوا مسلحين بالسيوف والخناجر والقدارات وكلهم مخلصون للقائد العمام أشد الاخلاص إذ كانوا من رجال المؤامرة فقالوا له : لقد اتينا حسب أمرك فإلى اين تريد ان تبعث بنا ؟

قال : اصغوا الى فإن اليوم العظيم قد دنا والفوز مضمون لنا فاننا قد قاهبنا لكل طارىء وعرف كل منكم مهمته فلم يبق لدينا غير حائل واحد يجب إزالته في هذه الليلة فانكم تعرفون دون شك ان رولاند كانديانو في فينيسيا .

فقال أحدهم : أهو هذا الحائل ؟

وقال آخر : يقال ان جميع البحارة وعامة الشعب متأهبون للثورة انقاداً له .

وقال آخر : بل ان جميع النساء لا يتحدثون إلا به .
 فقال أولهم : هو ذاك ولكنه لا ينتصر له واحد من النبلاء أو القواد
 أو الجنود فماذا يفيد البعارة والشيالون والنساء ؟
 فقال له التباري : لقد اخطأت فقد يكون وضع خطة لا نعرفها .
 — لا سبيل لنجاح هذه لأننا سنستولي على فينيسيا في اقرب حين .
 — هذا الذي أرجوه لكن يجب ان نتوقع كل أمر ونتأهب لكل طارئ .
 فان لدينا في ذلك اليوم العظيم ما يشغلنا عن كبج جماع الشائرين فلذلك رأيت
 ان نقتل رولاند .
 — لنقتله .

٧١

اللقاء ايضاً

ولنتقدم التباري إلى ورجاله إلى منزل الجزيرة فان رولاند صعد في الساعة
 التاسعة ونصف الى غرفة أبيه فوجده مضطجعا على كرسي طويل فوقف
 هنيهة أمامه ثم لمس كتفه فانتهبه الشيخ وقال : ماذا يريدون مني ؟
 فقال : هذا أنا رولاند يا أبي وقد أتيت اليك الآن لأنهم قد يهاجمون
 المنزل هذه الليلة فلا بد لي من اخراجك منه فتعال معي .
 وعند ذلك لفه برداء وأخذه بيده فقال له : الى اين يذهبون بي ؟
 قال : لقد قلت لك يا أبي انك لا تستطيع الاقامة هذه الليلة في المنزل .
 — من يدعوني بأبيه ؟ فارتعش رولاند وقال : أنا هو .. أنا ابنك
 رولاند .. الا تذكر يا أبي !

فطارق الشيخ برأسه وسار مع رولاند كأنه لم يسمع شيئاً .

فتنهّد رولاند وسار به الى حيث كان ينتظره سكالابرينو والخادم العجوز فأشار اليهما ان يتبعاه وساروا جميعهم الى تلك الشجرة الكبرى التي يذكر القراء ان الخادم فيليب قد جعل كهفاً في جزعها يلجأ اليه في زمن الثورات فتعاون معهما على انزال ابيه الى الكهف وأقام فيليب عنده ثم عاد مع سكالابرينو الى المنزل فقال رولاند : اني أريد أن أعلم الآن الى أي حد يبلغ جينارو من حدود الجبانة .

ويذكر القراء ان رئيس البوليس اجتمع في صباح ذلك اليوم برولاند فقال له بعد انتهاء المداولة : اين أجذك إذا احتجت اليك فأجابه في بيت الجزيرة حيث أكون وحدي مع أبي كما تقدم في الفصل السابق .

ولذلك كان يتوقع رولاند أن يهاجموه في هذه الليلة فخبأ أباه في الكهف . وكان رولاند قد أخبر سكالابرينو بجميع ما جرى به وبين رئيس البوليس وقال له : لا حاجة الى إزعاج رفاقنا فاني وإياك نكفي المهاجين .

فقال له سكالابرينو : انهم لا يستطيعون الوصول الينا إلا من طريق واحدة وهو طريق الكنيسة وسأكن لهم هناك فاذا رأيتهم كثيرين لا أدعئك تقاومهم وحدك .

قال : اذهب فاني منتظرك .

فانصرف سكالابرينو واطفاً رولاند المصباح فاقدام ينتظر وهو مطرق يفكر .

ولا ندري بماذا كان يفكر أبذلك الموقف الذي كان يخاطر فيه بحياته أم برئيس البوليس الذي ملك قياده ثم عاد الى خيانتة أم بجانب مدسيس وساندريجو وببجو وكريمانزي وأمباريا وجميع اولئك الذين قتلهم أم تمثلت له بمانكا التي ماتت شهيدة العفاف وجوليسا التي هبت ضحية الاخلاص أم كان يفكر بأولئك الذين يريد الانتقام منهم وهم دندولو وفوسكا والتياري أم

تمثلت له ليونور في تلك الساعة وهي لم تبرح ضميره منذ عرفها الى اليوم .
أنه كان يفكر بواحدة من هذه الأمور ولعله كان يفكر بها كلها فقد
مرت به كل حوادث حياته في تلك الساعة منذ ليلة خطبته الى الآن .

وفيا هو على ذلك جاء سكالابرينو وقال : لقد اتوا .

فقال له رولاند : كم يبلغ عددهم ؟

— اربعة .

— أرايت معهم جينارو ؟

— كلا ولكني رأيت انهم ليسوا من الجواسيس المعادين .

— كيف ذلك ؟

— اعني انهم بلباس الضباط .

فوجم رولاند هنيهة لأنه لم يكن يتوقع حضور ضباط ثم قال : ربما كانوا
غير قادمين الى هنا .

وعند ذلك سمع وقع خطواتهم في الحديقة فاسرع رولاند وهمس في أذن
سكالابرينو بضع كلمات فأجابته بصوت منخفض قائلاً : لقد فهمت .

وقام الاثنان فوقف كل منهما عند أحد مصراعي الباب وقد جرد رولاند
خنجره وتسليح سكالابرينو بكورسي ضخم من خشب السنديان الأغليظ .

أما القادمون فكانوا التيماري ورفاقه وقد خرجوا من القصر كما تقدم
فركبوا زورقاً الى الجزيرة فقال أحد الضباط :

— اذا كان كانديانو وحده كما قيل لك فان واحداً منا يكفي فمز التيماري
رأسه وقال : ان المنزل متسع وكان يجب أن نكون اكثر من أربعة .

— ولكن ليس منا من يعرف هذا المنزل .

— أنا أعرفه وذلك يكفي فاعلموا الآن اننا سندخل الى الحديقة وندنو
من المنزل وهناك قاعة كبيرة للطعام يجب ان ندخل منها الى المنزل دون ان
يسمع لنا حس .

- ولكننا سوف نضطر الى كسر الباب .

- كلا ان لدي مفتاحه فقد اتفق لي اني كنت سيد هذا المنزل .

وقد قال هذا القول بلمهجة دلت على انه يتميز غيظاً فذكر الضباط الثلاثة ان ليونور امرأة قائدهم كانت تقيم في هذا المنزل وانها كانت خطيبة رولاند فعلوا انهم لا يخدمون المؤامرة بقدمهم بل انهم يخدمون اغراض قائدهم الشخصية .

غير انهم كانوا شديدي الاخلاص له فامتلأوا وساروا ساكتين فكان يقول في نفسه : لا شك أنه وحده ولولا ذلك لهاجمونا .

ثم خطر له خاطر فجائي وهو ان جينارو قد يكون منخدعاً وان رولاند قد لا يكون في المنزل فأسرع الى فتح الباب دون تحسب وقال لرفاقه بصوت منخفض : سيروا الى اليسار .

فتقدم اثنان من الضباط وقد جردا خنجرهما بينما كان التياري يقفل الباب الذي فتحه فتقدما من باب القاعة ففتحاه ودخلا .

ولكنهما لم يلبثا ان تجاوزا العتبة حق صاحبا صيحة تسدل على النزاع وخرج عند ذلك رولاند وسكالابرينو وكادت كرسني سكالابرينو تغلق رأس التياري ولكن رولاند استوقفه قائلاً : ان هذا الرجل لي فلهع من الخوف أما الضابط الذي كان معه فانه رمي بخنجره الى الارض وقال : أني اسلم نفسي فحبسه سكالابرينو في إحدى الغرف .

اما رولاند فانه نظر الى التياري نظرة كهرتته وقال له : تعال .

فتبعه التياري واضاء سكالابرينو مصباحاً ودخل في أثره فقال له رولاند :

- دعنا الآن وحدنا .

- مولاي ؟

- قلت لك دعنا وحدنا ولا تدخل الا حين أدعوك .

فخرج ممتثلاً وجلس التياري على كرسي وقد بدت عليه علائم الاضطراب الشديد على وجهه .

أما رولاند فإنه أقفل باب القاعة وعاد الى التياري فقال له : انك قادم لقتلي اليس كذلك ؟

قال : نعم وقد عادت اليه شجاعته بعد خوفه من تلك المفاجأة فقال : نعم اني قادم لقتلك فان كلامنا يبحث عن رفيقه منذ عهد بعيد .

— ولكنني لم ابحث عنك يا التياري ولو أردت البحث عنك لظفرت بك من عهد طويل كما ظفرت بصديقك بيبو وامباريا حليفك بالاثم ولكن ما زلت قد لقيتكم الآن فلا بأس من ان اقول شيئاً من افكاري .

— إذن لنوضح افكارنا قبل ان نقتل فانك لا تجد اشئ من قتلي وأنا لا أجد أشئ من أن اخطف روحك .

— لا حاجة الى الايضاح يا التياري فاني اريد ان اقول لك ما افكر به .

— قل .

— أتذكر يا التياري ليلة خطبتي ؟

فهم رأسه وقال : كلا لا أذكر .

— اما انا فاني اذكرها فقد دنوت مني في تلك الليلة فصافحتني وقلت لي بلمهجة المخلصين « اهنتك يا رولاند وارجو ان تكون سعيداً » .

نعم انك قلت لي هذا القول وبعد نصف ساعة القيتني في اعماق السجون . نعم انك قلت لي هذا القول وقد حفظت كلماتك عدة اعوام وأنا فيها ابحث عن اصلك فايقنت انك لا يمكن ان تكون من رجال السيف إذ لو كنت منهم لتخلصت من عدوك بالسيف وليس بالخيانة .

فتبين الغضب في وجه التياري ومضى رولاند في حديثه فقال :

— اصغ الي بسكينة كي احدثك فلقد قلت لك انك لست جندياً كما هي

عليه ملابسك وقد خطر لي حيناً انك من اولئك اللصوص الذين يكونون في الطرقات فوجدت انك لست منهم ايضاً إذ لو كنت منهم لكنت طعننتني غيلة وقتلتني غدرأً ولكنك لم تجسر الى ان خطر لي انك جاسوس ولكنني رأيت ايضاً انك احط من الجواسيس اذ كنت تستطيع ان تقبض علي ولكنك لم تعمل بل صافحتني وهنأتني وانت قضم ربي الموت .

— ويح لك أيها الشقي ان هذه الاهانة ستكون آخر ما تقوله .
وعند ذلك وثب يريد الهجوم على رولاند ولكنه لم يستطع ان يأتي بحركة فان رولاند انقض عليه بسرعة وقبض على يديه وأعاده ذليلاً الى مجلسه .

ثم تركه وقال له : لقد سألتك أن تسمعي بسكينة وسأوجز في كلامي لك فلقد قلت لك انك لست جندياً ولا لصاً ولا جاسوساً أما وقد رأيتك تريد مهاجتي بأربعة رجال فقد عرفت الآن من أنت . . التياري من زمرة الجبناء الأذنياء .

فاهتز التياري في مجلسه ولكنه لم يحسر على معاودة الهجوم فقال له : انك أنت الجبان ما زلت تقول لي هذا القول والقوة في جانبك .

— انذا وحدنا في هذه القاعة وما للقوة إلا في جانبك فان خنجرك في يدك أما خنجري فقد تركته مغمداً في صدر قائدك .
وقد قال هذا القول وكتف ذراعيه .

أما التياري فانه وقف والخنجر مجرد بيده وقد برقت عيناه ببارق هائل من الحقد ورفع يده فلم يبق بين رولاند وبين الموت غير لحظة .

ولكن رولاند لم يجزع ولبت واقفاً في مكانه يبتسم ابتسام الاحتقار .
فألقي التياري خنجره الى الارض بعنف فقال له رولاند بلمهة الساخر المتهمك .

— لقد كنت اعلم يقيناً انك لا تجسر على قتلي الخوفك .
قال : كذبت .

قال : بل انك خفت فقد قلت في نفسك اني إذا قتلتك قتلتني رفيقه وهذا كل ما أريد ان أقوله لك يا التياري وهو انك لست جباناً فقط بل لو صورت التضاللة والجبن لما تمثلنا إلا برسبك ولذلك اعاملك معاملة الجبناء الأندال الذين يأنف الشجاع من قتلهم فاذهب يا التياري فقد عفوت عنك .
قال : ان ذلك سيكلفك كثيراً .

— انه لا يكلفني شيئاً ما زلت جباناً فانك لا تجسر على لقائي وإذا كنت في طبيعة جيش لأنك تخافني ولأنك جبان فاذهب فاني لا اكتر لك في المستقبل كما اني لم اكتر لك في الماضي لأنك جبان .

وعند ذلك ذهب الى الباب ففتحه وكان سكالابرينو ينتظر فقال له : دع هذا الرجل ينصرف ولا تسوء اليه بشيء ولا تتدان الى صفعه لأنه جبان فدعه ينصرف فقد عفوت عنه .

فان التياري انين الموجه وجعل العرق البارد يسيل من وجهه وقد اضطربت أعصابه لما لقيه من الخذل وسار حتى وصل الى جثتي القائدين وتراجع منذعراً .

فقال رولاند : رأيت يا سكالابرينو كيف انه لم يجسر ان يقترب من ضابطيه فقد كان وحشين مفترسين ولكنهما لم يكونا جبانين .. رأيت مقدار جبنه فانه لا يجسر أن يرى الأموات لشدة خوفه من الموت .. ولكن ماذا ينتظر ولماذا لا يذهب وقد عفوت عنه ؟

فزأر التياري زئير الوحوش ووثب من فوق الجثتين وبعد هنيهة كان في الحديقة وقد شبعه رولاند الى الباب فلما خرج منه قال رولاند : لا تقفل الباب يا سكالابرينو بل دع جميع الأبواب مفتوحة فلا يجب الاحتياط مع الجبناء .. دعه ينصرف فقد عفوت عنه .

فجعل التياري يركض وهو يذوب من الخجل ويقول في نفسه : نعم نعم اني لا شك جبان .

قرار دندولو

منذ ذلك اليوم الذي احضر ارتين صورة رولاند الى ليونور كان دندولو مضطرب النفس قلق البال حزين النفس اذ شعر بأن بنته قد انفصلت عنه كل الانفصال وانها لا تزال تحب رولاند حباً لا يؤثر عليه كروور الأيام .

وقد ذهب رجاؤه وزالت مطامعه فبات يخاف الإقامة في فينيسيا ولم يعد يخطر له الا ان يقضي ما بقي له من الحياة في منزل بعيد عن الناس يفسى فيه ماضيه وبنته وكل شيء في الوجود .

وقد كان قرب ذلك اليوم العظيم يروعه حين يبيت التباري دوجاً وتنتقل بنته الى سراي الدوج فقد كان يظن في البدء ان ابنته تتفق مع التباري ولكن بعد ما رآه منها في حادثة الصورة ايقن ان الاتفاق محال وعول على الفرار قبل ان تستتب السلطة للتباري وينتقم منه .

ولقد كان هياً اسباب الفرار وهو موقن ان ابنته تكرمه ولكنه عول أن يراها مرة ايضاً وهو يقول في نفسه ربما عادت الى متى علمت هذه التفاصيل فلما اجتمع بها قال لها : هل تمنعت يا ابنتي بما اقترحت عليه منذ بضعة أيام ؟

قالت : أي اقتراح تعني ؟

— أن نهرح فينيسيا معاً الى أي بلد شئتيه .

— لقد أحببتك يا أبي في ذلك الحين .

— نعم لقد أحببتني جواباً يدل على عدم الاسفاق فان اصرارك على البقاء

بعد اصراري علي الذهاب يدل على ان ليس لي بنت .

ومع ذلك فقد يكون ذنبى اقل مما تحسبن فان هذا الخطأ ما أوحاه الى

غير سحي اياك .

- لا شك عند يا أبي فيما تقول ولولا ذلك لما كنت تراني .
- ليس هذا كل الذي أريد أن أقوله فاعلمي أن رولاند كانديانو إذا كان قد نجا أخيراً فأنا الذي انقذته .
- فوقفت ليونور وقد اصفر وجهها وقالت : ما هذا الاسم الذي ذكرته يا أبي ؟
- هو الاسم الذي يردد قلبك ذكره في كل لحظة ومع ذلك يجب ان تصغي الي لأنني لا أريد ان تلعني ابنتي بعد موتي .
- كلا يا أبي لا العنك .
- هو ذاك وقد تصفحين عني ايضاً ولكنك تلبثن على اعتقادك بأنني لم اقم بواجباتي ولذلك لا أجد بداً من قول الحقيقة يحملتها تبرة لنفسني ولراحي .
- إذا كان ذلك لا بد منه لراحتك فقل .
- أعلمي قبل كل شيء أن رولاند لم ينج عشر مرات إلا بفضل رئيس ديوان التفتيش أي بفضل أبيك اتعرفين ذلك ؟
- كلا اني لم أكن أعرفه .
- واعلمي ايضاً أنه قبل نجاة رولاند كان أحد الجواسيس عارفاً بمكانه فذهبت به الى ليدو وقتلته كي لا يبوح بهذا السر لأحد .
- فارتعشت ليونور ولم تجب فقال لها : اعلم يقيناً انك لا تعتبرين عملي غير اصلاح خطأ جاء بعد فوات أوانه ولكن اصغي الي ايضاً فاني محدثك بما جرى في تلك الليلة الهائلة ليلة الخطبة فاسمعي .
- فخفق قلب ليونور خفقاً شديداً وحاولت ان تهرب ولكنها ذكرت ما قاله لها ابوها فانه أشار بيده الى صورة رولاند وقال لها : اتعلمين اين كانت هذه الصورة قبل ان تصل اليك ؟
- قالت : نعم يا أبي في قصر المحظية امباريا .

— ألم تسألني كيف اتفق وجود هذه الصورة هناك ؟
— أية فائدة من معرفة ذلك ؟

— اني مخبرك به فاعلمي ان المحظية دعت المصور تقياني الى صنعها نقلاً
عن ذاكرته وهذه الصورة تمهد لي سبيل ما أريد قوله لك فقد رأيتها قبل
الآن في قصر المحظية .
— انت ؟

— نعم فاذكري ان رولاند جاءنا ليلة الخطبة حسب عادته في بيت
الجزيرة وكنت وياه في الحديقة .
— بالله يا أبي لا تعد الى هذه التذكارات .

— اني لا أقول لك غير ما يجب قوله فاني كنت تلك الليلة من اسعد
الناس ولكن هذا الهناء كان آخر هناء عرفته واأسفاه .

فبينما أنا واقف في الترفة وقد بلغت الساعة الحادية عشرة ونصف سمعت
وقع خطوات في الحديقة فحسبت انك أنت عائدة ولكنني نظرت من
النافذة فاذا القادم التيادي .

نعم لقد كان التياري وما كنت أحب هذا الرجل وكنت أعلم انه لا
يجبني فاستأنت لحضوره ومع ذلك لم يسعني إلا أن أترحب به .

فدخل ورأيت وجهه مضطرباً وعيناه تتوقدان فقال لي : اني أتيت
لأكلمك في شأن خطير .

قلت له : اني مصغ اليك .

قال : لا استطيع ان أكلمك هنا .

قلت : اين تريد ؟

— تعال معي الى قرب كنيسة سانت مارك .

— في هذه الساعة ؟

— بل في الساعة الاولى بعد انتصاف الليل وإذا لم تحضر ساءت العاقبة
وكان الخطر شديداً .

فوعده بال حضور وأنا لا أعلم شيئاً مما يريد فودعني وانصرف .

وقد رأيته وقف في الحديقة وجعل يرتجف ثم انصرف وهو يسرع
السير .

ولقد عجبت لهذه الزيارة ولهذا الموعد وانذرتني قلبي بحدوث مصاب قلما
رجعت من الحديقة بعد ان شيعت خطيبك سألتني عن السبب في اضطرابي
وقلت لك انه اضطراب سرور .

قالت : نعم اذكر ذلك واذكر ايضاً اني قلت لك باني اتوقع حدوث
نكبة وأأسفاه .

قال : نعم يا ابنتي وتذكرين ايضاً اننا قمنا نتحدث الى بعد انتصاف
الليل بنصف ساعة فدخلت الى غرفتك وذهبت أنا إلى سانت مارك فلقيت
التياري ينتظرني .

وهناك شكرني لحضوري فقلت له : لماذا أردت ان تكلمني هنا وليس
في منزلي ؟

فقطب حاجبيه وقال لي : ذلك لأنني لا أطيق الإقامة في منزلك فاني
اشعر فيه اني أصبح كالحجائين .
قلت : اني لا أفهم ما تقول .

فغير الحديث وقال لي : موعد لقائني في هذه الجهة لا أدري إذا كنت
اذهب اليه فان ذلك منوط بك .
قلت : تمكلم .

قال : هل تقرر زواج بنتك بـرولاند ؟

— دون شك وانت تعرف ذلك حق العرفان .

— الا يوجد ما يمنع هذا الزواج ؟

- كلا فان من كان بمنزلنا لا يخل بمعهوده .
- وإذا قلت ان هذا الزواج لا يتم عقده ؟
- أرى انك تهينني يا التياري .
- كلا ولكني اسألك إذا كنت تريد استعمال سلطتك بمنع هذا الزواج .
- ولماذا ؟
- لا تسألني عن الاسباب بل اجبني .
- اذن اجيبك بالرفض البات .
- وعلى ذلك فستمقد خطبتها غداً .
- دون شك .

فسكت مطرقاً ولم يخطر لي في تلك الساعة انه يجبك بل حسبت انهم يريدون تزويج ابن الدوج بسواك لما كرب سياسية فلما سألت التياري عن قولي الأخير اجبته قائلاً : اني اعتبر الاحاح في هذا الموضوع اهانة لي .

فتركتني عند ذلك مغضباً وانصرف فقفوت أثره ورأيت دخل الى قصر المحظية امباريا واقفل الباب بعد دخوله .

ولا أدري ما الذي دفعني الى تعقبه وادراك حقيقة مقصده فاني دلوت من ذلك الباب وطرفته ففتح لي أحد الخدم وقال لي : ادخل ايها السيد فوسكاري فانهم لا ينتظرون سواك .

وكان وشاحي يغطي جانباً من وجهي فحسبني ذلك الخادم فوسكاري الذي كان رئيس ديوان التفتيش في ذلك العهد .

وقد حاولت ان أقول له بأني لست فوسكاري ولكنني تقط الى معرفة هذه الغرائب ورأيت ان في هذا الاجتماع سرأ أحببت الوقوف عليه فادخلني الخادم الى غرفة متسعة وقال لي : افتح باب الوسط فاني لا يحق لي ان اتجاوز هذا الباب .

ثم تركني في تلك القاعة التي لم يكن فيها سواي فتجاسرت على الدنو من

ذلك الباب الذي دلني عليه الخادم ولكنني علمت ان التياري قد دخل من هذا الباب فاردت ان أقف على سر هذا الاجتماع ودنوت من ذلك الباب فسمعت صوتاً يشبه صوت النزع .

وكان هذا الصوت صادراً من غرفة مجاورة فذعرت ودنوت من ذلك الباب ففتحته برفق ورأيت منه امرأة ورجلين .

اما المرأة فكانت امباريا الحظية وأما الرجلان فكانا التياري وبمو ذلك الماكر الذي أصبح كرديناً .

والآن فاسمعي يا ليونور ما كانوا يتحدثون به فقد قال بمو يخاطب امباريا .

ان الوشاية مكتوبة لا يبقى غير التوقيع عليها وأنا اتعهد بإيصالها الى موضعها .

فأجابه التياري قائلاً : نعم انك مصيب بما ارتأيت يا بمو .. نعم انه هو القاتل .. نعم هو الذي يجب ان يتم ويحكم عليه بما يحكم به على القاتلين .

أما امباريا فانها أجابته قائلة : ولكن مجلس العشرة يدعوني اليه لسؤال .

فقال لها التياري : أني أحد اعضاء هذا المجلس كما تعلمين وسأمنعه عن أن يدعوك فوقمي على الوشاية دون خوف فاعترض بمو قائلاً : بل يجب أن تذهب الى مجلس العشرة كي تسحق شهادتها هذا الرجل فلا تقوم له قائمة بعد .

وكأنما الحظية تأثرت من لهجة بمو أو كبرت عليها هذه الجناية فقالت : — وإذا أبديت ان اوقع على الوشاية وأشهد على الجناية ؟

فاجابها بمو : اذا نذهب نحن الى مجلس العشرة ونشهد بما نعرفه إذ لا بد

للجلاد من قطع رأس فاختراري بين أن يكون رأسك أو رأس الذي تريد أن.
قشي به .

فوجف قلب المرأة وأخذت القلم بيد ترجف فوقعت على الوشاية .
وقد علمت انهم يشون على رجل منكود ولكن الحقيقة الهائلة لم تخطر
في بال .
ولما رأيت بمبو وضع الوشاية في جيبه علمت أن امباريا قد قتلت رجلا
وانهم يريدون اتهام سواها به فتراجعت بينما كان الثلاثة يتحدثون بصوت
منخفض حتى وصلت الى منتصف القاعة .

وهناك سمعت ذلك الصوت صوت النزع صادراً من غرفة علي يساري.
فدنوت من تلك الغرفة وفتحت بابها فرأيت رجلاً صريعاً على الأرض والدم
يتدفق من صدره فدنوت منه ونظرت اليه فاذا هو دافيليا أحد أعضاء
مجلس العشرة .

وعند ذلك فتح عينيه فقلت له : اتسمعني يا دافيليا ؟
قال : نعم .

قلت : من الذي طعنك ؟

— هي :

— امباريا ؟

— نعم وسأموث .

— اتعلم ماذا يجري هنا يا دافيليا .. أأنت مصغ الي ؟

— تكلم .

— انهم يحاولون اتهام رجل منكود بقتلك وقد سمعت حديثهم .

— من الذي يتهمونه ؟

— لا اعلم .

— كلا ان هذا لا يكون ..

- وسأذهب بنفسى الى مجلس العشرة .
- حسناً تفعل فهل تستطيع ان افيدك الآن بشيء ؟
- كلا .
- اذن سأخبر اهلك :
- لماذا ؟
- لأن الريب يخامرها فتجهز على فاذهب قبل ان تراك .
- استودعك الله .
- أسرع أسرع بالذهاب .
- فخرجت من ذلك القصر الجهنمي وأنا شبه المجانين فعدت الى منزلي ..
- وفي اليوم التالي ...
- فقال له ليونور : وفي اليوم التالي ذهبت الحظية الى مجلس العشرة ففشدت ان رولاند القاتل ولكن دافيليا لم يحضر .
- بل حضر ولكنه مات قبل أن يستطيع اظهار الحقيقة .
- وساد السكوت هنيئة بين الأب وبنته ثم نهضت ليونور ومشيت ببطء الى صورة رولاند وقالت : رولاند لماذا تأخر أي الى الآن عن اخباري بهذه الحقيقة الهائلة ؟
- فقال لها أبوها : ليونور ليونور ان حزنك كان عظيما فلم استطع ان ازيد به مثل هذه الإنباء وانا لم اخبرك بها الآن الا لأن قلبي يحدثني بأننا سنفترق فراق الأبد .
- ولكن ليونور لم تسمعه فأتمت حديثها مع الصورة فقالت : رولاند اني لو عرفت هذه الحقيقة من قبل لانتقم لك من زمن طويل ولكن ثقي ايها الحبيب اني سانتقم لك واقسم لك ان هذا الرجل الذي اتسمى الآن باسمه لا يموت الا من يدي .
- وعند ذلك عادت الى كرسيها وغطت وجهها بيدها فناداها أبوها

فأشارت له انها مصغية فقال : الاتجيبين رجائي يا ليونور وتبرحين معي هذه المدينة التي لا ترى فيها غير الاشباح الدموية ؟

— كلا يا أبي .

— اني أقوسل اليك فتعالي معي ولنهرب .

— كيف ذلك ألم تسمع قسيمي وان التياري يموت من يدي إلا إذا أخبره أحد بمصيره فهرب من انتقامي .

فاصفر وجهه دندولو وأيقن ان اقناعها بحال فتراجع قانطاً وهو يقول : استودعك الله ثم خرج من تلك الغرفة ذليلاً خجلاً قانطاً من بنته لاسيما بعد ان أهانتة وأظهرت له أنها تخاف أن يشي بها الى زوجها ويحذره من انتقامها .

ولم يعد يخطر له في تلك الساعة غير الفرار فذهب الى غرفته فأحرق كل ما كان لديه من الاوراق التي يخشى عليها ثم اقشع بردائه وخرج من ذلك المنزل خروج اللصوص .

ولما وصل الى الرصيف التفت الى نافذة ليونور وقال : استودعك الله يا ابنتي .

وفي تلك اللحظة اطفئ نور الغرفة الذي كان يذيعث من تلك النافذة فكان شبه جواب لهذا الوداع .

فسار دندولو حزين النفس منقبض الصدر الى الشاطئ ولكنه لم يسر خطوة حتى ابصر رجلاً قد تصدى له وهو ملتف بردائه فلم ير وجهه وقال له من أنت ؟

فأجابه الرجل قائلاً : لقد سرتي انك لم تعرفني .

— ماذا تريد مني ؟

— أريد ان أقول لك كلمة بالسر ولكنني لا أقول لك شيئاً هنا بخافة

الرقباء فهل تريد أن تتبعني ؟

- لكن ما تريد .
- فسار الرجل وتبعه دندولو وهو غير مكترث لأمره ولكنه استاء لتأخر سفره .
- وما زالا يسيران حتى اقتربا من منزل ارتين وهناك شارع ضيق مقفر فدخل الرجل اليه ثم وقف والتفت الى دندولو فقال : الديك خنجرك يا دندولو ؟
- فأجابه بعظمة : انه لا يفارقني .
- قال : حسناً فلو لم يكن معك خنجرك لاعطيتك خنجراً إذ لدي اثنان .
- وعند ذلك نزع رداءه فאלقاه الى الارض فقال له دندولو : أراك تقترح علي مبارزتك ؟
- هو ذاك .
- ولكنني لا ابارز رجلاً لا أعرفه .
- اذن اضطر الى قتلك كيف اتفق فخير لك ان تدافع عن نفسك .
- والآن لا بد لي أن اوضح لك السبب في هذا القتل .
- اني مصغ اليك .
- اتعلم يا دندولو اننا اليوم في التاسع والعشرين من شهر كانون الثاني .
- انك تعد هذا القول من سقط المتاع ولا تكترث له ولكن تعلم خطورته حين تعلم انه بعد يومين يبدأ شهر شباط .
- فارتعش دندولو ارتعاشاً ظاهراً فقال له الرجل :
- أرى افك فهمت فلا حاجة الى اخبارك بما سيجري في هذا اليوم الرهيب ولكن لا بد لي تذكيرك بأنك واقف على جميع أسرارنا وانك أردت الخروج من جمعيتنا فقررتنا بالاجماع قتلك وقتل ابنتك .
- ليونور ؟
- نعم وقد تعينت انا لقتلك فاقمت اراقب خروجك خمسة عشر يوماً

ويجب عليك ان تشكرني لأنني اقترحت عليك مبارزة شريفة في حين اني كنت قادراً على اغتيالك .

— نعم اشكرك ولكنني لا أرى وجوباً لهذه المبارزة فاني كنت استحق القتل لو كنت جديراً بالخيانة .

— ان المرء ضعيف بالطبع يا دندولو فقد يتفق حدوث حوادث تدعوك الى الاباحة بما تعلم .

— لو كنت أريد خيانتكم لخنسكم من عهد بعيد .

— ولكن لا يزال لدينا يومان وفي ذلك وقت فسيح .

— اني مغادر فيفيسيا الآن .

— ولكن رسولك يستطيع أن يبلغها بعد ساعة فان حياة ألف رجل معلقة بحياتك وفي كل حال فقد تلقيت الأمر بقتلك ولا يسعني العصيان وقد انفت من قتلك اغتيالاً فاقترحت عليك المبارزة .

فايقن دندولو من لهجته ان لا سبيل معه الى الجدل وانه لم يبق عليه إلا أن يدافع عن نفسه .

وكذلك الرجل فانه تأهب للقتال وبعد هنيهة انقض كل من الفريقين على خصمه بخنجره فكان قتالاً هائلاً دام خمس دقائق اسفر عن سقوط دندولو صريعاً .

فأكب الرجل عليه وفحص جرحه فقال : انه لا يعيش اكثر من ربع ساعة .

ثم التف بردائه وتوارى عن الانظار .

رسالة ارتين

كان ارتين قد دخل في هذه الليلة الى منزله في الساعة الثامنة وعليه علائم الاستياء فانه كان قد دعى الى مأدبة فلما ذهب اليها قيل له انها تأجلت الى موعد آخر .

وكان قد رأى من أهالي فينيسيا ما لم يره من قبل فان علائم الاضطراب كانت بادية في جميع الوجوه وأكثر الناس يجتمعون عصابات ويتحدثون بأصوات منخفضة .

فعاد إلى منزله وهو مضطرب البال وتمشى وحده وهو يقول في نفسه : ترى ماذا حدث في فينيسيا أو ماذا عسى يحدث فاني أرى سكون القوم يشبه ذلك السكون الذي يتقدم العاصفة فاذا استمرت الحال على هذا المنوال حرمت فينيسيا من وجودي وذهبت .. ولكن الى اين أذهب .. اذهب الى روما والكاردينال روسبولى جلدي فيها بالسياط أم اذهب الى باريس وولي العهد حاقدا علي لأنني هجوته فهو يشنقني لا محالة .

قبح أولئك العظماء الذين بغضبهم هجاء الشعراء الا يعلمون ان الشعراء يهيمون كل واد وان الاشراف ما زالت تهجى وتمدح .

ولكن الى اين اذهب فاني لم أعد أطيق الإقامة في هذه البلد وفيما هو على ذلك جاءه أحد خدمه فقال له : يوجد على الباب رجل جريح يريد ان يكلمك وهو من أهل الجاه كما يظهر من حديثه وملابسه .
- أملك رأيتة ؟

- نعم قد سمعت أنينه تحت النافذة فذهبت اليه ووجدته في حالة النزع فطلب الي أن أحمله اليك .
- من هو هذا الرجل ؟
- لا أعرفه .
- اذهب إذن وجئي به .
- لقد فعلت يا سيدي .

- كيف تفعل ايها الابله دون أمري أحسبت بقي مستشفى وبعد فأين وضعته ؟

- في أحد غرف الدور الاول وأرسلت من يدعوا طبيباً .
- حسناً فعلت وها أنا ذاهب اليه .

وذهب ارتين إلى الجريح فلما رآه صاح صيحة انذهال وقال : هو دندولو الذي بعته صورة رولاند وعند ذلك فتح الجريح عينيه فقال له ارتين : تشجع يا سيدي فان الطبيب سيحضر قريباً فينقذك .
فأشار اليه دندولو ان يدنو منه فقال له : ماذا تريد اتستطيع الكلام ؟
قال : لا حاجة الى الطبيب فاني سأموت .

وعند ذلك دخل الطبيب ففحص الجرح وتبين ارتين من عيني الطبيب حالة اليأس .

أما دندولو فانه سأل الطبيب بصوت خافت قائلاً : اني موقن بقرب الموت ..

- ولكن قل لي متى أموت ؟
- قال : توكل على الله يا سيدي .
- بل تكلم ولا تخف فلا أخشى الموت .
- أتريد ؟
- ذلك لا بد منه .

- إذن فاعلم ان الموت يكون حين اخراج الخنجر من صدرك ولكن ليس بأكيد فثق بالله .
- لقد فهمت فهل تستطيع أن تعطيني مقويا وقتياً يعينني على الكلام ؟
- ذلك سهل .

وقد أخرج لفوره زجاجة صغيرة من حقيبته وافرغها في فم الجريح فلم يكبد الشراب يستقر في جوفه حتى شعر بأنه انتعش فقال للطبيب : اشكرك وأرجوا أن تنصرف الآن .

فامتثل الطبيب وشيعة ارتين الى الباب فقال له : ماذا ترى ؟
قال : انه يعيش ساعة ايضاً إذا بقي الخنجر في صدره وإذا أخرج يموت للفور .
- ألا يمكن انقاذه ؟
- كلا وأسفاه .

فعاد ارتين الى الجريح وقال له : اطمئن يا سيدي فإن الطبيب يرجو لك الشفاء .

فقال له دندولو : اني اعرف حقيقة أمري فاسرع الى مجاوبتي عما أسألك عنه باتم الجلاء فإن الأوان يفوت بعد نصف ساعة .
قال : سل يا سيدي ما تشاء .
قال . لقد قلت لي حين زرتني ان رولاند من اصدقائك .
- هو ذاك .

- إذن استطيع أن أعهد اليك بمهمة سرية اليه .
- دون شك فإنه يزورني في أكثر الأحيان .
- أريد أن أعطيك كتاباً اليه .
- وأنا اتعهد بتسليمه اياه .
- وسأمل عليك الكتاب فنكتبه بخطك .

— كما تريد

— اقسم لي أنك تنسى كل ما أملكه عليك .

— اقسم .

— اذن اكتب .

فاحضر ارتين معدات الكتابة واملي عليه دندولو ما يأتي :

« رولاند .

« اني على وشك الموت فقد أصبت بطعنة خنجر لا سبيل الى النجاة منها فكل ما أقوله لك حقيقة لا ريب فيها فان القادمين الى لقاء ربهم لا يكذبون .

« رولاند اني جبان وقد حملني ضعفي على ارتكاب جريمة كانت شراً عليك .

« ولو كنت وحدك الذي شقيت بسبب هذه الجريمة لتعزيت ولكن أباك وأمك قد أصيبا بها وكذلك ابنتي قد عوقبت بذنوب سواها واليك بيان الحقيقة .

فقاطعه ارتين الشاعر وقد غار على صناعة الانشاء وقال له : الا ترى ان الاملاء ركيك ؟

قال : اني استعطفك بشرفك ان لا تغير كلمة من هذا الكتاب ثم عاد الى الاملاء فقال :

« رولاند ان ابنتي جديرة بك وقد ضحيت نفسها واقدمت على ما لا يقدم .

« وذلك انك كنت في السجن فتوعدني التياراتي بالدمار والقتل وبالقتلهم إذا لم اطعه فاضطرت الى الامتثال له لأنني جبان .

« وقد قلت لليونور مرة انك هربت من فينيسيا وتحليت عنها وسلوت

« حبها ثم قلت لها مرة ثانية انك مت وأخيراً قلت لها اني في أشد مواقف
« الاخطار وانه لا ينقذني من هذا الخطر غير زواجها بالتياري .

« فوافقت ليونور على ان تدعى باسم التيارى ولكنها لم توافق على غير
« ذلك اي انها تكون امرأته بالاسم ليس الالفى تحمل اسمه ولكنها
ليست امرأته .

« وما زالت على ذلك إلى الآن فانها حين اعتقدت انك مت مات كل
« رجاء في قلبها ووفت بعهدهك بعد الموت ولما علمت انك حي عادت الى
« عبادتك فهي هي على وفائها في الحياة وفي الموت .

« هذا ما أريد ان أقوله لك قبل ان يهدركني الوفاة ولا أدري اي قدر
« لكما ان تلتقيا ام حكم عليكما بالفراق الابدى وهو ما ارجحه فان هذه
« الحوادث التي ستجري ستكون شؤماً على ابنتي .

« وكل ما اطلبه اليك في هذه الساعة الاخيرة ان لا تسيء ظنك بليونور
« بل قدس اسمها في قلبك فانها ضحية ضعفي وشهيدة الوفاء استودعك الله
« يا رولاند .. الوداع يا ليونور .. اني سأوقع على هذه الرسالة وأموت ..
وعند ذلك أخذ القلم من يد ارتين وكتب اسمه في ذيل الرسالة .

وبعد ذلك وضع يده على الخنجر المقعد في صدره وجذبه برفق فلم
تمضي هنيئة حتى فاضت روحه وردد النفس الأخير .

فكبر موته على الشاعر ارتين وقال في نفسه : وبع لي ما اعظم شقائي
فهذه جثة ثانية في منزلي لا أدري ماذا اصنع بها وأخاف ان أكره على
السفر بها كما فعلت بجثة بمانسكا .

وعند ذلك خطر له ان يبحث في جيوب الفقيد على يجد وصية كتبها
قبل موته فلم يطل بحثه وظفر بورقة مطوية كانت في جيبه ففتحها وقرأ
فيها ما يأتي .

« انا دندورلو كاتب هذه السطور عزمتم على مغادرة فينيسيا ولي اعداء
كثيرون أخاف ان يفتك بي أحد منهم على الطريق .
» فاذا حدث وقتلت الشمس من يطلع على هذه الوصية أن يعمل بشروطها
وهي :

١ ان يخبر بموتي ابنتي ليونور المقيمة في فينيسيا في قصر زوجها التياري
القائد العام ويتلطف جهده بأخبارها .
٢ ان تحمل جثتي الى فينيسيا وتدفن في تربة ابائي .

٣ ان يذهب الى ملانو وهناك يذهب الى آخر منزل في شارع سانتو
فينزل الى القبو وينزع أول بلاطة في الصف الاول من جهة الباب فيجدهناك
صندوقاً » .

فتنحج ارتين ومسح عينيه وقال ، العلي اقرأ خطأ فلاقراً بسكينة .
« وهذا الصندوق يحتوي على خمسين الف ريال والـ ألف دينار وحجارة
كرمية يبلغ قيمتها خمسين الف ريال » .

فكاد ارتين يغشى عليه وصاح صيحة فرح عظيمة فتراكض اليه الخدم
ولكنه انتهرهم وطردهم اقبح طرد فتراكضوا من وجهه منذرين .
وبعد ان اقل الباب في اثرهم عاد الى الوصية وقرأ ما يأتي :
« ان هذه الوصية إذا عثر بها نبيل أو شاعر أو رجل من أهل الفنون
الجميلة فلا اهيئه بعرض مكافأة عليه .

« وإذا لقيها لص وكان يحترم إرادة الأموات الأخيرة فليقنع بأربعة
آلاف ريال .

« وإذا لقيها رجل فقير فاني اسمح له بخمسمائة ريال يستعين بها علي حاله .
« ومهما كان الذي يظفر بهذه الوصية فاني الشمس منه ان يقسم مسا في
الصندوق الى قسمين متساويين فيعطي قسماً لولاند وهو يكون أما في
فينيسيا او في مغاور بيافا »

« والقسم الثاني لاينقي ليونور زوجة التياري القائد العام » .
الى هنا انتهت وصية دندولو فلما اتم ارقين تلاوتها نظر الى الجملة نظرة
المؤنب وجعل يمشي في الغرفة وهو يحدث نفسه ويقول :
- اني لا استطيع أن أحسب نفسي من اللصوص فلا يحق لي ان اقبض
اربعة آلاف ريال وأنا مضطر الى ان اعتبر نفسي شاعراً أي من الذين لا
يجب ان يهانوا بعرض المكافأة عليهم .
ولكني اقبل هذه الاهانة ولو قبلت بها فيكم تكون مكافأتي فانها لم تعين
في الوصية .
ثم ضرب جبينه بيده قجأة وقال : اني أعد نفسي من الفقراء ومن عسى
ان يكون افقر مني وأنا من الشعراء .
ولكنه وا أسفاه لم يجد على ذلك الفقير الا بخسائة ريال .. وحبذا لو
كانت دناير على الاقل » .
مسكين يا ارقين لا بد لك من الاكتفاء بخسائة ريال .. ولكن لماذا
المسكنة فاني اتمنى بهذه القيمة ان تمطر السماء منزلي جشاً في كل يوم .
وقد تعزى ارقين بهذا الحاطر وخرج من غرفة الميت فلقي بيريتا وقال
لها : لقد اصببت بمصيبة فادحة يا بيريتا فقد خسرت ثروة عظيمة .
وقد ترك الجثة في موضعها ودخل الى غرفته فجعل يفتكر بما يجب ان
يصنعه فارأتى ان يخبر في البدء التياري بموت عمه ثم يهتم بدفنه إذا إذن له
التياري ان يتولاه ثم يذهب الى ميلانو فيأتي بذلك الصندوق العجيب ثم
يأخذ منه خمسائة ريال ويقسم الباقي الى قسمين حسب الوصية ثم يذهب
بكتاب دندولو الى رولاند .
وهنا لا بد اننا من الثناء على هذا الشاعر فانه لم يخطر له في بال ان
يستأثر بما في الصندوق على شغفه بالمال وما ذلك الا لأنه كان من فحول
الشعراء أي من اولئك الادباء الذين هذبت الآداب نفوسهم فما غرم مال
وما تدنسوا بتقيصه .

الزوجة

وفي صباح اليوم التالي لبس ملابس مقمتة وذهب لانفاذ وصية الميت وقد وضع كتاب دندولو الى رولاند في جيبه فجعل يقول في نفسه : ترى يجب ان أخبر ليونور بما تضمنته رسالة ابنيها إلى رولاند فان هذه الانباء تفيدها ؟

ولكن من يعلم ما يكون بعد ان أصيبت هذه العائلة بذلك اليأس القاتل فقد يحدث اذا اطلمت على الرسالة أمور هائلة تنقض صواعقها على رأسي . وبعد فان الميت لم يمهّد الي بأن اطلمها على الرسالة بل سألني ان اسلمها إلى رولاند فلاحترم ارادة الميت .

وقبل ان يخرج من منزله دخل الى غرفة الميت كي يتحقق ان حوادث الأمس لم تكن حلماً فرأى دندولو ميتاً كما تركه وذهب الى قصر التيماري فتمكن بعد الجدل العنيف من الاذن له بمقابلة ليونور .

وكانت ليونور قد قضت ليلة هائلة فان ما أخبرها به ابوها عما فعله التيماري حول حزنها الى غضب وانتقام فقالت : ان التيار لا يموت الا من يدي ولم تقل هذا القول عن بادرة حدة بدرت منها بل انها كانت عازمة كل العزم على ذلك وهي تعلم يقيناً انها إذا قتلت زوجها كان قتله داعياً الى فراق الأبد فاذا بقي لها بقية رجاء ذهب هذا الرجاء فان جميع أهل فينيسيا يعلمون انها لم تقتل زوجها إلا الاقتراب من حبيبها رولاند من حبيبها رولاند كانديانو .

على ان هذه الفتاة كانت ترجو على قنوطها ان تعود الى ذلك الزمن القديم ولكنها لا تعلم كيف ترجو وعلى أي اساس تبني هذا الرجاء فكان اليأس عظيماً في قلبها إذ كانت تعتقد انها متى قتلت التياري لا بد لها ان تذبح .

وقد تمكن منها فكر الانتحار ولذلك باتت تلك الليلة التي قتل فيها ابوها على أحر من الغضا فبينما كان ابوها يموت في منزل ارتين كانت هي تتأهب للموت ايضاً .

ولما جاء ارتين وطلب مقابلتها امتنعت في البدء ثم أذنت له بالدخول حين ذكرت ان هذا الشاعر قد جاءها بصورة رولاند .

فدخل ارتين اليها وقال لها : اني قادم يا سيدتي بانباء لا بد من اخبارك بها ولذلك اغتفرت انفسى خطأ الاحاح بمقابلتك فان هذه الانباء خاصة بابيك الشهير .

وكان ارتين يتوقع ان تسأله الاسئلة الكثيرة ولكنها سكنت ولم تجب بشيء فقال لها : لقد رأيت اباك يا سيدتي امس في منزلي وقد جاء اليه دون ان يزيد أي انهم جاءوا به الي .

— جاءوا به اليك :

— نعم يا سيدتي وذلك يحملك على الظن انه جريح .

— أنه يدعوني اليه فهل بنا .

— كلا يا سيدتي فتهفضلي بالاصغاء الي فانه مصاب يجرح خطر قاتل .

— بل تريد ان تقول انه مات ؟

— هو ذاك يا سيدتي فقد حملوه الى منزلي وهو بحالة النزاع فلم يستطع

الا ان يعمد الي باخبارك والله يعلم ما ..

فمنعته من الكلام باشارة وقد اصفر وجهها وذكرت ان دندلوا ابوها وانها باتت وحيدة في هذا الوجود فشعرت بخوف عظيم لم تدرك سببه وهي

قادمة على الموت ونظرت الى ارتين وقالت له : لقد قلت ان ابي كان جريحاً .

— نعم لقد فاجأه احمد اللصوص بطعنة خنجر تحت منزلي وسمعت صيحته فاسرعت لنجدته فوجدته ملقياً على الأرض فحملته الى المنزل واسرعت باحضار الطبيب فلم يحده نفعاً وا اسفاه .

— اشكرك يا سيدي على كل ما صنعتته .

— اني لم افعل غير واجباتي وليس هذا كل شيء فان الفقيد الكريم قد عهد اليي بدفنه .

— كلا فان ذلك خاص بي .

— اذن يجب ان انقل الجثة الى هنا ؟

— بل انا اتولى هذه المهمة ايضاً فتفضل برفاقي الى منزلك .

فانحنى أمامها بملء الاحترام وهو قلق اسكونها اذ كان موقنا بان النار تتأجج في صدرها .

وكانت ليونور تعتقد ان اباها قد قتل بيد الثياري أو أحد رجاله فلم يزد هذا ذلك حقداً على زوجها إذ لم يعد يحتمل المزيد وسارت مع ارتين الى الغرفة التي وضعت فيها جثة أبيها فتركها وحدها .

أما ليونور فانها دنت من أبيها فركمت أمامه وأخذت يده بين يديها .

وعند ذلك فتح باب الغرفة ودخل منه رجل والنار تتوهج في عينيه .

وذلك انه بينما كانت ليونور تدنو من جثة أبيها دخل رجل الي منزل

ارتين وهو ملتف بردائه وقد لقي ارتين في صحن الدار فقبض على ذراعه وقال له : اين هذه المرأة التي دخلت بها ادعها الي في الحال .

فصاح به ارتين قائلاً : ويحك هل انت من المجانين أم انك تريد أمر

خدمي فيطردونك بالسياط .

— ويحك لك ايها الشقي اني اقلتك شر قتل إذ لم تمتل .

ولكنك تقدم على أمر منكرا ايها الرجل فان هذه السيدة التي هناك تم
واجبا مقدسا ويجب عليك ان تفعل .

فلم يسمع الرجل مزيدا واسرع الى الغرفة التي أشار اليها ارتين ودفع
بها بعنف فدخل .

أما ليونور فانها التفتت ورأت أمامها زوجها التياري فقالت له : لقد
انتهى بك الأمر إلى ان تراقبني .

فلما رأى التياري جثة دندولو نزع قبعته وتراجع ببطء .
وكان قد رأى ليونور خرجت من القصر وهو يعلم ان رولاند في فينيسيا
فايقن انها ذاهبة اليه أي انها تحاول الفرار فاقتفى اثرها ووصل حين
دخولها .

أما ليونور فانها قالت له : ألعنك ات لتتق من موت ضحيتك ؟
فاجفل التياري وقال : ضحيتي .. اني أقسم لك بان لا علم لي بما حدث
ولكن دندولو قد خان كثيرين من فينيسيا وكنت أكرهه لأنني لم ألق منه
غير السوء ولكنه كان أباك ... كلا يا سيدتي لست أنا الذي قتلته فاجبني عن
قاتله بين الذين خانهم كما خانك وخانني . وأنا الآن ذاهب فلو كنت عالما إلى
اين كنت قادمة لما وافيتك .

وعند ذلك نظرت ليونور الى ذلك الخنجر الذي قتل به أبوها وكان
لا يزال في يده .

ولكنها قبل أن تقبض عليه كان التياري قد انصرف فوقف واجمة
وكلمات التياري ترن في أذنيها حيث قال :

— ان دندولو قد خان كثيرين في فينيسيا فاجبني عن قاتله بين الذين
خانوه .

فجعلت تقول في نفسها ترى أي رجل لقي من خيانة أبي مثل ما لقيه
رولاند .

وقد ذعرت عند ذلك أو خطر لها ان رولاند قاتله وإذا كان ذلك فهل يحق لها أن تلومه.. كلا ولكن القدر قد وضع سداً عظيماً بين هذين العاشقين الذين تحدثت بحبهما الركبان فلم يبق عليهما الا ان تحنني رأسها صاغرة لهذا القدر .

وبعد هنيئة نقلت الجثة الى قصرها وعيدلت موعد الدفن في اليوم التالي أي في اليوم الاول من شهر شباط وأقامت تلك الليلة تحرسها .

وكان خاطر الانتحار قد تمكن منها فجلست أمام جثة أبيها وتاهت في مهامه التفكير .

وبعد زمن طويل التفتت فرأت رجلاً ينظر اليها وكان هذا الرجل زوجها .

فقال لها التياري : اني واقف هنا منذ ثلاث ساعات وأنت لا ترينني وكنت انتظر ان يمسح نظرك علي .. نعم اني اذكر اتفاقنا وهو انك تكتمين سري وفي مقابل ذلك لا ادخل الى غرفتك ولا اكلمك ولكن يجب اليوم ان اكلمك لأن الذي سأقوله امر خطير ولا أدري اذا كنت استطيع الكلام بعد قليل .

قالت له : ماذا تريد أن تقول لي ؟

فارتعش التياري فرسحاً إذ لم يجد في طبعها ما يدل على غضب أو نفور فقال لها : بصوت متهدج اقويدين اذن الاصغاء الي ؟

قالت : انك ما زلت نقضت الاتفاق فاقلفه يجمته وتكلم فاني مصغية اليك .

ومما تجدر ملاحظته ان ليونور لم تكن تأذن له من قبل بمحادثتها لانه كان زوجها أما الآن فقد بات عدوها الذي عزمته على الانتقام منه بالقتل ولا بد من مقابلة الاعداء للوقوف على نياتهم فانها باقت تكرمه الآن فوق ما كانت تحتقره .

فقال لها التتاري: اني أحببت ان أكلمك أمام الميت فان اباك الذي كنت
اكرمه أعده الآن شاهداً مقدساً على ما أقول وأني أقسم بهذا الميت على اني
لا اقول لك غير الحقيقة فاسمعي ؟

اذك تعلمين بأنه ستجري حوادث خطيرة فانك عالمة بمؤامرة الفينيسييين
على الدوج فوسكاري وانهم يريدون أن أكون أنا خلفاً له .

وغداً بعد الظهر سأضع على رأسي تاج فينيسيا إذ لا شيء ينقذ فوسكاري
الآن ولا يوجد من ينازعني السيادة .

فانت الآن في حالة تحسدك عليها الأميرات ولا يبعد أن يكون لك في
وقت قريب لقب ملكة فاني أرجو ان يكون لي لقب ملك .

واقدر نظرت إلى ما حوالي ونظرت الى المستقبل فرأيت أن مجد الجمهورية
ومصلحتها يقضيان بأن يكون الاتقان تاماً بين الدوج والدوجة اتسمعين ما
اقول يا سيدتي ؟

- اني مصغية اليك .

- وقد أتيت أسألك ماذا يكون نهجك حين قدخلين الى سراي الدرج
الذي أقام فيها كثيرون من أجدادك .

- اني انهج نهج امرأة بيعت وأنت اشتريتها أي نهج عبدة تكره
سيدها .

وقد كان يرجو أن يبهرها جلال الملك وان تكون قد ملت عيش العزلة
والانفراد ولكنه رأى من جوابها وسكينتها ان عزيمتها ثابتة لا تتزعزع
فكظم غيظه وغير خطه حديثه فقال :

- انك ترفضين ذلك التاج الذي أعرضه عليك وتأبين أن تكوني تلك
الدوجة التي تحسدها كثيرات من الأميرات الايطاليات فلادع الآن هذه
الابحاث لأعود الى بحث آخر . اتعلمين يا سيدتي من الذي دبر هذه المؤامرة
التي سينفجر بركانها بعد غد . اتعلمين لماذا يقتل رجل فينيسيا ويسفكون

دماءهم في ذلك اليوم ، ان كل ذلك من اجلك نعم اني انا الذي اعسدت المؤامرة ولكن جميع تلك الدماء والدموع لا تسيل لا في سبيل انتصارك فقد خطر لي انك إذا ارتفعت الى العلى لا تتدانين الى خفض النظر وتسنين ذلك الماضي وخيل لي ان الأميرة ليونور سوف تنسى الحقد الذي كان كامناً في صدر مدام التياري .

وانت ترين اني لم أخطر بحياتي ولم اعمل هذه الاعوام الطويلة إلا من اجلك .

على أني سأرجع عن هذه المطامع ما زلت لا تريدان ان تكوني أميرة إذ لا فائدة لي بعد ذلك من منصب دوج .

فلم تجبه ليونور بكلمة ولبثت صامتة كأنها لم تسمع ذلك الحديث فهاج غضب التياري ولكنه كبح جماح غضبه وقال . اسمعي ايضاً فاني اقترح عليك ان نهرح فينيسيا ونذهب الى حيث تشائين ونعيش كما تريدان فنسافر منذ الليلة وادع رفاقي الذين دفعتمهم الى هذه المؤامرة أي كما اني كنت بطلا في سبيلك أصبح جباناً في سبيلك ايضاً تريدان . قولي أتعبلين ؟

— قل لي يا التياري ألسنت أنت الذي وضعت وشاية امباريا في صندوق الوشائات .

— ماذا تعنين ؟

— انك سمعتني فيما اظن فان امباريا كتبت الى مجلس العشرة تقول ان رولاند كانديانو قتل جان دافيليا ألم تكن أنت الذي أملي عليها هذا الكتاب ؟

— كذب وافتراء فاني لا اتداني الى مثل هذه النقيصة .

فمدت ليونور يدها الى جثة أبيها وقالت : الا تسمع يا أبي ما يقول بعد ان اقسام بيمينتك انه يقول الحقيقة ثم التفتت الى التياري وقالت : من منكم

الذي وضع الكتاب في صندوق الوشايات فقد كنتم تأتمرون على قتل رولاند
وكنتم كثيرين؟
— كذب وافتراء فاني لم أشر على امبريا بشيء ولم يوضع كتاب في
صندوق الوشايات .

فقاطعتها قائلة: التياري من الذي أراد الاجتماع بابي في ساحة سانت مارك
بعد اجتماع المؤتمرين بقليل من منزل امباريا .
وهنا أخذت يد أبيها الميت وهزتها بعنف وقالت: تسكلم يا ابي .. استمقي
من سبات موتك وأعد على التياري ما حدثتني به .

فذعر التياري ذعراً عظيماً لانهم كانوا في ذلك العهد يخافون خوفاً شديداً
من أرواح الأموات وقال بصوت ختنتي : نعم نعم اني اعترف بأن كل ما
تقولينه حق فقد كنت خائناً أثماً ... نعم فاني في ليلة خطبتك كنت اسمع
الناس مع بمبو يذكرون اسم رولاند وليونور فتقطع الغيرة قلبي . نعم أنا هو
الذي أغرى المحطية على المتهمة رولاند وأعد تلك الرسالة التي القيت في صندوق
الوشايات . نعم أنا هو يا ليونور ذلك الخائن الأثيم .

على انني لو اضطررت على فعل اكثر من ذلك لأفصلك عن رولاند
لفعلت . واني سأفعل . ما لا يخطر في بال بشر لتكوني لي بل اني أدخل الى
جهم النار واستعين بأبائيسها كي لا تحول قوة في الوجود بيني وبينك .

وقد أهانني رولاند اهانة لا تحملها نفس أبية واضطررت الى المخاطرة
بحياتي وسفك دماء الناس واثارة فينيسيا ولكني لم أفعل ذلك لنيل منصب
الدوج بل للفوز برولاند وانتزاع قلبه من صدره لأفك تحمينه .

وقد هاج غضبه واتقدت عيناه ومشى الى ليونور :
ولكن لبثت واقفة في مكانها تنظر الى جثة أبيها كأنها تستشهد على
ما يقول .

أما التياري فانه ضم قبضتيه ورفع يده كأنه يريد أن يسحقها فالتفتت

اليه عند ذلك وقالت له : أتم جرائمك واقتلني فانك إذا قتلتنني تستريح ولا يبقى حولك من تغدر به .

فسقطت يد التياري وتراجع عنها خطوة وقد هاج غضبه فعمد الى الشتم القبيح واتهمها بكل ما يخجل المرأة ثم قال لها : أما انا فاني حر على الأقل فقد أحببتك ولا أزال أحبك بدون عقل وقد فعلت ما لم يكن يمكن فعله كي تكوني لي وأما انت فقد أحببت سواي ورضيت مع هذا الحب ان تسمي باسمي فاينا أفضل وأينا الخائن اجيبيني ايها الشقية اجيبيني .

قالت : نعم أجيب وجوابي اني عفوت عنك .

— أنت .. أنت تعفين عني ؟

— ألم تقل لي ان رولاند قد عفا عنك ويجب على كل امرأة ان تقتدي بالرجل الذي تحبه .

فقبض التياري على شعر رأسه حتى كاد ينزعه رقال اقتلها ... ولكن كلا .. لا استطيع لاني لا أزال أحبها .

ثم برح تلك الغرفة وهو يقول : لعنتك السماء والارض فانك علة شقائي .

اما ليونور فانها سقطت على كرسي واهية القوى وهي تقول : انه لم يحسر على قتلي فلا بد إذن من ان اقتل نفسي .

وقد دل هذا القول على مبلغ يأس تلك المنكودة فانها لم تهج غضب التياري الا لتحمله على قتلها ولم تحاول قتله لأنها علمت ان رولاند عفا عنه ولذلك عزمت عزماً أكيداً على الانتحار بعد ان تدفن أباه .

وكان مدفن عائلة دندولو في الجزيرة وراء كنيسة فرموز ولا يبعد بيت الجزيرة عنه غير بضع خطوات فذهبت الى ذلك البيت وهي تعلم انه لرولاند فدخلت اليه وذهبت الى غرفتها القديمة فيه فلبست تلك الملابس التي كانت تلبسها ليلة خطبتها فان ملابس العزاري كانت في ذلك العهد عن ملابس

المتزوجات ولعلمها كانت تريد ان تكون الظاهرة كما هي في الحقيقة بل ربما أرادت ان يعلم أهل فينيسيا انها إذا ماتت في غير منزل زوجها فذلك لانها لم تكن متزوجة بل كانت عذراء بل ربما كانت تريد ايضاً ان يعلم رولاند بعد موتها ان كبريائها منعها على ان تقول له :

- اني لا أزال وفية بعمهك واني لا أزال نقية عذراء .

وقد عازمت بعد تلك الليلة ان تنتحر بشرب السم وأقامت تلك الليلة أمام جثة أبيها .

وفي صباح اليوم التالي بعد ان حملت الجثة الى المدفن وذلك في صباح اليوم الأول من شهر شباط تفرق الناس وانصرف التيارات وضباطه فساد السكون الرهيب في قصر التيارات القائد العام .

٧٥

اليوم الاول من شهر شباط

ان هذه الحوادث التي سنقصها منحصرة في يوم واحد وهو اليوم الاول من شهر شباط الذي بات يوماً تاريخياً في فينيسيا .

ولا تجد مثلنا في قص حوادث ذلك اليوم الامثل ذلك الكيماوي الذي لا يعرف مواد الجسم إلا بعد تحليله والنظر في عناصره ثم يعود الى تركيب تلك العناصر وكذلك نحن لا بد لنا من بيان تلك المقدمات التي تؤدي كلها الى نتيجة ذلك اليوم .

ففي صباح اليوم الاول من شهر شباط كان جينارو رئيس البوليس

لا يزال ساهراً الى الساعة الخامسة من الصباح فانه قضى كل ليلته بالامعان والتفكير .

وقد وقف في النافذة وجعل ينظر منها الى فينيسيا والقمر لا يزال مشرقاً في سماءها وقد اصفر وجه النجوم لقرب بزوغ الفجر .

ولكن جينارو لم يفكر بهذه النجوم وقد اغلق النافذة وهو يقول : ان الهواء بارد ولكنه سيهب سخناً بعد بضع ساعات ويكون اليوم هائلاً . وعند ذلك دخل الى غرفة كان فيها كثيراً من الملابس المختلفة يستعملها للتذكر فبالبح بالتذكر وابتسم ابتسام المعجب بنفسه وهو يقول : اني لا أكاد أعرف نفسي .

وقد تنكر بملابس الحجاب المقيمين في سراي الدوج وبرح منزله من باب خاص لا يخرج منه سواه .

وبعد هنيهة وصل الى جوار سراي الدوج فلقى فرقة واقفة هناك من الجند فاجتازها ودخل الى الدوج بفضل كلمة السر الذي لقنه اياها الدوج نفسه فكان يستطيع ان يدخل اليه متى شاء .

وقد لقي القاعة فارغة فجعل يناجي نفسه فيقول : هوذا اليوم العظيم التي تحتفل فيه فينيسيا بتزويج الدوج من الادرياتيكا ولكن ترى من الذي سيكون الدوج التياري أم فوسكاري أم كانديانو ؟

على أنه مهما يكن المنتصر فان أعماله سائرة على محور الفوز وكل من ينتصر من هؤلاء الثلاثة انتصرت معه فاذا فاز فوسكاري فهو لا بد له مني وفوق ذلك فقد وعدني وعداً أكيداً وسيكون أول ما يرضيه حين عودته إلى السراي أمر تعييني رئيساً لديوان التفتيش .

وأما التياري فقد خدمته أجل خدمة حين أخبرته أن يوجد كانديانو وهو لم ينجح ولكن ذلك لا ينقص قدر الخدمة وفوق ذلك فهو يعلم يقيناً اني واقف على سر المؤامرة وانني أستطيع عند الاقتضاء ان ابرهن له عن

ذلك فهو اذن يثق من اخلاصي ولا يبخل عني بهذا المنصب إذا فاز وقد بقي كانديانو فاني أطلعته على نيات فوسكاري وعلى ما يصنعه التيماري ورفضت رفضاً باتاً ان اقبض عليه في حين ان ذلك كان من واجباتي فلا ريب عنده باخلاصي .

ونعم ان رولاند قال انه سيلغي منصب ديوان التفتيش ولكني استطيع اقناعه أنه لا بد لفينيسيا من هذا المنصب وهو من أهل العقل وسيحفل بهرايني .

وخلاصة ما تقدم اني أخلصت لكل واحد من هؤلاء الثلاثة وخلت كل واحد منهم وبات كل واحد منهم يعتقد اني من المخلصين في خدمته فليتنازعوا الملك وليقتلوا عليه ما يشاؤون إذ لا بد لواحد ان يفوز ولا بد لي أن افوز الفوز العظيم فانهم والحق يقال لا يشتغلون لأنفسهم بقدر ما يشتغلون لي . وقد جعل يضحك حق سمع خطوات فوسكاري فانقطع عن الضحك ودخل الدوج فلقية جالساً في قاعته .

ولم يعرفه الدوج في البدء حتى عرفه بنفسه فسأله قائلاً : لماذا هذا التنكر ؟

قال : لأنني أبلغت التيماري بأني غائب عن فينيسيا فلا يجب أن يراني وبهذا اللباس استطيع أن أكون دائماً بجانبك .
- ولكن لماذا أبلغت التيماري انك غائب عن فينيسيا ؟

- لأنهم إذا علموا بوجودي في فينيسيا قد يغيرون خطة المؤامرة لخوفهم مني وإذا علموا اني غائب يطعمثون ويبقون الخطة على نفسها .

فأعجب فوسكاري به وظهرت عليه علائم الاطمئنان فسأله قائلاً :

ألم تعلم شيئاً عن رولاند ؟

- كلا يا مولاي .

- اذن ليس هو في فينيسيا .

- أوكد لكم انه لغاية امس لم يكن هنا . وقد قال هذا القول دون أن يكون كاذباً وسيعرف القراء لماذا .
- على ذلك لا يكون هناك الآن ؟

- من يعلم يا مولاي فان هذا الرجل عجيب في سرعة انتقاله فبينما نحسب انه في فينيسيا تجد انه في رومه يقتل امباريا وبينما هو في رومه يتصل بنا انه في مقاور بيافا يجري أموراً لا تعلمها وبينما نعتقد انه هناك قد تجده بعد ساعة في ليدو .

- وأي شأن له في ليدو ؟
- أظن أنه عالم بما سيحدث .
- كيف عرف ؟

- من يعلم فأني أقول ما أقوله على سبيل الظن والذي اظنه أنه إذا كان عارفاً بما سيحدث فلا بد له أن يحضر .
- وأية غاية له من الحضور ؟

- أنه يكره التياراتى كرهاً لا أحد له والذي اراه أنه يريد احباط مساعييه بحيث انه سيكون نصيرك اليوم بالرغم عنه .
- نعم ان ذلك معقول وانما يفعله كي يبقى له عدو واحد بدلاً من اثنين .
- هو ذاك .
- هل أتممت معاداتك ؟

- نعم يا مولاي فان ساحة سانت مارك قد احتلتها الجنود بأمرك وجميع عمالي وجواسيسي في مراكزهم على جميع الطرقات التي يسير فيها الموكب وقد صدر اليهم الأمر بالالتفاف حولك كلما تقدمت بحيث أنك حين تبلغ الرصيف تجد جميع جواسيس المدينة محيطين بك وكل واحد منهم مسلح بخنجر وغدادة .
- حسناً يا جيمارو .

— وفوق ذلك فقد وزعنا كثيراً من المال على الشعب كي يهتفوا لك حين مرورك وأخذت فرقة من الجنود فقسمتها الى فرق فرقتهما في المدينة فاذا بلغت الساعة العاشرة ودق جرس سانت مارك زحفوا كلهم الى سراياك وهم يهتفون فيصلون اليها حين تفصل .

— حسناً فعلت يا جينارو .

— أما الذي سيحدث في ليدو فقد خصصنا زورقاً جميلاً مزيناً للملك الى سفينة الأميرال التي تجري الحفلة فيها .

وأنت تعلم يا مولاي انك إذا ذهبت إلى هذه السفينة بت أسير التيارات لأن جنوده فيها ولكنك حين تصل الرصيف تشير الاشارة الخاصة بدلاً من ان تركب الزورق فينقض المخلصون لك بمخناجرهم على زعماء المؤامرة المحيطين بك ويقتل كل منهم الزعيم الذي أمر بقتله وتطلق السفينتان الملاصقتان لسفينة الأميرال نيرانها على تلك السفينة بحيث يكون الفوز مضموناً فتعود الى سراياك فائزاً منتصراً وقد قتلت زعماء المؤتمرين على غرة وأرعبت قلوب الآخرين .

— حسناً فعلت يا جينارو فانتظرني لالبس ملابسني .

وكان جميع موظفي الحكومة قد اجتمعوا في السر وبينهم التيارات فحين رئيس التشريفات موقف كل منهم في الموكب وتجمهر الشعب في الخارج .

وبعد هنيهة فتح باب القاعة الكبرى وخرج منه فوسكاري بملابسه الرسمية وقد وضع التاج على رأسه وتقلد حسامه المرصعة قبضته باليدواقبت والآلئىء ولبس ذلك الوشاح الكبير فكان يحمل ذيله الطويل اثنان من الخدم وقد دخل الى تلك القاعة العظيمة يتقدمه رئيس التشريفات ووراءه ستة من الحجاب فالدوج وستة حجاب من ورائه فأهل منزله وفي الختام أربعون جندياً .

فاحدقت به العميون كالنطاق ومشى الى وسط القاعة بلاء الجلال فصاح
التياري قائلاً : ليحيى الدوج .

فردد الجميع الهتاف وتنبه فوسكاري للمهاتفين فرأى ان معظمهم كانوا
ينظرون الى التياري .

وبدت عند ذلك التهنئات بينما كان التشريفاتي يعين لكل مكانه في
مكانه في الموكب ما خلا التياري فقد أراد الدوج ان يكون بجانبه .

فلما تمت هذه المعدات دقت اجراس سانت مارك فكانت إشارة الى
سير الموكب .

وخرج الموكب من السراي فكان جينارو أحد الذين كان يحملان ذيل
رداء الدوج فكان ينظر نظرات تشف عن القلق الى الشعب وفوسكاري
والتياري :

وقد اجتاز الموكب نصف الطريق دون حادث حتى بلغ الى طريق
ضيقة فتوقف عن المسير ورفعت القبعات جميعها عن الرؤوس واصفر وجه
التياري وذلك ان موكباً آخر قد اعترضه مؤلف من الرهبان والكنهنة
ووراءهم نعيش دندولو وليوفور في أثره .

حتى إذا مرة الجنازة نظر كل من فوسكاري والتياري الى خصمه وهو
يقول : ترى على من يكون منا شؤم هذه الجنازة ؟

٧٦

رولاند كانديانو

في الليلة الأخيرة من شهر كانون الثاني كانت مغاور بيافا وضواحي
المغارة السوداء متلاثلة بأنوار المشاعل .

٣٢١ (عشاق فينيسيا - ج ٢ - ٢١ م)

وحول هذه المشاعل جمهور من الناس يبلغ عددهم خمسمائة رجل وكلهم
تلباس أهل الجبال .

وكل منهم قد اسند يده الى بندقيته ووضع غدارتين في حزامه وتقلد
خنجرأ .

وقد اجتمعوا بشكل هلال ووضعت أمامهم منصة عالية تشبه منبر
الخطاب .

فصعد اليها رجل كانوا ينظرون اليه نظرات الاعجاب والحب فان هذا
الرجل كان رولاند .

وكان رولاند يخطب فيهم فيقول : لقد اصبحتم الآن رجالاً لأنكم تعلمتم
ان واجبات الرجال ليست قاصرة على حماية الضعيف بل على اضعاف
القوى ايضاً .

إذ أية ضمانات لحماية الضعيف بوجود القوة فانها ما زالت موجودة فلا بد
من توالي الثورات فخير طريقة لحماية الضعفاء اباداة الاقوياء .

وإذا قيل لكم ان الاقوياء قد تكون صدورهم عواطف رحمة وعدل كانوا
كاذبين .

فان المرء لا يشتد خطره ويكثر شره إلا باشتداد قوته فالقوة هي مصدر
الشر .

هذا الذي عرفتموه وصرتم به رجالاً ولذلك ارفض تلك السلطة التي
أردتم ان تسلموني اياها .

فاذا أتيح لنا النصر اتولى الادارة العمومية ستة أشهر وأكون دوجاً
بالاسم لا بالفكر وأفرغ جهدي لتعليم شهب فينيسيا معنى الحرية الحقيقية
فمحق عرفوا انهم لا يحتاجون في سعادتهم الى رؤساء ودعتهم وداع الأبد .

وهنا سكنت رولاند ونحن لا نتولى نقد قوله بل ندعه الى القاريء
ونكتفي برواية ما حدث .

ولا شك ان سامعيه كانوا يرتأون رأيه إذ لم يخطر لأحد أن يشنيه عن
عن عزمه على تولي الرياسة ستة أشهر على ان المستقبل يخلف الظنون ولكن
رولاند كان يقول ما قاله بلء الاخلاص .

وفي كل حال فان هذه الأقوال لم توحها اليه المبادئ الفلسفية وحدها بل
كان لليونور يد فيها .

وذلك ان حبها كان يتجسم في قلبه في كل يوم وهو في كل يوم يزيد قنوطاً
من لقاءها إذ لا يمكن ان تكون زوجته .

ومن هنا تولد يأسه ولم يعد يكثر للحياة إذ لم يجد نعيماً فيها .
ووطد النفس إذا انتصر على تولي الساطة الى ان يتمكن من سحق قوة
الظالمين ثم يذهب إلى حيث لا يعود .

هذا ما كان يفتكر به حين كان يخطب بالقول فلما نزل عن المنبر ذهب
الى المغارة السوداء .

وهناك اجتمع الزعماء فعين لكل منهم المهمة الخاصة به في يوم أول
شباط .

وتعين على كل منهم ان يسافر في الليلة نفسها الى فينيسيا برجاله فيذهبون
اليها في طرق مختلفة ويجمعون في مكان معين .
وكان قد أرسل منذ أسبوع الف رجل إلى فينيسيا بحيث بات عدد
اولئك الذين كانوا من اللصوص الف رجل .

وهذا عدد رجاله الذين سيحاربون غير انه كان له أضعاف هذا العدد في
فينيسيا من البحارة والعمال والتجار الذين عملوا على نصرته بالسر وانتصروا
ذلك اليوم العظيم .

وكان لرولاند الشعب ولالتباري الجند وفوسكاري موظفو الحكومة .

ولما انتهت الجلسة في المغارة السوداء برح اللصوص الجبل وعزم رولاند
على الذهاب الى فينيسيا فالتفت باحثاً بنظره عن رفيقه الامين .

فاسرع سكالابرينو اليه وقال له : هوذا أنا يا مولاي .
 قال : إذن هلم بنا الى فينيسيا فقد آن الأوان .
 فقال : اني أحب قبل ذلك ان اكلمك يا مولاي .
 قال : ماذا؟
 قال : صبراً الى ان ينصرف جميع إخواننا .

- ٧٧ -

الوداع الأخير

ولما انصرف الجميع قال له رولاند : تكلم الآن :
 قال : مولاي اني أريد أن أودعك الوداع الأخير .
 فارتعش رولاند وقال له : ماذا تعني ؟
 - انك يا مولاي عيئت لكل زعيم مهمة إلا أنا ..
 ولكنك تبقى بجانبى فلا تفارقني وهذه هي مهمتك :
 فأجابه بلهجة ملؤها الحنو قائلاً : دعني اقم حديثي يا مولاي فاني عيئت
 لنفسى مهمة وأنا أتمس منك ان لا تسألني عنها ولا بد لي لانفاذها من ان
 افارقك الآن .
 فحدق رولاند به وقال : اتقسم لي يا سكالابريو انك لا تريد الانتحار .
 فارتعش سكالابرينو ولم يجب فأخذ رولاند يده وقال له : أرى انك قد
 يأسست من الحياة ايها الصديق .
 قال : هل تجسر يا مولاي أن تقول بأنك لم تيأس منها انت ايضاً فقد
 كنت لصاً شقيماً لا عاطفة لي ولا ضمير فجعلتني رجلاً وعلمتني أن أفتكر أي
 ان أشقى فلما عرفت بيانكا خلت ان أبواب النعيم قد فتحت لي وكان ذنبي
 الوحيد اني عودت نفسي على عبادتها .

أما الآن وقد عادت روحها الكريمة الى مبدأها فلا أنكر عليك اني سأمت الحياة .

ولكن لا تظن اني أحاول الانتحار فقد علمتني ان الانتحار ضعف وفوق ذلك فان وجودي معك خير بلسم لجراحي وخير عزاء لي عن فقدت فتق اني لا ابغى الإنتحار ولكني نهجت لنفسي خطة اظن اني سألقي فيها الموت ولهذا أردت وداعك الوداع الأخير لاعتقادك أني سأموت .

— ما هذه الخطة التي نهجتها ؟

— التمس منك يا مولاي ان لا تسألني عنها .

فاطرق رولاند هنيهة مفكراً ثم قال له : اتقسم بأن تعود الي إذا سلمت من الموت ؟

— اقسم لك على الامتثال والآن فاصبح لي أودعك فلا بد من ذهابي لأصل قبل فوات الأوان .

وعند ذلك تقدم لمصافحته وكانت المرة الاولى التي بدا فيها يد يده الى رولاند .

ففتح رولاند ذراعه وعانقه عناقاً طويلاً وكلاهما يبكي لاعتقاده أنه الوداع الأخير ثم أفلت سكالابرينو منه وانطلق راكضاً كأنه لم يطق هذا الوداع .

أما رولاند فانه خرج من المغارة مطرقاً مفكراً فلاقى رجلاً ينتظر بجواد فامتطاه وسار به ينهب الأرض .

وأما سكالابرينو فانه كمن وراء صخرة الى ان خرج رولاند فجعل يتبعه بالنظر حتى توارى عن نظره فتنهد تنهداً طويلاً وذهب الى تلك الصخور التي دفنت تحتها ابنته بيانكا فجعل يطوف حولها وأقام مدة وهو ينظر الى تلك الأزهار النامية على ضريحها .

ثم ركع وجعل يقبل تلك الصخور والأزهار وهو يبكي بكاء اليماً وبعد ذلك نهض فجأة وبرح ذلك المكان دون ان يحسر على الالتفات فوصل الى

فينيسيا في آخر كانون الثاني وذهب الى أحد فنادق ايدو فطاب زجاجة من الخمر وأقام ينتظر .

وفي الساعة التاسعة جاءه رجل بملابس البحارة فقال له : لقد جئت في الزمن المعين .

قال : نعم وانت هل احضرت المال ؟
فأعطاه سكالابرينو منطقة محشوة بالذهب فلبعت عينا البحار وقال له :
حسنًا فاتبعني .

فقام سكالابرينو في أثره وقال له : كيف يجب ان تفعل ؟
قال له : تعال معي وسوف ترى :
وقد سار البحار الى منزل وهناك اعطاه ثوبا من ملابس البحارة يوافق جسمه كان قد أعد له خاصة .

فلبسه سكالابرينو وقال : متى يركب الجنود الزورق ؟
قال : عند الفجر .
قال : إذن كيف نصنع ؟

قال : لا تهتم بذلك وقل نفس ما اقله أو لا تقل شيئًا و لأن هلم بنا قبل فوات الأوان .

وبرح الاثنان ذلك المنزل الى الشاطئ فركبا زورقًا وساروا به الى جهة سفن الحكومة .

وبعد ربع ساعة أشار البحار الى سفينة ضخمة وقال له : هذه هي سفينة الأميرال .

فوضع سكالابرينو يده على كتفه وقال له : اقبل مني هذه النصيحة ايها الصديق وهي انك حين تصعد الى سفينة الأميرال ارجع منها الى البر ولا تعود اليها .

فضحك البحار وقال : اشكرك لهذه النصيحة فقد كنت عازماً على ان
انصحب بها نفسي وسأعمل بها دون شك لأنني اتوقع حدوث ما سيكون .

وكان هذا البحار من جنود سفينة الأميرال فصعد بسكالابرينو وهو
متنكر بملابس جنود البحارة الي السفينة وقال الاثنان كلمة المرور فلم
يعترضها أحد .

أما سكالابرينو فقد كان خدماً مدة طويلة في إحدى السفن الكبرى
بحيث كان ابن الصناعة فذهب توا الى الموقف الذي اختاره كأنه من بحارة
تلك السفينة وكان رفيقه يتبعه فقال له وقد خلوا : اتأذن لي ايها الرفيق
ان أعلم عما تنويه فهل انت ناظم على زعيم تريد قتله ؟

قال : هو ذاك فاني كنت يجاراً في إحدى بواخر الحكومة وقد عاقبني
أحد ضباطها ظمناً عقاباً صارماً إذ جلدي بالسياط فعرفت الآن أنه في هذه
السفينة ورأيت أن انتقم منه .

قال : حسنناً تفعل ولكنهم إذا علموا بأني أنا الذي جئت بك شقوني
دون شك .

قال : لا تخف مني الافشاء وفوق ذلك فانك غني الآن بما اعطيتك
وستهرب .

قال : هو ذاك والآن استودعك الله وأرجو لك التوفيق فان ظلم هؤلاء
الرؤساء لم يعد يطاق وعند ذلك تركه وعاد من السفينة الى زورقه فلما توسط
البحر رأى سفينة كبيرة سائرة الى سفينة الأميرال .

أما سكالابرينو فقد أقام وحده يراقب فرأى بعد هنيهة قدامك السفينة
الكبرى قد التصقت بسفينة الأميرال وصعد منها رجل فقال لأحد الضباط

جلهجة السيادة سر بي إلى غرفة الأميرال فتمعن الضابط بوجهه وعرف انه
التياري القائد العام فاسرع الى الامتثال وذهب به الى الأميرال .
وقد خلا الاثنان ساعة وعند الفراق صافحه الأميرال وهو يقول : سأبدأ
العمل قريباً .

ولما انصرف التياري جمع الأميرال ضباطه وأخبرهم بما يجب ان يفعلوه
فاسرع المضباط الى ايقاظ البحارة واضطربت السفينة بهم فكانت الأوامر
تنقل اليهم همساً .

ثم رفعت المراسي ونحرت السفينة المصاب حق بلغت إلى الشاطئ في
الساعة الرابعة من الصباح دون ان تلتبه السفن الحربية اليها .
وهناك صعدت الجنود اليها ولم يلتهموا من ذلك إلا في الساعة الخامسة .

٧٨

الدوج القديم

لقد تقدم لنا القول ان موكب فوسكاري التقى بجنازة دندولو وان
ليونور كانت تسير وراء الجنازة بملايس الحداد .
فبعد ان دفنت الجثة وتفرق الناس عادت ليونور الى قصر زوجها وهي
تسمع هتاف الناس لالتياري فيشتد بأسها وتصح عزيمتها على الانتحار .

وهناك خرجت سرأ من القصر وذهبت الى بيت الجزيرة فلقيت هناك
خادمهم القديم فيليب وقد أسرع اليها وهو فرح بلقائها وقال لها : هذا انت
يا سيدتي ؟

قالت : نعم فهل تريد أن تأتني مفتاح غرفتي القديمة ؟
فدهش الخادم المعجوز لقولها وقال : أأتملك ؟

قالت : نعم فان المنزل لم يبق لنا كما تعلم .

فاضطرب الشيخ وقال : ولكنك تعلمين يا سيدتي ان المنزل لك ما زال له .

ثم تركها مسرعاً وعاد بالمفتاح فأخذه ودخلت إلى غرفتها فوقف الشيخ يراقبها وهو يكاد يذوب حناناً عليها وقد رأى في عينيها من دلائل اليأس ما رآه فوقف يتمعن في أمره وهو لا يعلم إذا كان يحق له المداخلة في شأنها .

ولكن قلقه اشتد عليها حتى لم يعد يكثر الواجبات فأسرع راجعاً إلى الأرزة الكبرى فأخرج من كهفها والد رولاند وجاء به إلى قاعة الطعام فاقامه فيها وصعد إلى غرفة ليونور فقرع باب الغرفة وهو يقول : هذا أنا يا سيدتي .

ففتحت ليونور الباب ولكنها اسرعت إلى إخفاء زجاجة في صدرها وقالت له برفق : ماذا تريد ؟

وكان قد رآها قد خبأت الزجاجة فارتعش وقال لها بصوت يتهدج : ماذا فعلت يا سيدتي ولماذا لبست ملابس العذارى ؟
قالت : أذه خاطر خطري فلا تقلق له .

قال : سيدتي لماذا خبأت زجاجة السم في صدرك ؟
فلم تجبه على سؤاله وقالت له أيضاً برفق : ماذا تريد ؟

قال : يوجد رجل في قاعة الطعام يريد أن يكلمك وهو رجل شيخ نبيل كان يحبك من قبل كابنته .

— كأبنته ؟

— سيدتي اني في خدمة بيتكم النبيل منذ خمسين عاماً ومن خدم هذا العهد الطويل يستحق المكافأة وكل ما آمله من المكافأة ان تقابلي هذا الرجل .

وقد بسط يديه شأن المتوسل وقد سالت دمعته من عينيه فتأثرت
ليونور لحنوه وقالت له : هلم بنا .

ولا ندرى ما كان يرجو الخادم المعجوز من هذه المقابلة ولعله رأى من
الدوج القديم بارقة صواب فرأى ان يثنىها عن عزمها .

ونزل الاثنان حتى وصلا الى قاعة الطعام فلما رأت ليونور والد رولاند
عرفته للفور وقالت : من هذا والد رولاند .. كلا اني لا أريد أن يراني .

ولكنها ذكرت للحال انه أعمى فدننت منه ووقفت أمامه وذكرت أيامها
الماضية وما كانت تجده من حنو ذلك الشيخ ثم ذكرت تلك المصيبة الفادحة
فجعلت تشفق بالبكاء .

وقد ارتعش الشيخ لبكائها وقال : من هذا الذي يبكي ؟

فركت ليونور أمامه وأخذت يده بين يديها وقالت له بصوت مخنق :
أنها فتاة قانطة منكودة لا تراها ولكنك رأيته من قبل يا مولاي الدوج
ألا تذكر ليونور دندولو يا مولاي وانك كنت ترتعش حنواً حين تقبل جبينها
ألا تذكر ما قلته لها يوماً وهو ان هذه الفتاة حلفت لتكون سعيدة إذ
فاعلم ان هذه الفتاة الشقية التي تبكي أمامك هي ليونور دندولو .

فقال لها : من هذا الذي يدعوني دوجاً .. أنا دوج .. ما هذا المزاح .

فلم تذب ليونور لهذا القول ومضت في حديثها فقالت : ابي انك لا تعلم
المصيبة التي نكبته فانهم إذا أعموا نظرك فقد أعموا نفسي واحرقوا قلبي
ومنعوني أن أحب .

انك لا تعلم أي عذاب اقاسيه حين أحبه حباً ليس وراءه حب وهو
يحتقرني ولا يستطيع ان أبرهن له بانني جديرة به وان خطأي الوحيد انما
كان لأنني أردت أبي . مولاي الدوج اني غير مخطئة وقد عذمت على الموت
ولكني قبل أن أموت أحب أظهر له براءتي .

فأصفر وجه الدوج وارتجفت يده وقال : من هذا الذي يبكي .. من هذا الذي يتكلم بلهجة تقطع القلوب من الأسفاق .

— انها ليونور يا مولاي الدوج .. ليونور التي كنت تدعوها بابنتك أملكك نسيتها .. أتدسني وأنا أرجو أن تباركني البركة الأخيرة ذلك ان ليونور كانت تجهل انه مجنون فقال : ليونور .. ليونور دندولو نعم أذكر ان هذه الفتاة جميلة عاقلة .. نعم لا بد أن أكون عرفتها .. أنقولي أن ليونور دندولو أصيبت بنكبة .

فصاحت صيحة يأس وقالت : اقول انها تبكي عند قدميك وانها عازمة على الانتحار .. اقول ان الأرض والسماء ظالمتان لأنهما يعاقبان البراءة ولأنني أعاقب بذنوب سواي .

قال : ليونور دندولو .. اصبري .. ألم تكن تأتي من عهد بعيد الى قصر كاثن على الشاطئ .. نعم قصر جميل كان يأتي اليه كثير من الذبلاء .

— أنه قصر ك يا مولاي .. ربه كيف لا ترسل صواعقك فتنقض على رؤوس أولئك الذين نكبونا بهذا المصائب .

وعند ذلك سمعت صوتاً أجش يقول من ورائها ، لقد فات الأوان ولم يبق سبيل للعقاب .

فالتفتت ليونور منذرة فرأت التياري ولكنها لم تره بشكله المعروف فقد كان مصفر الوجه ممزق الملابس بارز العيين مضطرب الاعضاء فدنا من ليونور وقال لها : انك تريد ان تموتي فهلمي ولكنك ستكونين لي قبل الموت .

فتراجعت ليونور منذرة واصطدمت بالدوج فضمها الى صدره فقالت له : نعم يا أبي أريد ان أموت ولكي لا أحب ان أخجل بموتي معه احمني يا مولاي ودافع عني . الى .. الى انقذوني من انياب هذا الوحش .

انتصار فوسكاري

بعد أن مرت جنازة دندولو سار موكب فوسكاري الى رصيف ليدو
فكان فوسكاري كل ما تقدم يشهد قلقه وذلك ان الناس كانوا يهتفون له في
بدء السير فلما تقدم انقطعت اصواتهم وساد السكون من حوله.

ثم سمع هذا الهتاف قد استبدل فجعل الناس يهتفون للقائد العام ويدعونه
مؤقت الجمهورية بعد ان كانوا يهتفون لفوسكاري .

فالتفت إلى التيارات الذي كان يسير بجانبه وقال له : يخال لي انهم
يهتفون لك .

قال : ان الشعب يخطئ يا مولاي في بعض الأحيان .
فالتفت عند ذلك إلى جينارو وقال له مسأ : ماذا تقول ؟
قال : اني اضمن الفوز الأكيد إذا حافظت للنهائية على السكينة .

— وماذا جرى للفرقتين الخاصتين بالتياري ذ

— انهما في سفينة الأميرال .

— ولكنهما قد تعودان ؟

— ذلك محال فان سفننا محاطة بسفينة .

— انك مسؤول عن ذلك .

— دون شك .

وبعد هزيمة وصل الموكب الى الرصيف فصاح فوسكاري صيحه غضب

ذلك انه رأى سفينة الأميرال ملاصقة للرصيف ورأى الفرقتين واقفين بأسلحتهما على البر .

فدنا عند ذلك التياراتي منه وقال له بلمهجة تدل على التهمك والثقة من الفوز : اننا أحببنا يا مولاي ان نوفر عليك مؤونة الذهاب الى سفينة الأميرال فجاءت سفينة الأميرال اليك .

فجرد فوسكاري خنجره وهو يقول : يا للخيانة يا للعار .

بينما كان فوسكاري يسير بموكبه الى رصيف ليدر كان كلما تقدم الموكب الى محطة تحتل عصابة تلك المحطة التي برحها كأنها تحاول أن تقطع عليه خط الرجعة إلى سراي الدوج .

وكانت هذه العصابات مؤلفة من رجال لا يعرفونهم في فينيسيا وهم مدرعون بدرع خفية تحت ملابسهم وقد لبسوا في رؤوسهم خوذاً صفراء : وكانوا مدججين بالسلاح فكان أشد هذه العصابات أقرها إلى سراي الدوج ولا يتجاوز قدر رجال العصابة خمسين رجلاً ما خلا ثلاثاً كانت تؤلف الواحدة منها من مائة رجل .

وقد أتت فجأة عصابة من ثلاثمائة رجل وهجمت على سراي الدوج فانتصرت على الجنود التي بقيت لحراستها واستولت على السراي .

وللفور دخل خمسة منهم الى قاعة مجلس العشرة وجلسوا على كراسيه وذهب ثلاثة آخرون الى قاعة الجلسات السرية وقد جرى كل ذلك بسرعة وجراحة فادرتين وذلك لأن هذه العصابات كانت موطدة نفسها على الموت .

ثم ان هذه الخطة كانت قد درست درساً مدققاً فليقت هذا الفوز العجيب وهذه العصابات كانت لرولاندي كانديانو .

أما خطته فقد كانت على أتم البساطة وهو أنه يدع فوسكاري والتياري يشتبك بالقتال في ليدو فيضعفان أو يبديد أحدهما الآخر .

ومضى عاد الغالب منها الى سراي الدوج يعود ضعيفاً منحنط القوى فيهمهم عليه رولاند برجاله ويفوز عليه لا محالة مهما بلغت قوته .
وكان رولاند قد جعل يطوف في المدينة يصحبه خمسة من رجاله وقد لبس تلك الملابس التي كان يلبسها في عهد أبيه حين كان دوجاً وقد برز وجهه للناس فعرفته في البدء إحدى النساء فصاحت قائلة أيها الناس هوذا رولاند كانديانو قد عاد اليكم لينقذكم من المظالم .
فلم تكن غير لحظة حتى اجتمع الناس من حوله وجعل يهتفون هتافاً بلحن عنان السماء فيقولون ليحيى رولاند كانديانو .. ليحيى رولاند القوي .

وبعد ربع ساعة كان خبر قدومه قد ملأ فينيسيا فازدحمت الجماهير من حوله وكلهم يهتفون له ويدنون منه كأنه ولي من أولياء الله يريدون أن يتبركوا به .

وعند ذلك سمع دوي البنادق من ليدو فان القتال كان قد نشب بين فوسكارى والتيارى ودقت أجراس الكنائس وأسرع نحو مائة رجل الى رولاند فحملوه ووضعوه في مكان مرتفع فصاحت النساء قائلة تكلم .. تكلم وصاح الرجال قائلين انقذنا .. انقذنا .

فأشار بيده إشارة سكنت لها الجميع فقال لهم بصوت جهوري: أريدون الحرية .. أم الاستعباد ؟
فصاحوا قائلين : الحرية الحرية .

قال : أريدون ان تجعلوني حارساً لحريتكم ؟
فصاحوا قائلين : نعم نعم نريد رولاند القوي .. رولاند دوج الشعب .
فأشار رولاند إشارة مفادها أنه رضي بما يرضاه الشعب .
وكان هذا كل خطابه فيهم فنزل عن ذلك المكان المرتفع وقد عقد اتفاقاً بينه وبين الشعب وزحف الى سراي الدوج .

والآن فاعلموا ما جرى في سفينة الأميرال ان سكالابرينو حين صعد اليها كان البحارة نياماً ولم يكن ساهراً فيها غير الأميرال وبعض الضباط . فبعد أن برح التياراتي السفينة نزل سكالابرينو الى العنبر وهناك أخرج مصباحاً صغيراً من جيبه الكبير فأثاره وجعل يبحث في عنبر تلك السفينة المتسع .

وبعد ذلك سمع من فوق رأسه وقع خطوات مستعجلة فصبر وجعل يصغي وهو آمن مطمئن إذ لا شأن لأحد في العنبر فسمع انهم يرفعون المراسي وسمعوا اصواتاً تقول الى البر .

وكان في هذا العنبر غرفة مقفلة تستعمل مستودعاً للبارود فصبر الى ان سارت السفينة وشغل بحارتها بسيرها فأخرج خنجره وكسر به قفل ذلك الباب ودخل الي الغرفة فرأى نحو خمسين برميلاً من البارود وضع بعضها بجانب بعض ففتح ثقباً بأحد هذه البراميل فتدفق منه البارود .

وعند ذلك أخرج من جيبه فتيلاً خاصاً يبلغ طوله مترين فوضع أحد طرفيه في ثقب البرميل وأمسك الطرف الآخر وقال في نفسه : اني وعدت رولاند ان لا اقتل نفسي وثار الفتيل لا تصل الى البارود قبل دقيقتين وعند ذلك جلس القرفصاء وأقام ينتظر .

وكان على هذه الحالة والمصباح بيده معداً لأحراق الفتيل وهو يصغي حتى سمع اصواتاً تقول : الى البر . الى البر . فاشعل الفتيل بنور المصباح وصعد الى ظهر السفينة بملء الاطمئنان بينما كان فوسكاري يقول : يا للخيانة يا للعار .

وقد قال فوسكاري هذا القول وجرد خنجره فكان أول ما فعله انسه هجم على جينارو مدير البوليس وطعنه به .

فسقط جينارو على الأرض وهو يقول : لقد قتلت دون أن يبدي حراكا .

ولكن لو دعا أحد منه في تلك الساعة واصغى الى حديثه لسمعه يقول : لقد حسبت ايها الأبله انك قتلتني ولكني قد نجوت منك بفضل هذا الدرع ولرآه ينظر خلسة الى ما يجري حوله .

أما التيماري ورجاله فانهم جردوا خناجرهم حين رأوا ما كان من فوسكاري مستنجداً بالنواب قائلاً : الي فانهم يريدون قتل الشريعة وإبادة الحرية .

فأجاب التيماري قائلاً : بل انهم يريدون قتلك إذا امتنعت عن التسليم . فنظر فوسكاري الى ما حواليه فرأى ان المؤتمرين قد اشتبكوا بالقتال مع جنود فوسكاري ودوى رصاص البنادق من الجانبين فأشار التيماري الى جنود الفرقتين الكائنتين في سفينة الأميرال وصاح بهم قائلاً : انزلوا الى البر .

فتجمعت الجنود لقوله واندفخوا الى الجسور الخشبية التي وضعت بين السفينة والشاطئ .

وعند ذلك سمع دوي هائل ارفع له الفضاء وفتحت سفينة الأميرال كما تفتح فوهة البركان وتصاعد عمود طويل من النار والدخان ثم تساقطت النيران تساقط الامطار وتطايرت بقايا السفينة الى الارض والبحر .

وقد ذعر المتحاربون لهذه الحادثة الهائلة وساد السكوت وتوارت سفينة الأميرال وهرب الفريقان ومعظم المؤتمرين الذين كانوا في السفينة .

وعند ذلك اشرق وجه فوسكاري باسعة الفرع فجرد حسامه واندفع فاندفع في أثره الجنود والنبلاء الذين كانوا الى الآن في موقف التردد فكانت ساعة هائلة قتل في خلالها نحو مائتي رجل .

ولبت التياراتي يقاتل مع بعض من رجاله الى ان كسر حسامه فنظر
إلى فوسكاري نظرة جنون وقبض على شعره بيده فصاح فوسكاري برجاله
قائلا : اقبضوا عليه .

ولكن التياراتي وثب من بينهم وهرب قبل أن يظفروا به فقال فوسكاري
لرجالهم بلمهجة المنتصر : هلم بنا الى القصر ودعوا هذا الخائن يهرب الى
حيث يشاء .

٨٠

جسر الشهداء

وقد التف النواب والنبلاء حول فوسكاري يهتفون له بينما هو يسأل
نفسه فيقول : لماذا تدق الاجراس دقات حزن وما هذا الصراخ الذي اسمعه
من بعيد ومع ذلك فقد سار رجاله الى السراي .

وكان قد قتل من جنوده في هذه المعركة كثيرين ولكن بقي له قوة لا
يستعفف بها .

وكانوا كلما تقدموا خطوة اضطروا الى الوقوف لاعتراض العصابات في
كل حين .

وبعد ساعة من ذلك السير البطيء وصلوا الى مكان ضيق يتشعب منه
طرقات كثيرة فقال أحد أعضاء مجلس العشرة : هلموا بنا نركب الزوارق .
فأجابه فوسكاري قائلا : كلا فان الشعب يحسب اني خفته .

وعند ذلك هجمت عصابة مؤلفة من خمسة عشر رجلا فأطلقوا بنادقهم
على رجال الدوج دفعة واحدة وارتدوا الى جهة السراي وهم يصيحون
قائلين : الحرية .. الحرية كانديانو انها في يد رولاند كانديانو .

وقد قتل بهذه الطلقات أربعة وجرح ثمانية .
 ومع ذلك فإن الدوج أمر أن يتقدم الموكب فواصل سيره وكان كل ما
 تقدم من السراي يشتد هتاف الناس لروланд ويكثر هجوم العصابات .
 حتى أن النساء كن يصرخن من النوافذ قائلات : لتحيى الحرية ..
 ليحيى رولاند .
 وكان كثيرون يرمون موكب الدوج بالقذائف من أعلى السطوح .
 فاشتد جزع الدوج إذ كان يرى رجاله تنساقط أمامه ولا يسمع غير
 اصوات الهتاف لروланд فصاح قائلاً : رباه اني لا اسالك غير الحكم على هذه
 المدينة اسبوعاً واحداً فقط فاجعلها قاعاً صفصفاً واحرقا بأهلها المتمردين .
 وصاح النواب قائلين : تبا لكم ايها العميد الأشقياء .
 وصاح الجنود قائلين : الى الموت .. الى الامام .
 فكانت اصوات هتاف الشعب تخفت اصواتهم فلا يسمعون أحد .
 وما زالوا على ذلك حتى وصلوا سانت مارك .
 ولكنهم لم يبلغوها إلا وقد تضعض شملهم وتمزقت ملابسهم وتهشمت
 اعضاؤهم .
 فصاح الدوج بمن بقي من رجاله قائلاً : اسرعوا الى السراي .
 وقد قال هذا القول بصوت متلجلج إذ كاد يحن من رعبه .
 وعند ذلك التقى بعصابة مؤلفة من ثمانمائة رجل يتقدمهم رولاند وقد
 بقي حسامه في غمده .
 فصاحوا جميعهم بصوت واحد قائلين : الحرية الحرية .
 وقد خرجت هذه الأصوات من أفواههم كما يخرج الزئير من اشداق
 ألف أسد .
 وصاحت جماهير الناس من حولهم بالهتاف لروланд صيحات تشبه دوي
 الرعود القاصفة .

وقد رأى فوسكارى رولاند قادماً اليه كما يرى الموت فسقط حسامه من يده لشدة رعبه .

ورأى الجنود ما كان منه فحسبوا ان ذلك إشارة من حاكمهم الى التسليم فاقبلوا به وسلموا اسلحتهم .

وبعد لحظة التقى رولاند بفوسكارى فقال له نفس اللمجة التى كلمه بها قصى عليه بالسجن منذ تسعة اعوام : فوسكارى انى أعذك عاصياً متمرداً واقبض عليك .

فجرد خنجره وحاول ان يطمئن به نفسه : ولكن عشرين رجلاً انقضوا عليه انقضاض العقبان الكاسرة واختطفوا الخنجر من يده .

وبعد هنيهة كانوا يصعدون الى السراى فاخذ فوسكارى تاجه عن رأسه والقى به الى الارض كما فعل والد رولاند في تلك الليلة الهائلة ليلة الخطبة .

فاصدر رولاند أمره عند ذلك بالمحافظة على المدينة وجلاء النواب وفريق من النبلاء فأظهروا خضوعهم وهكذا انتهت تلك الثورة ببضع ساعات كسائر ثورات فينيسيا بل كسائر الثورات التى يتداخل فيها الشعب .

بينما كان رجال رولاند ينفذون أوامره وقد حفظت أوراق الحكومة وفتحت أبواب الأبار والسجون فخرج منها السجناء .

وبينما رؤساء الأسطول يتسارعون لمبايعة الدوج الجديد وقد سادت الأفراح في فينيسيا كان رولاند يسير الى جسر التهنيدات وقد نزل على ذلك السلم الذى نزل من قبل وهو خافق القلب لتأثره فقد بات دوجاً ورأى أعداؤه قد سقطوا من حوله الواحد تلو الآخر وقبض على أشدهم هولاً ولكن كل ذلك لم يخفف شيئاً من شقائه في حب ليونور إذ انه في تلك الساعة لم يفتكر إلا بها .

وقد وصل الى جسر التهنيدات تحيط به زعماء عصاباتة وكلهم يعرفون تاريخ حياته وما فعل به فوسكاري .

وقد أخذوا معهم فوسكاري فلما وصلوا الى الجسر امر رولاند ان يجلسوا فوسكاري على السرير الحجري الذي جلس عليه من قبله ابوه حين ثملوا عينييه ودنا منه رولاند وقال :

— فوسكاري اننا اتينا بك لما كنتك على ذنوبك السابقة وانما نحاكمك على ما اسأت به الى الدوج كانديانو أما ذنبك الي فاني أعفو عنه .

* * *

وليسمح لنا القراء أن نعود الى بيت ارتين الشاعر فقد كان هذا الشجاع أقفل جميع الأبواب ووضع وراءها المتاريس وسد المنافذ فكأن هذه الثورة لم تشر في فينيسيا إلا لأرهابه .

أما هو فقد أقام في غرفة كائنة في وسط المنزل يرتجف من الرعب ولا ولا يتعزى بأحد .

حتى ان نساءه كن قد ذهبن الى النوافذ يتفرجن على تلك المعارك الناشئة غير مكترئات لاعتراضه .

ولم يكن معه غير خادم واحد وهو الخادم الذي جعله رولاند رقيباً عليه في منزله فان جميع الخدم كانوا واقفين عند الأبواب وقد أمرهم أن يدافعوا عن المنزل حتى الموت إلى ان يتسنى له الفرار .

وفيا هو على ذلك قرع باب غرفته قرعاً شديداً فاندلع لسانه من الرعب وجعل يصيح : رحماك لا تفتكوا بي اني لا ادخل لي بهذه الثورة قسماً بالعذراء .

وقد فتح الخادم الباب فكان الطارق نساءه قد دخلن قائلات لقد تأيسد الفوز لرولاند .

غير أن ارتين لم يسمع كلامهن فأسرع واختبأ تحت السرير وهو يقول
 بصوت يتلجج من الخوف : رحماك لا تقتلونني اني لم اسيء الى أحد .
 ولم يستفق من رعبه إلا حين سمع قهقهة الخادومات فنهض وأظهر كل
 فنون شجاعته بضربهن وشتمهن .
 غير ان جاسوس رولاند حال بينه وبينهن وأخرجهن من الغرفة فشاب
 اليه رشده وأخبره الخادم عند ذلك بما أوتيه رولاند من النصر .
 فضرب ارتين جبينه بيده وقال الرسالة . : . رسالة دندولو ... رباه كيف
 أستطيع ايصالها الى رولاند دون أن أخاطر بنفسي .
 وبعد التفكير هنيئة قرر ان يعهد بايصالها الى ذلك الخادم فكلمه بصوت
 منخفض وأعطاه اياها فانطلق بها لفوره .

أما سكالابرينو فانه بعد ان أشعل الفتيل في سفينة الأميرال صعد الى
 ظهر السفينة فلم يلتبه اليه أحد من البحارة والجنود لانها كهم في أعمالهم لأنه
 كان مرتدياً بلباسهم وقد رأى الجنود تنزل الى البر فاندفع بينهم وفتح لنفسه
 سبيلاً بالقوة فوصل الى ساحة القتال ساعة الانفجار .
 وهناك رأى ما كان من الخذلان التياري وشاهده يركض هارباً فقال في
 نفسه : إذا نجا منهم فلا ينجو مني واندفع في أثره .
 وأما التياري فانه أسرع راكضاً الى قصره ودخل الى غرفة ليونور فلم
 يجدها فصاح بملء اليأس قائلاً : لقد هربت .
 ثم ذكر فجأة انه رآها تشيع جنازة ابنيها وتراكض الخدم اليه منذعرين
 لهيئته فقال لهم : اين السيدة ليونور .
 فأجابه أحدهم : قائلاً انها في بيت الجزيرة .
 فخرج راكضاً وبعد هنيئة كان في بيت الجزيرة وقد دخل الى قاعة

الطعام كما تقدم حيث تركناه يحاول أخذ ليونور بالقوة وهي بين ذراعي والد رولاند تصيح وتستغيث .

أما والد رولاند فانه مد يده شأن المتوعد وقال : من هو هذا السفاك الذي يحسر على ارهاب امرأة ؟

فأجابه قائلاً : هذا أنا التياري .

— ماذا تريد ؟

— أريد امرأتي .

فانذهل الشيخ وقال بلمهجة من يستفيق من نوم طويل ، امرأتك ؟

— ان تلك الصيحات التي كان يسمعها من الخارج وصوت ليونور الشجي وقد ركعت أمامه تروي مصابها وعناية فيليب كل ذلك قد رد صوابه اليه .

فأجابه التياري ، نعم امرأتي وانني ... وقبل ان يتم جملته شعر ان يداً قوية قد وضعت على كتفه فالتفت مغضباً فرأى أمامه سكالابرينو فقال له :

ماذا تريد مني ؟

قال : أريد أن اقتلك .

وعند ذلك وثب الى الجدار حيث تعلق الاسلحة فانزع خنجرين فابقى واحداً في يده والقى بالآخر الى التياري .

فالتقط التياري الخنجر واسرع سكالابرينو فوقف بينه وبين ليونور . أما والد رولاند فانه جلس على كرسيه وحقق بعينه كأنه يريد ان يرى ما يحدث .

وأما ليونور فانها ركعت وخبأت رأسها بين ركبتَي الشيخ كي لا ترى . وقد جرد التياري الخنجر ونظر الى سكالابرينو فرأى جثته الضخمة ونظراته البراقة الهائلة فحاول ان ينقض عليه .

ولكنه ما لبث ان تراجع عن هذا العزم كأنه علم بأنه قضي عليه القضاء المبرم .

وقد هاله منظر سكالابرينو وكره ان يموت من يده فالتفت الى ليونور وقال لها واليأس ملء قلبه : اني اموت فكوني سعيدة ما زالت سماعتك معقودة بموتي ولكني العنك في ساعة الموت .

ثم نظر الى ما حوله نظرات تدل على الجنون وطعن نفسه بخنجره طعنة عنيفة .

وبعد هذه الطعنة لبث بضع ثوان ينظر الى ليونور نظرات وحشية ثم هوى الى الأرض صريعا .

وقد بقيت عيناه مفتوحتان تدلان على الوعيد كأنما عواطف الانتقام بقيت فيه بعد الموت .

وأما سكالابرينو فإنه القي خنجره ودنا منها فقال لها : سيدتي لقد انتهى كل شي وقد نجوت .

فقال له والد رولاند : من أنت ؟

قال : اني صديق مولاي رولاند وصديق السيدة ليونور وصديقك ..

— رولاند .. اين هو ولدي ؟

فصاح سكالابرينو بصوت يتهدج من التأثر قائلا : تقول ولدك ... أحق ما اسمع رباة أحق ان الصواب عاد اليك ؟

فسالت دمعتان من عين الشيخ واطرق برأسه فقال : يا ليت لم يعد الى هذا الصواب فقد ذكرت الآن واأسفاه وبحث في أعماق نفسي فلم أجد غير ظلمات اليأس .

ثم قال بصوت خنقته عبرات اليأس : ولدي .. اين هو . فإنه لا شك قد قنط في أعماق السجون .. ولدي رولاند اين انت ؟

فبكى سكالابرينو وحاول أن يخبره بكل ما حدث وبانتصار رولاند فحال دون ذلك دخول الخادم المعجوز الى تلك القاعة مسرعا يصطحبه جاسوس رولاند في منزل ارتين .

وقد دنا هذا الجاسوس من سكالابرينو وقال له : يجب في الحال ان أرى الرئيس .

— لماذا ؟

— لأعطيه هذه الرسالة .

— هاتها .

فأخذ سكالابرينو تلك الرسالة التي كتبها أرتين الى رولاند باملاء دندولو وقرأها معجباً بسرعة ثم التفت الى الجاسوس والى فيليب وقال لهما : يجب ان تراقبا هذه السيدة كل المراقبة وان تمنعاهما عن الخروج وان لا تدعاهما لحظة واحدة .

ثم التفت الى الشيخ فتأبط ذراعه وقال له : أتريد ان تعلم أين هو ولدك؟ أتريد ان تلمسه وتراه بيدك وقبلاتك إذ لا تستطيع ان تراه بعينك ؟ إذن تعال معي .

— ولدي .. ولدي .

— تعال .. تعال .

فقالت ليونور : أبي لا تتركني .

وقال سكالابرينو : تعال وقد نظر الى الرجلين وجدد بنظره وصيته اليهما بشأن ليونور ثم سار بالشيخ .

أما ليونور فانها كانت لا تزال راكعة فأسندت رأسها الى الكرسي وقد وهنت قواها وجعلت تبكي بدموع غزيرة .

وأما فيليب فانه حمل جثة التيماري الى الخارج وعاد الى الإقامة معها حسب وصية سكالابرينو .

٨١

عذاب فوسكارى

ولنعد الآن الى جسر التهنيدات فقد تركنا فوسكارى هناك مقيداً على ذلك الكرسي الحجري الذي ثملوا عليه عيني والد رولاند وإنما اجلسوه عليه كي يماقبوه بذلك العقاب نفسه .

على ان كبرياء فوسكارى لم تنحط حق في هذه الساعة فجعل ينظر الى رولاند نظرات وحشية ملؤها الحقد وقد ثملت حقيقة نفسه في عينيه إذ لم يبق سبيل للتنكر في هذا الموقف بعد ان سقط من قمة مجده فظهرت نفسه مجردة .

أما رولاند فإنه دنا منه وقال له : فوسكارى انى امثل هنا رجلاً انتقم منه انتقاماً أشد فظاعة من القتل لتنفيذ اطعامك أي انى هنا ابن كانديانو الذي قبضت عليه وثلث عينيه وقضيت على صوابه فماذا تقول ؟

— أقول انك تحسن عملاً بالانتقام لأبيك .

— فوسكارى انى اكرهك كما يكرهون رجلاً يبطش بشيخ لا يستطيع الدفاع وأنا أحب ان اعاقبك بنفس ما عاقبت به أبى .. أنظر إلى يا فوسكارى ترى ذلك الوجه الذي طالما ثمل لك فى ليالى ندمك .. انظر يا فوسكارى فانك بعد هزيمة لا ترى لأنك تستعصى كما عصى أبى وتطوف فى الاسواق متسولاً كما طاف أبى .

فارتعش فوسكارى فى البدء ارتماشاً بينساً ثم تغلب على ضعفه وعادت اليه كبرياؤه فأجاب رولاند بنظرة حقد فائقته عينا رولاند وأشار إشارة

فدنا رجل منه لم يلبث فوسكاري ان رآه حق عرف انه الجلاد فقال ::
الوداع ايها النور الوداع ايتها الحياة .

وعند ذلك سمع صيحة عظيمة عند مدخل الجسر وتباعد الناس الذين
كانوا يحيطون بـ رولاند ودخل رجل عجوز يقوده رجل هائل الجثة وهما
كانديانو وسكالابرينو فكان كانديانو باسطاً يديه المرتجفتين وهو يقول
بصوت مخننق : ولدي رولاند .. ولدي أين انت ؟

فسالت مدام الجبلين حنوياً وبعد لحظة كان رولاند بين ذراعي أبيه
وهو سكران بفرح لا تصفه الاقلام وقد نسي كل شيء في تلك اللحظة ولم
يخطر له ان يعلم كيف عاد الصواب الى أبيه وكذلك أبوه فانه لم يبحث
كيف ان ولده بات السيد الحاكم في سراي الدوج .

وعند ذلك شعر رولاند ان يداً تلمس كتفه فالتفت فاذا بأحد الزعماء
يقول له مشيراً الى فوسكاري : لا يجب ان نطيل نزعه .

فاضطرب رولاند وأخذ بهد أبيه الى فوسكاري وقال له : هوذا الرجل
الذي اعماك .

فقال أبوه بصوت أجش : الرجل الذي اعماني ؟

— نعم يا أبي فاذكر الرجل الذي قبض عليك في تلك الليلة الهائلة .

— فوسكاري ؟

— ذلك الرجل الذي قيدك على الكرسي الحجري ؟

— فوسكاري ؟

— ذلك الرجل الذي قضى عليك بالظلمة الأبدية .

— فوسكاري ؟

فأطرق فوسكاري عند ذلك برأسه ولم يطق ان يرى .

فقال رولاند : انه هنا يا أبي وهو جالس على نفس الكرسي الذي

اجلسك عليه فقل يا أبي ماذا يجب ان تصنع به ؟

فبسط الأعمى يديه وقال : أين هو فوسكارى ؟ دعني ألمسه يا ابني .
 فأخذ رولاند بيد أبيه ووضعها فوق رأس فوسكارى .
 فقال له كازديانو : أأنت الجالس على ذلك الكرسي الذي لا يجلس عليه
 غير المجرمين ؟
 فأجاب فوسكارى بلاء الكهرياء : أنا هو الجالس على هذا الكرسي
 الذي اجلستك عليه من قبل .
 فقال رولاند : احكم يا أبي بما تريده من العقاب .
 فقال فوسكارى : اني انتظر عقابكم بنفس لا تخاف .
 — تسكلم يا أبي .
 — نعم .. نعم .
 ثم ضغط بيديه المرتجتين على رأس فوسكارى وقال له :
 — فوسكارى اني اعفو عنك فاذهب وعش سعيداً واجتهد ان لا يقتلك
 ضميرك .
 وعند ذلك سقطت كهرياء فوسكارى ونكس رأسه الى الارض فبالها
 بدموعه .
 وبينما كان يذهب مطرق الرأس محدوب الظهر كأنه كان يخاف ان يقتله
 ضميره كما قال له الشيخ كان رولاند راکماً يقبل يدي أبيه ويقول : انك
 عظيم يا أبي في أعمالك فقد علمتني اليوم ان اعظم انتقام هو العفو عند
 المقدرة .

٨٢

عشاق فينيسيا

كانت ليونور راكعة في قاعة الطعام حينما برحها كانديانو الشيخ
وسكالابرينو .

وكانت تودع نفسها كل شيء في الوجود فتودع الحياة وتلك السماء الزرقاء
وذلك الشباب الناضر وهذا المنزل الذي احبت فيه بل كانت تودع الحب
نفسه فتتمتع قائلة : الوداع يا رولاند .

وكانت تكرر هذا الاسم كأنها تريد ان تموت وهو بين شفثيها .
وقد تجمع كل الوجود في حبها وتجمع كل حبها في هذا الاسم .

وما اعظم تلك الساعة الرهيبة التي كانت تتكلم فيها من تحب من اعماق
نفسها وتبسط له براءتها وما لقيت من اليأس ثم تودعه الوداع الأخير .

وقد وقفت عند ذلك فلم ترَ اللذين كانا يراقبانها لانها تجردت عن المادة
ولم تعد ترى غير خيال رولاند الذي كانت تناجيه فقالت : رولاند اني
احببتك .. رولاند .. رولاند اني لا ازال احبك .. رولاند .. رولاند
استودعك الله فعش سعيداً بعدي ..

وعند ذلك مدت يدها الى صدرها وأخرجت منه زجاجة السم ونظرت
من النافذة الى الارزة الكبرى فقالت : رولاند .. رولاند .
فأجابها صوت من الحديقة يقول : ليونور .. ليونور .

فتكهرب جسمها وقالت وقد شعرت انها باتت في غير هذا الوجود :
رولاند .

فأجابها الصوت عند عتبة الباب قائلاً : ليونور .
وقد مرت دقيقة شبه دهر وقف فيها كل من العاشقين تجاه الآخر دون
ان يجد كلمة يقولها .

وقد علمت ليونور ان رولاند قد عرف براءتها وعرف رولاند ان ليونور
لا تزال تحبه كما يحبها فكان موقفاً هائلاً شعر فيه كل منهما ان قلبه يهيم
بالخروج من صدره وانها لا يستطيعان احتمال هذا الفرع الهائل .

ثم فتش كل منهما ذراعيه دون ان يريد وسالت المدامع من عيونهما وهكذا
جمع العاشقين قلبيهما في قلب واحد ثم افترقا ووقف كل منهما يبتسم الى
حبيبه تلك الابتسامة الحلوة التي انستهما مرارة الماضي .

واننا نختم تاريخ هذين العاشقين بتلك الابتسامة ورجاءنا ان لا يكون قد
مل القارئ حوادث هذه الرواية وذلك كل ما نتمناه .

* * *

وبعد ذلك بخمسة اشهر احتفلت فينيسيا بزواج رولاند وليونور وقد
جعل هذا الزواج في نفس اليوم الذي عقدت فيه خطبتهما القديمة .

وكان في اليوم التالي لانتصاره قد انتخبه الشعب دوجاً لفينيسيا ففعل
كل ما يمكن فعله في سبيل إطلاق الحرية للشعب بحيث بات الشعب الفينيسي
اسعد الشعوب المنصوفة مدة عامين الى ان تغلب مطامع البعض وفساد اخلاق
الآخرين فعاد الشقاء الى تلك المدينة ولكن ذلك خارج عن نطاق حكايتنا
فنقصر علي القول ان سكالابرينو أبى كل الإباء ان يخلف التباري في منصبه
فاكتفى بأن يكون ملازماً لرولاند ورفيقه في اسفاره .

وأما ارتين فانه اكتفى بنظم قصيدة في وصف ذلك الانقلاب فاعترف
الناس بأنها خير ما جادت به قرائح الشعراء .

وأما جينارو فإنه جاء إلى رولاند بعد سقوط فوسكارى وسأله ان يعود إلى منصبه القديم فأجابه قائلاً : لم تبق حاجة إلى البوليس ولكنى اعهد إليك بمهمة أفضل من ذلك المنصب وهى ان تبحث وتأتىنى كل يوم باسماء الفقراء البائسين ومن أفاخ عليهم الدهر فأضاعف راتبك .

فقبل جينارو هذه المهمة وهكذا أنفق رولاند جميع المال الذى تركه له دندولو .

﴿ تمت رواية عشاق فيثيميا ﴾

